

ماريا مونتيسوري

سر الطفولة

ترجمته / د. سلوى جادو

تقديم / د. سعيد إسماعيل علي

القاهرة - مصر

2003 - 2002



يُسعدنا أن نسمع منك. رجاء أرسل تعليقاتك حول هذا الكتاب والتي سننال كل عناية على info@el-kalema.com شكراً لك.

© جميع حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر

مكتبة دار الكلمة Logos

0201277928981

02025798414

0201282456644

0201286548388

www.el-kalema.com sales@el-kalema.com

copyright©2002 Maktabh Dar El_Kalema

Originally published in the U.S.A. under the title: **The Secret of Childhood** by Dr. Maria Montessori

Published by permission of ASSOCIATION

MONTESSORI INTERNATIONALE

AMI's office in Amsterdam.

Translated by [Dr. Salwa Gado]

الطبعة الثانية ٢٠١٣

(022) 269-3466

الطباعة والتجليد: كوبي ولوجي

الفهرسة بدار الكتب المصرية

مونتييسوري، ماريا.

سر الطفولة/ ماريا مونتييسوري، ٤ ترجمة: سلوى جادو، تقديم سعيد إسماعيل علي.-

ط٢ القاهرة: مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٣

٣٤٤ ص؛ ٢٠×١٣،٥ سم

تدمك ٦ ٣٠٧ ٣٨٤ ٩٧٧ ٩٧٨

١. الطفولة

٢. الأطفال - تربية

٣. الأطفال، علم نفس

أ. جادو، سلوى (مترجم) ب. علي، سعيد إسماعيل (مقدم)

٣٠١،٤٣١٤

ج. العنوان

رقم الإيداع: ٨٨٠٨ / ٢٠١٣

ISBN :978- 977- 384 -307-6

المحويات

7.....	تقديم
21.....	المقدمة
25.....	استهلال
41.....	مدخل

الجزء الأول

49.....	1. عصر الطفل
57.....	2. المتهم
63.....	3. الفترة البيولوجية الفاصلة
69.....	4. الطفل حديث الولادة
77.....	5. الغرائز الطبيعية
81.....	6. الجنين الروحي
93.....	7. النمو النفسي
111.....	8. النظام
127.....	9. الذكاء
141.....	10. معوقات النمو: (النوم)
149.....	11. المشي
155.....	12. اليد
165.....	13. إيقاع

169.....	14. استبدال الشخصية
177.....	15. الحركة
183.....	16. ضحالة الفهم
187.....	17. ذكاء الحب
195.....	ملحق الجزء الأول

الجزء الثاني

205.....	18. تربية الطفل
219.....	19. ملاحظات واكتشافات: 1. تكرار التمرين
245.....	20. الطريقة
255.....	21. أطفال مدلون
263.....	22. الإعداد الروحي للمعلم
271.....	23. الانحرافات
303.....	24. الآثار على الصحة الجسمية

الجزء الثالث

309.....	25. الصراع بين البالغ والطفل
313.....	26. غريزة العمل
319.....	27. نوعان مختلفان من العمل
331.....	28. الغرائز المرشدة
343.....	29. الطفل معلمًا
347.....	30. حقوق الطفل

تقديم

ما من مرة رأيت فيها طفلاً - ولو لم أعرفه - يضحك أو يبتسم إلا
وبدت أُمّامي الدنيا وكأنها حديقة ورود وزهور ورياحين تشيع البهجة
والفرحة والسرور في مختلف جوانحي.

وما من مرة رأيت فيها طفلاً - ولو لم أعرفه - يبكي، إلا وَاكفهرت
الدنيا أُمّامي واعتصرني ألم شديد، وأكاد أردد مع السيدة مريم: «ليتني
مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا»!

لكن ما يخالجي في الحالة الأولى، أو في الحالة الثانية عندما أكون
أمام كبير في العمر، فأمر مختلف، عندما لا أعرفه: إذ أقول لنفسِي:
ربما يُخادع ويغش، وربما يُنافق ويتزلف، وربما يُمثل ليحظى بتقدير
هذا أو ذاك .. ربما، وربما.

في حالة الطفل أتيقن أنني أمام لحظة صدق أمام حقيقة أمام
البراءة، والطهر وصفاء النية وبياض القلب

أمام الكبير - عندما لا أعرفه - أجد أقنعة، قد تخفي وراءها حقيقة،
ولكنها قد تخفي وراءها أيضًا زيفًا وغشًا وخداعًا

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أشار إلى أن الطفل «يُولد على الفطرة...»، الصفاء الخالص، والطهر الكامل، ثم تتشكل بعد ذلك وفقًا لما تمر به من خبرات، إن كانت خيرًا فخيرٌ، وإن كانت شرًّا فشرًّا! ويصدق جان جاك روسو أيضًا في قوله: «إن كل شيء حسن في الطبيعة ما لم تمسه يد إنسان»، حيث أفهم من هذه العبارة أن الله خلق الإنسان بالفعل «في أحسن تقويم»، لكن ما يصادفه بعد ذلك من أفعال الكبار ربما يجعله يرتد «إلى أسفل سافلين»!!

وفي فطرة كل منا حب جارف للأبناء، لسبب بسيط، لأنهم كما جاء في القول العربي المأثور: «أبأدنا تمشي على الأرض».

وعندما يقول المولى سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم: «زَيْنَ للناسِ حب الشهوات من النساء والبنين» (آل عمران / 14)، ويقول: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» (الكهف / 46)، فإنما ليقر هذه السنة التي وضعها هو في خلقه من بني البشر، وهو إذ يعلن أنه جعل حُب البنين حُبًا مركزًا في فطرتنا. وأنا نظل نعتبرهم أئمن وأعلى ما في الدنيا، فإنه في الوقت نفسه يُحْمَلنا المسؤولية، بأن نخضع للنتيجة المنطقية، وهي أن نحرص على هذه الزينة، على هذه الثروة لا نبدها بسفه وسوء سلوك، لا نضيعها بخلل تنشئة وتكوين، نصون ما فطرت عليه من أصول، ونتميها ونستثمرها على خير ما يكون الاستثمار.

وروى ابن عساكر عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه كما في الجامع الكبير - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى عثمان

بن مضمون ومعه صبي صغير له يُلثِمُهُ فقال له: ابنك هذا؟ قال: نعم.
قال: أُنحِبُه؟ قال: إي والله يارسول الله إني أحبه. قال: أفلا أزيدك
حباً له؟ قال: بلى فذاك أبي وأمي. قال: إنه من تَرَضَّى (بفتح الضاد
وتشديدها) صبيّاً صغيراً من نسله حتى يرضى، تَرَضَّاهُ الله يوم القيامة
حتى يرضى».

وإذا كان حب الطفولة وتقديرها فطرياً في البشر، فقد كان طبيعياً
أن تحتل مكانة مرموقة في تفكير أهل التربية والتنشئة.

لكن الخطأ الكبير الذي وقع فيه كثيرون في قرون خلت، هو تصور
أن الطفل «كبير» في حالة قوة، وفقاً للتعبير الأرسطي، أي في حالة
كمون، ووظيفة المربي تصبح عندئذ أن يتعامل مع الطفل وكأنه قطعة
من الشمع، وهناك خاتم الكبر، لا بد من طبعه على الشمع حتى يمكن
اعتماد الطفل عضواً بعد ذلك في مجتمع الكبار. ومعنى آخر: التعامل مع
الطفل وطبع شخصيته كي تكون نسخة من كبير.

كان من نتيجة ذلك أن حكمت المجتمعات القديمة على الأطفال
بطريقة «محافظة» خائفة، جمدت كثيراً من الأوضاع، إذ ما دام الصغار
مطلوب منهم أن يكونوا نسخاً من الكبار، فسوف يأتي الجيل الجديد،
وفقاً لما كان عليه الجيل السابق، وهكذا

وفضلاً عن ذلك، فكم وُئدت قدرات حباها الله لهذا الطفل وذاك،
لم تكن لدى أبيه أو أخيه الكبير، ولكم بُددت إمكانيات وهبها الله لهذا
الطفل وذاك، لم يشأ أن يهبها لأبيه أو أخيه الكبير، حكمة من لدنه

لكي يتحقق التنوع والاختلاف، الذي هو أيضًا سُنَّة من سنن الله في خلقه، كما قال: «ولا يزالون مختلفين ..» (هود / 118)، وقال: «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم..» (الروم / 22).

ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن نسعد ونقدّر هذه الجهود المتوالية التي شهدتها الفكر التربوي، والتي تعكس وعيًا متناميًا من مفكري التربية لخصوصية الطفولة، فأينا روسو، وبستالوتزي، وفروبل، وجان بياجيه، وكومونبوس، ومونتيسوري.

ومن بين هؤلاء جميعًا تبرز لنا المربية الإيطالية «مونتيسوري» المولودة عام 1870، وتوفيت عام 1952، أي أن عالم التربية قد خسر في عام 1952، لا «مونتيسوري» وحدها وإنما كذلك عالم التربية الأمريكي الشهير جون ديوي المولود عام 1859.

لقد كانت «مونتيسوري» إحدى الأوائل الذين حاولوا تأسيس علم حقيقي للتربية، وقد قام نهجها على إقرار ما يمكن تسميته «علم الملاحظة»، فقد كانت تفرض على المربين وجميع المشاركين في العملية التعليمية أن يتلقوا تدريبًا على طرق الملاحظة، وأن تجرى العملية التعليمية نفسها في إطار يتيح المراقبة والتدقيق العلمي، وهذا ما عبرت عنه بقولها: «إن إمكان مراقبة نمو الحياة النفسية عند الطفل، كظواهر طبيعية وانفعالات تجريبية، من شأنه أن يحول المدرسة ذاتها إلى عمل، وإلى نوع من الغرفة العلمية للدراسة النفسية الوراثة للإنسان».

ومن المعروف أن فن الملاحظة، الذي اعتبره روسو المهارة الأهم المطلوبة للتعليم، يعتمد على دقة الإدراك والمراقبة، وقد تصورت «مونتيسوري» «مربياً من نمط جديد»، «بدلاً من الكلام، عليه أن يتعلم الصمت، وبدلاً من التعليم، عليه أن يراقب، وبدلاً من أن يلبس ثوب الوقار المتعجرف، ويظهر بمظهر المعصوم عن الخطأ، عليه أن يلبس ثوب التواضع». هذا النوع من الملاحظة الدقيقة عن بعد ليس استعداداً طبيعياً فطرياً، بل هو مهارة ينبغي تعلمها لأن «معرفة الملاحظة والمراقبة هي الطريق الحقيقي المؤدي إلى العلم، فإن لم نر الظواهر، تبدو وكأنها غير موجودة، أما الذي تعود أن يرى فإنه يهتم بما يرى، وهذا الاهتمام هو القوة المحركة التي تخلق الروح العلمية».

وقد نالت هذه الطريقة تقدير كثير من المربين، نذكر منهم المربي الإنجليزي «سير برسي نن» حيث أكد أن الإنسان لما كان مدنياً بطبعه، رأت الدكتورة «مونتيسوري» أن تضمن لأبنائها تلك الفرص التي تدرّبهم على أن يعيش بعضهم مع بعض، ويتعاونوا على اللعب والشغل، وأن يكتسبوا كفاية اجتماعية ورشاقة شخصية. على أن أهم ما يميز طريقة «مونتيسوري» في رأي (نن) أجهزتها التعليمية التي بها يتعلم الطفل كل ما هو جدير به أن يتعلمه في فترة حضائته وطفولته، من أجل استثمار قدرته الحركية والتمييز الحسي، ومبادئ القراءة والكتابة والحساب. وطريقتهما هي أن يُترك الأطفال لأنفسهم تحت إرشاد مرشديهم، كل يتبع طريقته الخاصة، ويختار الوقت المناسب له والأعمال التي في مقدوره أن يقوم بها، وينقدون أنفسهم بأنفسهم،

وتكون نتيجة ذلك أن يكتسب الطفل الصغير درجة عظيمة من مهارات الابتكار والاعتماد على النفس، وقوة التركيز، وأن يتعود احترام النفس في الوقت الذي يحترم فيه الآخرين، وأن يكتسب صفات من الجد والعمل الهادف قلما يعرفه غيره من الأطفال الذين يتعلمون بالطريقة التقليدية.

وفي عام 1928، كان «واطسون» في ذروة مجده ضمن مدرسة السلوكيين، في الدراسات النفسية، يؤكد على أهمية البيئة وأثرها الهائل في النمو العقلي للفرد

ولم تقف «مونتيسوري» لتنتصر للرأي القائل بالوراثة، ولا برأي السلوكيين في القول بالبيئة، فالمسألة في رأيها لم تكن إما هذا أو ذاك، وإنما في التفاعل بين كل منهما

لقد كانت ترى أن النمو العقلي امتداد للنمو الجسدي، وهو ما عبرت عنه الحكمة الشائعة القائلة بأن «العقل السليم في الجسم السليم»، وعلى هذا القول أنشأت إسهامها العظيم لمشكلة التفاعل بين البيئة والوراثة: فالبيئة تقدم الغذاء للتكوين العقلي، تمامًا مثلما تقدم الغذاء لنمو الأعضاء الجسمية، وهنا تؤكد «مونتيسوري» أن بعض العناصر التي تقدمها البيئة أكثر فائدة من غيرها للنمو العقلي، مثلما أن بعض المواد الغذائية أصلح للجسم من غيرها.

وبتجلي موقف «مونتيسوري» هذا في موقفها من «الدكاء»، فقد رأى فيه علماء نفس سابقون قوة جذب لما في الخارج من مؤثرات هي

التي تبنيه وتكونه وتنميه، مما لا بد معه أن نتعامل مع الطفل وكأنه وعاء ما علينا إلا أن نملأه بما نريد نحن، فيصبح بالفعل كما نريد

إنها ترى في هذا إلغاء لشخصية الطفل ومجافاة لما يحدث في مجرى الخبرة الإنسانية، فصحيح أن بالطفل قدرة عقلية فطرية، لكنه لا يستقبل ما تتلقاه حواسه وكان عقله مجرد مرآة ما عليها إلا أن تعكس ما أمامها .. إن الإنسان انتقائي فيما يتعرض له من انطباعات حسية. واستشهدت «مونتييسوري» برأي عالم النفس الأمريكي، أحد مؤسسي الفلسفة البراجماتية «وليم جيمس» من أن لا أحد يرى الشيء في مجموع عناصره وجزئياته، وإنما كل منا يرى جزءاً، وهنا تتدخل خبراته السابقة، وذوقه، ووجدانه واهتماماته في عملية الاختيار والانتقاء، والتذوق والحكم والتفسير. ولعل هذا يذكرنا بذلك التشبيه الشهير الذي قال به أبو حيان التوحيدي من أننا أمام الحقيقة مثل مجموعة من العميان التفوا حول فيل، وطلب من كل منهم أن يقول ماذا يحس أمامه، فتباينت الأقوال والأحكام، وكل منها صحيح في حد ذاته، لكنه يخطئ إذا تصور أنه قد أدرك الحقيقة كلها.

ولعل كتاب «مونتييسوري» (سر الطفولة) هو خير ما يعرض لنا العديد من ملامح طريقته في التربية ونظراتها النفسية الصائبة المبنية على خبرة وتجربة وعقل متفتح وقلب أم رؤوم، ويتجلى هذا في مناشدتها الكبار أن يكفوا عن التعالي على الأطفال على اعتبار أنهم وحدهم الذين خبروا الدنيا وامتلكوا المعرفة، ولو تخلينا ككبار عن هذه «العجرفة» وهذا «الكبر» فسوف يسهل علينا اختراق سر

الطفولة مما يمكننا من فتح الأبواب أمامهم لينطلقوا إلى هذا العالم الفسيح الرحب يكتشفوا مفاتيح أسرار معرفته، وتنمو لديهم مهارات الاكتشاف والابتكار والإبداع.

وهي تؤكد على أن «الحب» هو قوة التربية السحرية التي تفجر طاقات الطفل الكامنة، وهي قاعدة يمكن لكل إنسان أن يلمسها في الحياة، فعندما نحب إنساناً نحرص على ألا نفعل ما يفضبه ويؤذيه، ونحرص على العكس من ذلك، أن نفعل كل ما يفرحه ويسعده، والذين يتصورون أن تربية الأطفال يمكن أن تكون بالعنف، فهم لا يفهمون سر الطفولة، لأن فطرة الإنسان تحتم عليه أن يكره من يعتدي عليه، فإذا ما كره من يعتدي عليه، يحرص على أن يفعل ما يضايقه ويؤذيه، فضلاً عن عديد من الآثار السلبية الأخرى التي أشار إليها مفكرنا العظيم: «ابن خلدون» عندما عقد فصلاً بعنوان (في أن الشدة بالمتعلمين مضرة بهم) أكد فيه على أن مثل هذه الشدة تنتج خوفاً وجبنًا ونفاقاً.

ولعل قيمة الإسهام العظيم الذي قدمته مدرسة التحليل النفسي، بغض النظر عن تحفظات يمكن أن تؤخذ على بعض مقولاتها، تتمثل في كشفها النقاب عن أن ما يحدث لنا في فترة الطفولة، وخاصة تلك التي تسبق سن المدرسة (ست سنوات) يكون لها آثار يمكن أن تكون مدمرة للشخصية فيما بعد عند مرحلة الكبر؛ إذا كانت هذه الأحداث مؤلمة للغاية. ويتركز جهد المعالج النفسي في الكبر على أن يكشف لمرضه أسباب ما يعانيه، بالرجوع إلى مرحلة الطفولة، على

أساس أن الجهل بما حدث والذي وُوري في جُبّ اللاشعور هو السبب الرئيسي «للعقدة النفسية» أو المرض النفسي.

ومن ثمّ فالترية التي تقوم على فتح الأبواب المغلقة أمام الطفل وتركه بغير قيود يعبر عما في نفسه، وتشجيعه على الإقدام على اقتحام كل جديد ومجهول، من شأن هذه الترية أن يجنبه احتمالات «الكبت» و«التعقد»!

ووجه اختلاف «مونتييسوري» عن مدرسة التحليل النفسي، أن الأخيرة تركز اهتمامها على الجانب المظلم من حياة الإنسان في مرحلة طفولته، الجانب الذي حمل صفحات سوداء، الجانب الذي مضت عليه سنون طويلة، تركز على الكشف عنه، بعد سنوات من حدوثه، لكن مدرسة «مونتييسوري» تسعى إلى التركيز على تسجيل هذه الصفحات المشرقة البيضاء ولحظات السعادة ومواقف البناء، وتدعو إلى التأكيد والتركيز عليها، في مرحلة الطفولة المبكرة نفسها، فكانها هنا تربية وقائية، بينما الترية القائمة على التحليل النفسي تربية علاجية.

وعندما أعاد قراءة ما كتبته «مونتييسوري» في كتابها عن أهمية «الحركة» في تربية الطفل، تقفز إلى ذهني على الفور هذه الصورة الجافة الجامدة الخائفة التي كنا نعامل بها صغاراً في المدرسة، فقد كان عنوان الأدب والتهديب أن يظل التلميذ منا ساكناً لا يتحرك، وكأنه

تمثال من الحجر، مما أدى إلى أن تُسرق من كثير منا طفولتهم - بكل
الحزن وبكل الأسى!

هذا، مع أن الوعي الشعبي كان أكثر فهماً لأصول التربية من كانوا
يقومون بأمر التعليم، فهذا الوعي الشعبي يردد دائماً «الحركة بركة»،
صحيح أنه يقصد بذلك إلى استنهاض الهمم في حركة العمل وكسب
الرزق، لكن كيف يتأتى للإنسان أن يكون كذلك ما لم يُعوّد في صغره
أولاً على الحركة والنشاط؟!

وأهم ما تُلفت «مونتيسوري» إليه الانتباه، هو تلك المرحلة من
عمر الطفل التي تسبق دخوله إلى المدرسة، إذ من العجيب حقاً أن
نتصور أن التربية والتنشئة تبدأ منذ لحظة التحاق الطفل بالمدرسة
الابتدائية، مع أننا لو تأملنا الأمر جيداً لوجدنا أن الطفل حين يلتحق
بالمدرسة يكون قد اكتسب لغته الوطنية، وعرف الكثير من المعاني
والمفردات والقيم، والأفكار الدينية، واكتسب العديد من العادات،
بحيث يشكل كل هذا أساساً قوياً يمكن ألا يلتحم التحاماً بنائياً سويّاً
بما يتعلمه بالمدرسة.

وقد سبق «مونتيسوري» عدد من المربين العظماء وعلى رأسهم
فوربل الذي أسس ما عرف واشتهر باسم (رياض الأطفال)، ولو
تأملنا الاسم جيداً لوجدنا أنه سماها «بالروضة» على أساس أن يستمتع
الطفل بنوعية من التربية تجعل من التعلم «بهجة»، وتجعل من المكان

”حديقة“ للمرح والنشاط والحركة، ومن خلال هذا وذاك يتعلم ما هو بحاجة إليه من قيم مربية ومعارف أولية.

ولقد تأخرنا كثيراً في مصر مع الأسف الشديد في التحرك نحو عالم الطفولة، ومع ذلك فلا نستطيع أن ننكر الكثير من الخطوات ذات الدلالة:

- لقد صدر قانون خاص بالطفل يؤكد فيه على جملة حقوقه.
- وعرفنا نوعية من الكليات تسمى «كليات رياض الأطفال» لإعداد مريبات متخصصات جامعيات كي يقمن بمهمة التربية في رياض الأطفال بعد أن كنا نتعامل مع الرياض وكأنها مجرد مأوى بحاجة إلى ”دادة“ أو مجرد ”حارس“!
- وشهدت جامعة عين شمس مركزاً لبحوث الطفولة ..
- وكذلك معهداً للدراسات العليا في الطفولة ..
- وعقدت مؤتمرات عدة عن الطفولة ..
- وقيم معرضاً سنوياً لكتاب الطفل ..
- وشهدت بعض كليات التربية ظهوراً لأقسام خاصة بالطفولة .. إلخ
- وأنشئ مجلس قومي للأمم المتحدة والطفولة ..
- ولدينا الآن عدة مجالات للطفولة ..

ومع ذلك، فإن كل هذه الجهود، هي جهود ”علمية“، أو مهنية، أو بحثية، فإذا ما نزلنا لاستقراء واقع الطفل فسوف نشهد ما لا يسر

فع أولوية مرحلة الطفولة المبكرة، فإزال نظامنا التعليمي لا يبدأ إلا من سن السادسة، ويترك ما قبل ذلك للصدفة وما يدخل في باب العشوائية

وتجد ما بدأ يظهر من رياض الأطفال، إما غالي الثمن في خدمته لا يقدر عليه إلا الأثرياء، حيث تصل رسوم الالتحاق به إلى ألوف من الجنيهات سنوياً، وإما متدني المستوى للفقراء حيث تتحول إلى مجرد مأوى يأوى إليه الطفل إلى أن تعود أمه إليه لتأخذه إلى البيت.

لقد فتحنا الأبواب للمرأة كي تمارس حقها في العمل والخروج، لكننا لم نتسق مع إيقاع التغير في هذا الشأن، فلم نوفر لها ما يتبع ذلك من توفير عدد كافٍ من دور الحضانة ورياض الأطفال، ومن ثم أصبحت الكثرة الغالبة من الأمهات العاملات يعشن في كدٍ ونَصَبٍ يجرهما من الاستمتاع بحياتها لتظل معظم ساعات يومها وهي تلهث وتشقى، فينفتح الباب للبعض ليعلق بسخرية: هذه هي نتيجة خروج المرأة للعمل!!

وأحياناً ما أتوقف عند بعض برامج الأطفال بالتلفزيون، فأجد كما من السداجة يغلب عليها، لأننا نفتقد توافر نوعية من الكتاب الذين يمهرون في الكتابة للأطفال، بل إن كثيراً من هذه البرامج تذاع في فترة الصباح حيث لا يكون الأطفال بالمنزل وإنما في مدارسهم!!

والشيء نفسه يمكن أن يُقال عن أدب الطفل، إلى الدرجة التي نجد فيها المكتبات ممتلئة بكتب معظمها مترجم عن لغات أجنبية. إنه لا بأس

من ذلك بطبيعة الحال، لكن في مرحلة الطفولة هذه بصفة خاصة نجد الطفل ملتصقًا ببيئته وثقافته وما يتعلق بهما من مفردات ومصطلحات ومفاهيم وقيم وعادات وتقاليد.

وما زال البعض يتحدث مع الأطفال بحكايات مرعبة مخيفة عن الجن والعفاريت..!

إن قراءة كتاب "مونتيسوري" عن (سر الطفولة) يمكن أن يدفعنا إلى تصحيح الكثير من اتجاهاتنا وعاداتنا ومفاهيمنا تجاه الطفل في سنيّه الأولى، فنوفر للمجتمع بذلك ما هو بحاجة فعلية إليه: "التأسيس العلمي" للبنية البشرية التي لا نهوض حضاري بدونها.

ومن هنا فلقد سعدت أيما سعادة عندما جاءني تلميذتي د. سلوى جادو بهذا الكتاب وقد نقلته إلى العربية، سعدت بالموضوع، كما عبرت عن ذلك في سطورتي السابقة، وسعدت بالترجمة، لأنها بذلك أضاف لي علمًا جديدًا لتحقيق المقولة التي أرددها ويردها بعض غيري، من أننا، كما نعلم تلاميذنا، فإن سنة الحياة تفرض أن يجيء يوم يعلموننا فيه.

د. سعيد إسماعيل علي

أستاذ أصول التربية

كلية التربية / جامعة عين شمس

المقدمة

فيما يتعلق بالشباب والطفولة، فالمشكلات الراهنة هي، أن أكثر الدلائل لتؤكد أن التدريس ليس هو الجزء الأهم في العملية التربوية. ومع ذلك، يُصرّ «التضليل» على أن الكبار يُشكلون الإنسان من خلال تدريسهم للطفل. والحقيقة، أن التربية التي يتكون معظمها من التدريس المباشر، غالبًا ما تعطل - أكثر مما تساعد - النمو الإنساني الطبيعي. والسنوات المبكرة لا تفيد في عملية نقل الثقافة، ولهذا، لا يُنظر - باهتمام - إلى الجزء الأول في الحياة. لكن هذه السنوات التي تبدو غير مفيدة، هي الأكثر تأسيسًا. فخلال هذه المرحلة، تحتل ظاهرة مدهشة، مكانها: خلق الجسم الإنساني، ونمو السلوك الإنساني.

إن الطفل يتعلم أن يؤدي وظيفة، وباستقلالية، وأن يعالج ببراعة: أن يمشي، أن يتكلم، أن يفكر، وأن يوجه نفسه بملء إرادته. ويأخذ التقدم مكانًا، ليس لأن الكبار يُعلّمون، بل لأن الطفل يبتكر.

ويظل التقدم غامضاً إلى أن تتم المساعدة عن طريق «الحدس» لدى إنسان يحب بصدق. ولقد اخترقت دكتورة «ماريا منتيسوري» العالم الخفي في نفس الطفل ثم أفشت به. فمن الممكن أن يأتي الأطفال الذين صنعوا هذه الثورة من أدنى طبقات المجتمع. لقد كانوا يذرفون الدموع، خائفين وخجلى. لكن، علاوة على ذلك، فهم جشعون، عنيفون، ممتلكون، ومدمرون. وتدرجياً، وحالاً تم الإشباع الكامل لاحتياجاتهم النفسية، اجتازوا تحولاً يفوق النموذج العادي. حتى كتبت عنهم صحيفة «التايم»: «الأطفال المهتدون». لقد غيرت شهادة هذه الظاهرة الروحية حياة «مونتييسوري».

صحيح أن الأطفال قد تعلموا الكتابة - تلقائياً في عمر الرابعة والنصف، لكن المهم - حقيقة - كان سلوكهم الذي تغير. فالإنسان لا تصنعه الثقافة وحدها، لكن هناك كثير من الأشياء الجوهرية. وإذا استمر هذا الجزء غير مأخوذ في الاعتبار، وانحصر التركيز على الثقافة وحدها، فسيصبح الإنسان أكثر تقدماً، وأيضاً أكثر خطورة. لقد اكتشف الإنسان الطيران، كما اكتشف الطاقة الذرية، لكنه أخفق في اكتشاف نفسه.

في هذا الموضوع، تكمن القيمة الحقيقية لإسهام دكتورة «مونتييسوري». ولتوضيح هذا التائق في انبثاق أرواح الأطفال، باشرت حملة وأدارتها دامت خلال حياتها كلها وبعد وفاتها، فقد استثمرت «مؤسسة مونتييسوري الدولية» في أداء مهمتها، مع عقد الاجتماعات ودراسة المؤتمرات. وعن طريق إنشاء جمعيات «مونتييسوري» ودوراتها

التدريبية. فإذا قُدِّمَ للأطفال ما يحتاجونه من عون، فلا بد أن يكون الناس مدربين على ذلك.

وفي زمنٍ مضى، أنشئت مراكز للتدريب في: سيلان - الدنمارك - إنجلترا - فرنسا - ألمانيا - الهند - إيطاليا - باكستان - سويسرا، والولايات المتحدة. وقد انتشر الناس المدربون في كل البلاد، وامتدوا إلى الشعوب القديمة والجديدة.. لكن، تبقى كتب «مونتييسوري» هي الوسائل الأكثر تأثيراً في المؤسسة. وهذه هي الترجمة الأميركية الأولى لـ «سر الطفولة». وهي - بالنسبة لنا - إضافة مرحبٌ بها في كل الدول الناطقة بالإنجليزية، وبشكلٍ أخص، في الولايات المتحدة.

وفي هذا الصدد، فإن عددًا من المدارس، يستخدم «مونتييسوري» - فقط - كوسيلة تدريس. هنا أيضًا، كثيرٌ من الناس يؤكدون أن هذا ما كانت تعنيه «مونتييسوري». لقد أداروا اهتمامهم عما كانت تقنيه «مونتييسوري»: الإسهام الذي يمكن أن يقدمه الطفل للبشرية. وغالبًا ما أظن أن هذه الفكرة ستُدْحَضُ (لما تسببه من خلط). لكن: متى يمكن للمرء أن يجد شخصًا بمسئولية كافية؟. ها هي الإجابة دع «ماريا مونتييسوري» تتحدث عن نفسها.

ماريو م. مونتييسوري

المنسق العام

مؤسسة مونتييسوري الدولية

أمستردام - هولندا

استهلال

في السادس من يناير 1907، وفي دائرة إقليمية بـ «روما»، يلاحظ عليها أنها تشتهر بالجريمة وبالجهل وبالأمية، وبفقر سكانها المقيمين بها، بدأ فيها عملٌ انتشر وذاع حول العالم. ففي هذا اليوم، ووسط حوالي خمسين طفلاً بائساً، وحشدٍ من وجهاء روما، كانت هناك طليبة، امرأة، الأولى في إيطاليا. لقد قرأت من الكتاب المقدس قداس ذاك اليوم (عيد الفطاس): «يظهر ويتألق من أجل أن يعم نورك، ومجد السيد ينهض فوقك». وفي الخاتمة أضافت: «ربما يجب أن يصبح بيت هؤلاء الأطفال (أورشليم جديدة) وأن تكون عديدة وسط أناس مخدولين، وسوف تحمل الهداية والنور من خلال التربية».

لقد تساءلت الصحف التي انتقدت دكتورة «مونتييسوري» ماذا كانت تعني بخطبتها؟ وهي تكتب أنها قد تعلمت وعرفت بشق الأنفس. فهي - أولاً - قررت أن تدرس الطب ووجهت بمعارضة شديدة (كان عام تخرجها هو 1896). وبعد التخرج، ذهبت إلى عيادة

(مصحة عقلية) في روما، من أجل عمل إضافي سام مع المرضى الذين يعانون من الأمراض العصبية والعقلية. وهناك، بدأت تهتم بالأطفال.

وبعد انقضاء زمن، توصلت إلى محصلة مؤداها أن المعاقين - حالات التأخر الذهني - يمكن إرسالهم إلى روما لإجراء فحوصات للسواء العقلي. وعندما اجتازوا هذه الاختبارات، رأت دكتورة «مونيتيسوري» شيئاً ذا مغزى، تحت هذه المعجزة المتبدية، لشيئاً أكثر دلالة وأكثر عمقاً. لقد بدأت - آنذاك - ترى أن هناك سرّاً في الطفل، كان ممهلاً، هو مفتاح إلى الكامن غير المعروف والذي ما كان له أن يظهر. فإذا كان مستوى هذا المسمى أطفالاً «معاقين»، قد أمكنه الاقتراب من الطفل السوي، ماذا كان الأمر - إذن - مع تعليم الأطفال الأسوياء؟ ألا يمكن أن تتحقق نتائج أفضل؟ ... إنها - فقط - مجرد سنوات لاحقة حين وانتهت الفرصة أن تعمل مع أطفال أسوياء. بعد ذلك، وفي عام 1907، تم افتتاح أول «روضة أطفال» في «سان لورنزو كوارتر» بـ «روما»، والذي كان فرصة سانحة للاحتجاج في الصحف.

والآن، فإن مدارس «مونيتيسوري» موجودة في عديد من دول العالم. وتصل «طريقة مونيتيسوري» إلى أميركا، وتصبح «مونيتيسوري» محل اهتمام. سواء بالتأييد أو بالمعارضة، بالاهتمام أو بالتشكيك، داخل دوائر عديدة في الحياة الأميركية. لكن، في موازاة اهتمام حقيقي غير زائف ويضم الجميع، مع رغبة حقيقية في المعرفة، يوجد خلط كثير، عدم يقين، سوء فهم، اعتقادات خاطئة، وكان هذا - تماماً - قيمة ما

قدمه عمل دكتورة «مونتييسوري» لأميركا، وللإنسانية في الوقت الحاضر.

وغالبًا ما تحمل المجلات والجرائد والصحف والنشرات التربوية، صورة لـ «مونتييسوري» نصف صحيحة، أو غير دقيقة. وهذا يبرز ضرورة أن تكون هناك إعادة نشر لـ «سر الطفولة». ففي داخل عنوان هذا الكتاب، تكمن الإجابة عن السؤال الذي اجتهدت فيه د. «مونتييسوري». والرسالة التي حاولت أن تتركها كي تقرأها الإنسانية. ذلك أن البشرية يجب عليها التمكن من فهم عملها في أوج اكتماله. وإنه من الأهمية بمكان، توضيح أن إعادة النشر هذه، قد تمت تحت مسؤولية مؤسسة مونتييسوري الدولية^(١). وهذه الطبعة تخرج بتصديق وبموافقة المنظمة التي أنشأها في عام 1929: «د. مونتييسوري» والسيد «ماريو مونتييسوري». وفي كل بلاد العالم، يستمر العمل تحت توجيه هذه المنظمة. وهذا لكل من يتممون العمل ويتمنون أن يتأكدوا أن كتابها لن يسقط في اضمحلال مستوياتهم أو معاييرهم.

إن قرار «د. مونتييسوري» أن تضطلع بمهنة الطب، كان دلالة بارزة في رؤية عمل حياتها. فبسبب هذا التدريب من أجل الطب، تشكلت لديها قوة الملاحظة المباشرة للمريض، والملاحظة العلمية. وقد كانت هي الأداة التي استخدمتها خلال بقية حياتها، في عملها من أجل أطفال العالم. ولم يكن هذا العمل من أجل إنشاء مدارس. ولم تكن «د. مونتييسوري» تتمنى لما رسخته، أن يُطلق عليه «طريقة».

١. ١٦١ كونجينيويج - أمستردام - هولندا.

لقد قالت أنها لم تدعُ لتقدم كي يُعرَف باسمها. إنها لم تكثر بـ «طريقة العالم» التي تعني في عقولنا نظامًا لمدارس ومؤسسات تربوية. وإذا كنا بصدد فهم ما كانت تحاول أن تريه للناس، فقد أصرت مرارًا وتكرارًا - على أنه يتوجب علينا التفكير في مصطلح «المساعدة للحياة» وإذا كنا نفكر في الحياة، وليس - إذن - في مدرسة أو فصل دراسي، فعلينا الأخذ بنظرة ثابتة - عمقًا وظاهرًا واتساعًا - أكثر مما لو كنا ندرس مجرد نظام للتعليم. لذلك - ومن هذه الزاوية - فإن النظرة الكلية لعمل «د. مونتييسوري»، تستدعي منا التدقيق في فهم ما كانت تعنيه بـ «سر الطفولة».

أول ما يمكن فعله، هو إدراك أن «د. مونتييسوري» كانت تعمل من أجل الحياة، وليس مجرد تقدم الحياة التعليمي. فقط إذا فهمنا هذا، يمكننا أن نبدأ في فهم ما هو إسهامها الحقيقي للإنسانية. فإذا درسنا الحياة - وليس طفلًا في فصل دراسي - فسوف نواجه بشيءٍ مختلفٍ عن مجرد شخص عليه أن يكون متعلمًا: إنه شخصٌ ما، عليه أن يعمل في أشياء محددة لفترات محددة من الوقت. شخصٌ ما، لا بد له من إعادة إنتاج ما تم استيعابه. شخصٌ ما، سيصل إلى مستوى محدد من الإنجاز التعليمي. شخصٌ ما، سيضمن درجة محددة من عملٍ تم إنجازه. شخصٌ ما، سيعمل جيدًا وسيلعب جيدًا مع آخرين. وهذا ليس طفلًا يتم الإعلان عنه رسميًا، مسجلًا، مُدرجًا في مرحلة تعليمية، مُصنَّفًا أو مُعرَّفًا به، لكنه نظامٌ فعال يتبع نموذجًا للنمو. فالحياة لا تبدأ في الثالثة، أو حينما يلتحق الطفل بمرحلة ما قبل المدرسة، فصول

الروضة، الحضانة، أو المرحلة الدراسية الأولى. إن الحياة تبدأ في لحظة الحمل، وفي تلك اللحظة التي نواجه فيها بخلية ميكروسكوبية دقيقة جدًا، لا يمكن معها أن تُرى بالعين المجردة. لكنها تطوي في داخلها كل الإمكانيات المحتملة للكائن البشري الذي سوف تكونه.

كيف يمكننا مساعدة هذه الخلية على الإثمار؟ ليس - على الإطلاق - بالوسائل المباشرة، فلا يمكننا التعجيل بنموها. لا يمكننا حثّ اكتمال نمو الجنين. لا يمكننا تغيير نموذج نمو الأعضاء، فهذا هو سر التطور الجنيني. كل ما نستطيعه هو عن طريق الوسائل غير المباشرة من تجهيز ضرورات تطور الجنين. وكذلك بتجنب المعوقات التي قد تؤدي إلى عواقب وخيمة. والطفل يولد في نهاية الشهور التسعة، ولديه الإمكانيات المحتملة للكائن الحي. وباستثناء ضئيل في شكله الخارجي الذي يميزه عن صغار الحيوانات. لكن، كل ما قد يصحبه في حياته اللاحقة، يقع في داخل هذه البنية غير النشطة، وهو كل ما يمكننا رؤيته.

إن الطفل كائنٌ كليّ. فهو موجودٌ في كل الأزمنة، وسيستمر يولد حتى نهاية الزمن. فليس هناك طفلٌ «ما قبل التاريخ»، وطفلٌ «العصور الوسطى»، ليس هناك طفلٌ فيكتوري، ولا طفلٌ حديث. في الواقع، هناك - فقط - الطفل، لكل الأزمنة ولكل العصور. وريثٌ لا يُنازع حقه في المعتقد، حاملٌ للتاريخ، بوتقةٌ للثقافة، معبرٌ للسلام. وعن «مهمة الطفل»، تقول «د. مونتيسوري»: «أن يُنشأ الإنسان، بحيث يتوافق مع بيئته، ويتكيف مع عصره، المكان والثقافة. وإذا ما

فكرنا في الطفل لحظة الميلاد، والطفل في الثالثة من عمره، فأبي فروق هائلة بين اللحظتين؟ هذا هو «سر الطفولة».

إن ما فعلته «د. مونتيسوري» هو أنها كانت تُظهر - بوضوح - وجود قوى في الطفل الصغير لم يكن قد تم إدراكها. وما ناضلت من أجله - طوال حياتها - هو مساعدة نمو الطفل إلى أقصى اكتمال ممكن إدراكه، مما لديه من احتمالات فردية كامنة. وإذا كان عمل «د. مونتيسوري» من أجل مساعدة أطفال اليوم، فيمكنه أن يكون كذلك - فقط - إذا تناسب مع تلك المبادئ والقيم في «طريقة» «مونتيسوري» حين تبدأ معناها ويتم فهمها. إن ما فعلته هو التأصيل لعلم الإنسان. وهو بحثٌ صحيح، سواء استمد قيمته من «مونتيسوري» أم لا. وكما هي قيمته الممتدة حتى أطفال أميركا اليوم. ويمكن تنفيذه بالنسبة للمعاق، والمعدم، والمتميز، أو الطبيعي ولكن - فقط - إذا تم ذلك دونما تلاعب أو أن تشوبه أية شائبة، لكن يُنفَّذ بفهم وقبول، بكل ما في الكلمة من معنى. إن إحدى مهام اللجان التربوية - الوطنية والدولية في مؤسسة «مونتيسوري» الدولية، هي التأكد من استمرار هذا البحث ومحدداته الصحيحة.

وما يؤسف له، أن الانتقادات المخلة التي وجهت إلى «مونتيسوري» من بعض الجماعات، قد استندت بشكل واضح - إلى معلومات خاطئة وإلى سوء فهم. ف «الطريقة» صارمة، وتقمع روح المبادأة. وهي لا تعلى إلا من اكتمال المظهر الخارجي، النظام، وضبط النفس. و«الطريقة» تدفع الطفل بعيداً عن ملاحقة قدراته الذهنية. فلا نمو

للتخيل، ولا تنفيس عن القدرات الإبداعية. وأيٌّ ممن تدعمهم مقاييس «مؤسسة مونتييسوري الدولية» في عملهم في مدرسة «مونتييسوري» يدركون كم تباعد عن الحقيقة أيٌّ من تلك الانتقادات. ولأن الطريقة تأسست على «علم الحياة»، فلا يمكن أن تصبح صارمة، وهذا يناقض المقدمة المنطقية التي بنيت عليها.

وفي أي مكان يولد فيه طفل، فهو مزود بما تطلق عليه «د. مونتييسوري» «العقل المستوعب»⁽²⁾. هذا العقل المستوعب يختلف في تشكله عن عقل البالغ. فماذا ينمو - غالبًا في حالة صمت - على مدى عامين، بينما لغة غير معروفة يتم التحدث بها في الحوار، تتمكن في طور الانفجار أن تنتج لغةً في تمامها، مع نطق كامل ولغة نحوية صحيحة وجزء من لغة الوطن؟. هذا - إذن - ما يفعله أطفال العامين والنصف، وفي جميع أنحاء العالم.

هذا العقل المستوعب لا يلتقط اللغة ثم يعيد إنتاجها وحسب، بل يتشرب كل ما يصنع ثقافة بلد، ويخلق المواطنة، إنسانًا لزمان ومكان محددين. فهل يتعلم الفرنسي أن يصبح فرنسيًا بعد التحاقه بالمدرسة؟ وكذلك الأميركي والهندوسي؟. إن تشرب الثقافة، العادات، الأفكار، المثاليات، الوجدانيات، المشاعر، العواطف، العقيدة، كلها تتواجد أثناء مرحلة «العقل المستوعب» داخل الطفل فيما بين لحظة الميلاد وحتى السادسة. وهذا يمضي - بوضوح - في كل أنحاء العالم. وهذا

٢. العقل المستوعب هو آخر كتاب للدكتورة «مونتييسوري» حول الوليد والنمو المبكر في مرحلة الطفولة.

يوضح لماذا يعتبر مبدأ «العقل المستوعب» لدى الطفل، واحدًا من أهم الإنجازات في عمل «د. مونتيسوري»، كما هو من أبرز مواضع النقد. ولا أحد يزعم أنه من المؤذي أن نسمح للطفل أن يتكلم لغته الخاصة. ولهذا: فحينما ينشغل الطفل بهذه التدريبات الذهنية الهائلة الخاصة بالبحث عن القدرة على التحدث بلغة مازالت غير معروفة، فالمؤكد أنه ليس مؤذيًا السماح له بالاستمرار في استخدام عقله.

والطفل في الفصل الدراسي لـ «مونتيسوري» لا يدفع - دفعًا - إلى اكتمال الإنجاز العقلي. إن ما يفتح أمامه هو العالم. وهو يُعطي مفاتيح تفجّره عبر الأداة الحركية. فهي تعينه على تصنيع وتنظيم الانطباعات التي بدأ العقل في تلقيها. وذلك ما لم تجد الحواس سبيلها إلى الإغلاق أو عدم الاستخدام. إن ما نقدمه للطفل هو العالم الحقيقي، وليس المتخيل المصنوع مما نعتقد. فالعالم الحقيقي هو ما يمضي نحوه ليتمكن من الحياة، لا أن تصبح هي نهايته (وفقًا لرؤية المحلل النفسي). إذ كيف يتمكن أحدٌ - خلال الجماعة - من تعلم ومعرفة معاني أن يكون: أمًا، أبًا، رائد فضاء، كاتبًا، إذا لم يكن قد عرف - بعد - كيف يكون معنى الذات نفسها؟

مرة أخرى، وقد وضعت «مونتيسوري» أسس دراسة الحياة، فقد كان إبداعًا خالصًا، تمامًا ككل إبداع الحياة في مجملها. فالطفل كغيره من الكائنات الحية يمر بمراحل ناجحة للنمو توجهها في ذلك، ما تطلق عليه «د. مونتيسوري»: «المراحل الحساسة». وهذه المراحل الحساسة تظهر على كل الأطفال، في كل الأجناس، في الثقافات

جميعها، بحسبان الطفل كائنًا حيًّا كونيًّا. وخلال أية مرحلة حساسة، يُظهر الطفل تعطشًا - غير مستقر - لبعض المعرفة الخاصة، أو المهارة. وهذه الظاهرة تبدو أكثر وضوحًا واستمرارًا في مدارس «مونتييسوري» عبر العالم. وفي مواجهة هذه الثورة الكونية، هل على الطفل الأميركي أن يُحرم من الفرصة للتفجر الذهني بينما يستمر في البلاد الأخرى؟ إن هذا التفجر الذهني هو الذي يشكل العمود الفقري وبنية كل العمل الإبداعي لمدارس «مونتييسوري».

طفلٌ صغير، يعيد - بصبر - نزعَ واستبدال الأسطوانات المعقودة داخل ثقب في السطح الخشبي الاسود. ثم يعاود ذلك مرات ومرات، ربما تظهر على السطح البراق. ويمكن اعتبار هذا، مثلاً للاستخدام الصارم الذي يُفترض أن يوضع في مادة تستخدمها «مونتييسوري». ومن المؤكد أنه إذا ما سُمح للطفل ببعض الاستخدام الحر (الطليق) لقدراته الكامنة فلن يكون التكرار ضروريًّا. لكن، تكرار التمرينات - دونما تعليق أو اقتراح من الكبير - هو جانب آخر من الظاهرة التي تشيع في مدارس «مونتييسوري» في جميع أنحاء العالم. فأن تُكرّره هو أن تبحث عن فهم، أن يتجلى التركيز، وأن تظهر قوة الذكاء الإنساني. وفي هذه اللحظة أيضًا، أبدت «د. مونتييسوري» - في قبولها لظاهرة التكرار تلك - مدى عظمة فهمها لقوى الشخصية الإنسانية، كما ظهرت في الأطفال، أولًا في عام 1907، وبعد ذلك، في كثيرٍ من دول العالم.

في فصول «مونتييسوري»، تُعطى الحرية للأطفال، لأنها حرية الكائن الإنساني. ويُسمح بها للأطفال كي ينمو نموهم وسط قبول اجتماعي، نظام داخلي، ثم مرح وبهجة. هذا هو حق الميلاد للكائن الإنساني الذي سُمح له أن ينمو بصورة إنسانية مُرضية. ومرة أخرى: فإن معلمات «مونتييسوري» من كل أنحاء العالم - أمكنهن تقديم أمثلة على ذلك «لا تؤاخذني»، قالها طفل صغير لزائر دخل حجرة دراسية حيث هناك «الطريقة» التي يسمح للأطفال من خلالها، أن يفعلوا ما يريدون: «أنا لا أعرف إذا كنا نفعل ما نحب، لكنني أعرف أننا نحب ما نفعل».

العقل المستوعب وتوظيفه، المراحل الحساسة للنمو، أهمية التكرار، أهمية البيئة المهيئة، الحرية تقود إلى النظام الداخلي، التركيز، المتعة في العمل، النمو الاجتماعي ... هذه المبادئ في «طريقة» «مونتييسوري»، تأكدت بما يجعلها عالمية التطبيق. وهي كذلك بسبب استمرار الظاهرة التي أبداهها الأطفال في جميع أنحاء العالم. وعندما يتم الفهم الكامل والتطبيق، فسوف تتواصل مدارس «مونتييسوري» وتزدهر في مثل هذه الكثرة من الدول المختلفة، على الرغم من استمرار النقد وسوء الفهم.

والسبب في ذلك أن المبادئ يتم تطبيقها على فرد، وليس على فصل من الأطفال. هنا تتجلى الإمكانية في استمرارية النمو لكل طفل، وفقاً لإيقاع نموه الخاص، وإمكانياته الفردية المحتملة. إن المبدأ الخاضع لتجربات الحياة العملية، يبدأ معناه في مدارس «مونتييسوري» بسبب

الاحتياج الذي ينبغي على الطفل أن يتعلم كيف يوظفه كفرْد داخل جنس وثقافة محددين. وتعطي التمرينات المحددة تنوعًا، مع كل بلد وكل بيئة. وفي حجرة الدراسة بشكل عام يوجد هناك أفراد، واهتمامات متنوعة، وأيضًا إمكانيات محتملة. ولا يوجد طفل يتم إرغامه على اتباع اهتمامات الآخرين. لهذا السبب: يوجد تنوع - لا نهائي - في فرص البحث وامتداد العمل، وهو ما تأكد - بالبرهان - في مدارس «مونتييسوري».

على سبيل المثال: طفل الثانية والنصف الذي حَصَلَ درسًا في الأشكال الهندسية الصلبة نجده في اليوم التالي، وعلى مائدة الإفطار، يأخذ بيضته في يده ويصيح: إنها بيضاوية الشكل. والطفل الذي أصبح شغوفًا بتويجات الزهور، وذهب إلى داخل الحديقة ليقطف - من كل ما يجده من مختلف الأنواع - ويسأل المعلمة كيف يستطيع «الاحتفاظ بهذه الزهور للأبد». وهكذا، يقوده ذلك إلى نشاط جديد لتجفيف الزهور. والأطفال الذين قَدِمَ لهم درس في التاريخ حول قلعة «نورمان»، ومن الذي واصل الحملة في عطلة نهاية الأسبوع. وكل ذلك تدعمه الصور، والرسوم، والكروت بوستال، والحفائر خلال العصور، مما أمكن لهم أن يجدوه في المدرسة وفي المكتبة العامة. الطفلة التي جاءت - بعد درس عن سقوط الأمطار في إنجلترا - لتقول أنها اكتشفت أن هناك مكانًا في الهند تسقط عليه الأمطار في أحد الأيام، كأي مكان في إنجلترا تسقط عليه الأمطار خلال العام. من هنا، بدأت في عمل دراسة للمناطق الرطبة والجافة،

على الأرض. الطفلة التي ذهبت - بعد تكرارها جدول ضرب (9) - إلى زائر في حجرة الدراسة لترى أنه داخل الأحاد تذهب الأشكال من (9: صفر)، وفي العشرات من (1: 9). الطفلة التي أحضرت قائمة من الكلمات، وقالت أنها اكتشفت لهذه الكلمات وظيفتين: للإسم، ولل فعل. كما يستطيع أحد أن «يدق» جرس الباب، ويرتدي «خاتمًا» في إصبع واحدة*.

هذه الأمثلة قُدمت كي توضح أن الاكتشاف يحتل موقعًا في كل فروع المعرفة. كان يكون الأطفال في بيئة تدمج بثراء بدوافع النشاط. هذه المواد المتاحة تجد مفتاحًا ينفج به الباب عن مبادأة غير محدودة في هذا الجزء من الطفل. وليس هناك عقل طفل يمكن حشوه - عنوةً - بمفردات المعرفة. وبالمثل: لا يوجد طفل يمكن معه الحد من النشاط الذي تستلزمه هذه المنحة الإنسانية، إنها الذكاء الإنساني.

لقد جاء ذلك عبر قوتها في الملاحظة الدقيقة المرهفة للأطفال، عبر تحديدها للشواهد، والمدخل العلمي لنظام الحياة. فقد كان هذا هو موضوع دراستها، هذه هي «د. مونتيسوري». وخلال سنوات عملها مع الأطفال، أظهرت أن هذا العمل يهدف إلى التمكين من مساعدتهم في أداء مهمتهم في تشكيل الإنسان. ويجب علينا - أيضًا - أن ندخل لهذه الدراسة بوجهة نظر مختلفة عن هؤلاء الذين يعتقدون أنهم يعرفون ما قدمته لنا «د. مونتيسوري». فإذا كنا بصدد مساعدة الحياة، علينا - أولاً - أن ندرسها. ودراستها لا تعني تدريسها، فنحن - بدلاً من ذلك - نتعلم منها. ثم نتعلم من نظام الحياة هذا، الطفل، حاجاته

وميوله. وفقط، عندما نعرف حاجات الطفل، نستطيع أن نبدأ تعلم كيف نقدّمها له.

في الفصل السادس «الجنين الروحي»، تقول «د. مونتيسوري»: «من أخطر المشكلات التي تواجه الناس، هي إخفاقهم في إدراك حقيقة أن الطفل يستوضع نشاطاً للحياة الجسمية، حتى حيناً لا يمكنه توضيحها. مما يعني أن الطفل يجب أن يتم - سرّيةً - هذه الحياة الداخلية، عبر مرحلة طويلة من الزمن». ثم تضيّق قائلة: «علينا أن نرعى هذا الجهد السري للطفل كشيء مقدس. ويجب أن نخفي بإيضاحاته الشاقة، بمجرد وجودها في تلك المرحلة، والتي تتحدّد فيها شخصية الفرد المستقبلية».

«هذا يوضح لماذا تتوجب الدراسة العلمية للاحتياجات الجسمية للطفل، ولماذا يجب أن تهيأ له البيئة المناسبة لذلك». «نحن الآن «نتلعم» في علم، من الضروري له أن يتقدّم ويرتقي. وخلال ذلك، وإذا تمّ التطبيق العملي، فسيعرف الناس - بعد جهود عظيمة - سر النمو الإنساني».

وتعطي «د. مونتيسوري» أمثلة لتوضح كيف كانت دهشتها عظيمة - ثم تزداد دهشة مرة بعد أخرى - بسبب ثورات العقل عند الطفل. إنها تخبر عن الإدراك الأول، الحسّاسية للأشياء الرقيقة والتي لا يلاحظها الكبار. إنها تُشاهد لدى الأطفال خلال عامهم الثاني. لقد كان هناك طفل الخمسة عشر شهراً، محدّقاً لأسفل وبإعجاب شديد

بالأرض، عندما كانت تتحرك بسرعة شديدة حشرة صغيرة لا يمكن رؤيتها، غالبًا. والطفل الذي يتوسط مجموعة كبيرة من صور كل الأنواع، كان مهتمًا - فقط - بحقيقة أنه يمكن عمل سيارة صغيرة جدًا، في الركن القصي من الصورة، وأنه يمكن تمثيلها في شكل نقطة واضحة.

وتتحدث «د. مونتييسوري» عن «الغاز الطفولة». إن الإيضاحات الظاهرة لروح الطفل، لم ترسما - تصاعدياً - «د. مونتييسوري». فما قد رآته، هو الثورات نفسها التي لا بد وأن ظهرت منذ الظهور الأول للطفل على وجه الأرض. والكبار - لا بد - قد رأوا وسمعوا وتذكروا، دون وعي، لأن الحقائق لم تفهم في وقتها المناسب. إن سر النمو يظل غير معروف، حتى حين توضح لنا «د. مونتييسوري» - بالأمثلة المعنى الروحي العميق، ومغزى «سر الطفولة».

لقد أعدت البيئة التي تيسر للنمو أن يستمر، والتي يبقى الطفل فيها حرًا، ليشبع حاجاته وميوله. أيضًا حاولت «د. مونتييسوري» أن تدرب الكبار على البحث معها عن سر الطفولة. إنه يكمن في هذه البيئة المُعدَّة والتي «أول نتائج غير متوقعة جعلتني مندهشة - وغالبًا - غير مصدقة» مشاعرهم تجاه النظام، اختيار المهام التي تبدو متوافقة مع احتياجاتهم الداخلية، لا مبالاتهم بالمكافآت أو بالعقوبات، تفهمهم وحبهم للهدوء، إحساسهم بالذات، تلقائية النظام، الانفجار في الكتابة والقراءة. لقد مكّنها انتشار مدارس «مونتييسوري» من ملاحظة أن هذه الملامح كانت ذات عزم، وأن هناك ميولاً كونية.

لقد كانت «القوانين الطبيعية التي يجب أن تشكل الأسس الأولى للتربية».

إن سر الطفولة هو سر الحياة نفسها. إنه القوة الخلاقة التي تقود النظام الإنساني منذ لحظة الميلاد. ولكي نبادر باقتحام هذا «السر»، علينا أن نتمكن من رؤية الطفل بحسبانه شخصاً يبدأ - في داخله - عمل غامض. إنه الإمكانية المحتملة لكل موجودٍ حي وإنساني.

ولبسط هذه الإمكانيات، وفهم هذا الغموض، وللنفاذ إلى مركز الدهشة في الحياة، يجب أن نحرر أنفسنا من القاعدة التي تحكمنا ككبار عارفين، أو متظاهرين بذلك، تقول «د. مونتيسوري»: «ثوب التواضع». وبعد ذلك - فقط - سوف نفهم، من أجل اختراق «سر الطفولة». فيجب أن نكون مهئين لغموض الحياة، غموض الخلق، والذي نواجهه بفكرة مؤداها أن هذا ليس فكرنا. بل إنها قوة ليست قوتنا، رؤية أعظم من أي شيء يمكننا تصوره. انظر إلى الطفل بعيون لا تتضمن أحكاماً مسبقة، بعقل متحررٍ من اعتقادٍ مسبقٍ. لكي نتمكن - أكثر وأكثر - وبكل ما تحمل الكلمة من معنى، من مساعدة الطفل على مساعدة نفسه.

هذا لا يعني تخلياً، هذا لا يعني انحرافاً عن القاعدة، هذا لا يعني الملاحظة السلبية. إنه يلتزم فهمًا حقيقيًا لمهمة الكبير، إذا كنا بصدد تقديم المساعدة المتضمنة في مبدأ «د. مونتيسوري»، وفي التطبيق. هذه المساعدة ليست حدًا فاصلاً للحرية المطلقة لكل أنشطة الوجود

الإنساني. إنها المساعدة التي تبقى الطفل حرًا في التحرك خلال معبر النمو الإنساني الطبيعي. والذي يسمح لطبيعة الإنسان أن تغدو قوة وصحيحة. إنها المساعدة التي تعني فهم المعوقات التي قد تعترض «مَعْبَر» الطفل، وأفضل ما يمنع حدوث ذلك. وبعد تحقق فهم سر الطفولة، تتحرك قوة دفع الحياة نحو تشكل الإنسان الكلي، أكتمالاً ونوعية. إنها المساعدة التي لا تعترض طريق هذا التشكل، والتي لا تُفقد - أبدًا - عند الحاجة إليها. لكنها - أيضًا - ليست مساعدة مفروضة، وليست أبدًا مساعدة قسرية.

إنها - فقط - قوة الحب التي تجعل الكبير قادرًا على التواضع الكافي أمام الطفل بما ييسر فهمه. فالحب والتواضع لن يغلقا أمامنا «سر الطفولة». وسيمحنا القدرة على فهم المغزى الداخلي والمعنى الحقيقي لعمل «د. مونتيسوري».

مارجريت إي. ستيفنسون

منسقة التدريب - واشنطن - معهد «مونتيسوري»

ورئيسة «مؤسسة مونتيسوري الدولية» - اللجنة التربوية في أميركا.

مدخل

الطفولة : مشكلة اجتماعية

احتلت الطفولة - لسنوات عدة - موضوعًا اجتماعيًا شديد الأهمية. وكغيرها من الحركات العظيمة، فإن هذا الاهتمام، لم يتمثل في أي شخص منفرد، لكنه اندفع كالبركان يقذف بالحجم في كل الأنحاء. ولقد أمد العلم هذه الحركة الجديدة بالباعث وبالمثير حين خفّض - بشدة معدل وفيات الأطفال. ثم أصبح مدركًا أن الأطفال كانوا مرهقين - بشكلٍ دائم - بسبب مشقة العمل (الواجب) المدرسي.

لقد أظهرت الدراسات التي أجريت على صحة الأطفال أن حياتهم كانت غير سعيدة، وعقولهم مجعدة، واكتافهم محدبة، وصدورهم اشتد ضيقها. للدرجة التي يشعرون معها بسهولة - أنهم فريسة مرض السل الرئوي.

لكن الآن، وبعد مرور عقود من البحث، أصبحنا نرى الأطفال وقد صاروا كائنات إنسانية نسج حياتها، أولئك الذين أعطوهم حياتهم،

ووفروا لهم الغذاء، وكذلك باهتمام مجتمع الكبار بهم. لكن، ماذا يكون الأطفال؟. بالنسبة للكبار: فهم أولئك المولعون بحرية التصرف غالبًا - أكثر من انشغالهم في عمل يستحوذ على اهتمامهم. إنهم مصدر ثابت لمشكلة. وداخل المجموعات ضيقة الأفق في المدن الجديدة حيث الأسر كبيرة العدد التي تضج بأفرادها، ليس هناك مكان حقيقي للأطفال. وبالتأكيد، ليس هناك مكان لهم في الشوارع المزدهمة بالسيارات، أو في أماكن عبور المشاة التي تمتلئ بأناس يمضون - على عجل - في طريقهم. وتحت ضغط واجباتهم وانشغالهم الدائم بها، فليس لدى الكبار سوى القليل من الوقت لتمضية مع الأطفال. فقد أصبح مألوفًا، ضرورة العمل بالنسبة للأب وللأم. وإذا كانوا عملاً محتاجين للعمل، فكل منها - إلى جانب أطفالهم - يقع تحت وطأة المعاناة.

وحتى إذا كان الأطفال يعيشون في ظروف أكثر شقاء، فهم مقيدون إلى حجراتهم المستقلة، ومعهود بهم إلى الغرباء. ويحظر عليهم المرور بهذا الجزء من المنزل، المحجوز (المخصص) لوالديهم. فليس هناك مكان يشعرون فيه بمن يفهمهم، حيث يستطيعون فيه ممارسة أنشطتهم الخاصة بهم. إذ عليهم التزام الهدوء وعدم لمس أي شيء، في حين لا يمتلكون - أصلاً - شيئًا. وكل شيء غير متاح، فكل ما يدخل في ملكية الكبار، هو - غالبًا - محرم على الأطفال. ماذا - إذن - يمتلكون؟ لا شيء. فحتى وقت - ليس ببعيد - لم يكن الأطفال الصغار يمتلكون حتى - مقاعدهم الصغيرة الخاصة بهم كي يستخدموها.

يوضح الطفل عندما يعث على الأرض، أو بالأثاث الخاص بالكبار في أسرته. ثم يضطر أحدهم للتقاطه وحمله إلى مهده. ويبقى ذلك هو حال الطفل الذي يعيش في محيط الكبار. إنه يبدو كملتوسل، متطلعاً لشيء يفشل في الحصول عليه. وعندما يدخل إلى حجرة، يُصدُّ فوراً. إن وضعيته تشبه هذا الذي انتزعت منه حقوق مواطنته، وحقوقه المدنية. إنه كائنٌ منفيٌّ إلى هامش المجتمع، مدانٌ، معزولٌ، ومعاقبٌ من أي كبير. وكان هذه، هي آخر حقوقه الطبيعية.

وبفضل بعض الإنجازات المتميزة لعلم النفس، فقد أولى الكبار بعض الاهتمام بأعداد البيئة الملائمة لأطفالهم. حتى أنه يمكن القول أن المجتمع بات خَجِلاً منهم. فعلى الرغم من أن الناس استنوا قوانين لهم، فقد تركوا فلذات أكبادهم بلا قوانين. وبناءً على ذلك، فقد انفصلوا بعيداً عنهم. ويصبح الأطفال ضحايا مواهب الوالدين الاستبدادية. وحين يأتي الأطفال إلى العالم، يكونون مزودين بطاقات جديدة يمكنها تصحيح أخطاء الأجيال السابقة. وهم يقدمون للعالم دفقة حياة جديدة.

ومع ذلك، فقد أصبح الناس - في السنوات الأخيرة - أكثر وعياً بالأطفال، بعد قرونٍ طويلة من عدم الإحساس بحاجات أطفالهم وبمصائرهم. لقد حدثت طفرة عظيمة في مجال صحة الطفل. حيث انقذت - من هلاك الموت - أعداد هائلة من الرضع، خلال العام الأول من حياتهم. وفي بداية القرن العشرين، عندما بدأ الناس يولون صحتهم عناية خاصة، بدأت حياة الطفل تحتل رؤية متميزة وفقاً لهذا المفهوم الجديد. فقد تم تحديث المدارس، كما تبنى محبو الأطفال - ومن لهم

قدرة على التحمل والتسامح - أفكار ورؤى تربوية جديدة. وانتشر ذلك في البيوت وفي المدارس.

إضافة إلى هذه النتائج التي قد توفر - للعلم - تقدماً، فقد كان هناك حركات أخرى، ولها إصداراتها المعبرة عن فكرٍ متعمق في مجال الحس الإنساني. والآن، فقد وُضِعَ الأطفال في الحسبان في المدن، تم إنشاء المتنزهات والحدائق والميادين المخصصة لألعابهم وابتكرت مساح الأطفال، ونُشرت الكتب والمجلات، خصيصاً لهم. أصبحوا يمتلكون نزهاتهم وأثاثهم، بما يلائم احتياجاتهم ومع نمو الوعي الاجتماعي، بُذِلَ جهودٌ متعددة مثل: فرق الكشف أو المنظمات الوطنية للفتيات، والتي أعطت للأطفال تدريباً وشعوراً بهويتهم الذاتية. أيضاً، الزعماء السياسيون، بحثوا عن طريق لتحقيق الكسب وتحسين وضعية الأطفال بحسبانهم موضوعات مهمة في مشروعاتهم الثورية.

وسواء قبلنا ذلك أو رفضناه، فإن الاهتمام - اليوم - بالأطفال، يبقى موجهاً إما لنفعهم، أو لاستخدامهم «كوسائل» لتحقيق غايات أبعد. واليوم، يُدرك الأطفال بحسبانهم الجزء الضروري في المجتمع. فلم يعد الأطفال الاهتمام الأوحد لوالديهم، ليتباهوا بهم في عطلة الأحد، لا، إنهم اليوم يعاملونهم كجزءٍ من المجتمع الذي يعيشون فيه.

وكما لاحظنا - بالفعل - لم يتحقق التحسن في أوضاع الأطفال عبر جهودٍ فردية، أو حتى من خلال تعاون المجموعات والتنظيمات المختلفة فالإلام يُعزى كل ذلك؟ إنه ينسب إلى يوم الطفل الذي بزغ

فجره. بناءً على هذا، صار الطفل على قائمة اهتمامات المجتمع. ويجب أن نقيم المغزى من هذه التنمية الجديدة في المجتمع، بالنسبة لحالة الطفل، وبالنسبة للإنسانية جمعاء. إن الحركات التلقائية التي خرجت بدون روابط متبادلة، والتي أبدت هذا الاهتمام الجديد بالأطفال، أكدت أنها لم تكن نتيجة أي عاملٍ فردي. لكنه تدفق طبيعي، واندفاعٌ نحو تشكيل مجتمعي عظيم، وأحد ضرورات العصر الجديد. فنحن آخر أحياء هذا العهد الذي ولى الآن. عندما كان الناس يعملون ببطء، ويدعون أشياء سهلة ومريحة، والكبار يعيشون لأنفسهم، دونما عناية حقيقية بالأطفال.

والآن، نحن نجد أنفسنا على عتبة عصرٍ جديد حيث يصبح ضرورياً، أن يكون العمل من أجل كل من الصغار والكبار. ونحن ندخل - الآن - نظاماً سياسياً جديداً، عليه أن يوفر - ضمن قطاعاته - نوعين من البيئات الاجتماعية المتميزة: بيئة للكبير، وأخرى للطفل.

إن المهام التي تجاهها، ليست هي السعي لتنظيم الحركات الاجتماعية، فقد بدأت بالفعل. وهي ليست تنسيقاً بين مختلف المؤسسات الخاصة، دفاعاً عن الطفل. لكن، وتحت وهم هذا الفعل، نجد أنه علينا أن نسلك - ببساطة - ككبار متضامين معاً، للمساعدة في إخراج شيء من ذواتنا وكذلك الأطفال دونما حضور حقيقي لقلب المشكلة.

بدلاً من ذلك، فإن السؤال الاجتماعي حول الطفل، يتغلغل بعمق - في حياتنا الداخلية. إنه يُذهل وعينا ويغمرنا بالحياة، كي نفعل. إن الطفل ليس غريباً. إنه ببساطة - شخصٌ يمكن ملاحظته من الخارج. علاوة على ذلك، فالطفولة تمثل العنصر الأهم في حياة الكبير. إنه عنصرٌ كامنٌ في سنواته المبكرة، التي يصنعها الإنسان.

ترتبط رفاهية الكبير ورضاؤه - محورياً - بنوعية الحياة التي عاشها حين كان طفلاً. ونحن نسقط أخطاءنا على أطفالنا، فنكون لديهم انطباعاتاً يصعب محوه. وهكذا، نموت نحن، لكن يبقى أطفالنا يعانون من أخطائنا. وأياً ما كانت التأثيرات التي سيؤثر بها الطفل على الإنسانية، ولأنه بهذه الرقة، فإن السر يقبع في روحه التي اضطلع بها تربية الإنسان.

إن الجهود المتقنة والواعية التي تمت لصالح الأطفال سوف تمكننا من اكتشاف أسرار الجنس البشري. وذلك - تماماً مثلما مكنتنا البحث والتحري العلمي من اقتحام كثيرٍ من أسرار الطبيعة. ويجب أن يُقارَن السؤال الاجتماعي حول الطفولة، بالنبات الرقيق الذي - بالكاد - لا يتكسر فوق سطح الأرض لكنه يهاجمنا بأشنتداده وصلابة عوده. إنها الجذور المتعمقة والتي لا يسهل تحريكها. فإذا ما حفرنا وحركنا التراب، فسوف نرى أنها تمتد كشبكة من الممرات، تسري في كل الاتجاهات.

هذه الجذور هي رمزٌ لكوامن الإنسان. وعلينا أن ننزع تراكمات
السنين التي تحول بيننا وبين الفهم الصحيح للأطفال، واكتساب
المعرفة الحديثة عن أرواحهم.

فالجهل المروع للكبار، وغفلتهم عن رعاية فلذات أكبادهم، هو شيءٌ
متجذّر على مدى طويل. والكبير الذي يحب الأطفال، لكنه - بدون
وعي - يدينهم وينزل بهم ألماً دفيناً، إنما يمثل مرآة لأخطائه هو. إن
السؤال الاجتماعي حول الطفولة يجعلنا نقدر القوانين الحاكمة للنمو
الطبيعي للإنسان. إنها تمنحنا وعياً جديداً بأنفسنا، وتوجّهنا جديداً نحو
حياتنا الاجتماعية.

الجزء الأول

1 . عصر الطفل

في السنوات الحالية، أصبح التقدم في مجال رعاية وتربية الأطفال، يحدث بسرعة مذهلة. وقياسًا على يقظة عامة في الوعي، فهي سرعة تفوق معدل ارتفاع مستوى المعيشة. أولًا: حدث تقدم في الرعاية الصحية للأطفال والتي شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر، نهوضًا بها. ثانيًا: هناك ضوء جديد - غاية في الأهمية - تخلق شخصية الطفل ذاتها.

ولقد صار مستحيلًا - الآن - دراسة أي فرع في الطب، والفلسفة، أو الاجتماع، دون أن تؤخذ في الحسبان، الإسهامات المتحققة من دراسة حياة الطفل. إنه شيء أكثر أهمية - مثلًا - من الضوء الذي يلقيه «علم الأجنة» على كل جانب من علم الأحياء والنشوء. لكن تأثير المعرفة التي يقودها الأطفال، أعظم بكثير حيث يمتد ليشمل كل الأسئلة الإنسانية.

إنه ليس الطفل جسميًا، لكنه الجسم الذي يستطيع أن يوفر قوة الدفع صوب تحسين النوع الإنساني. إنها روح الطفل التي يمكنها تحديد وجهة التقدم الإنساني، وربما تقودها إلى أرفع شكل للحضارة.

لقد تنبأ الشاعر السويدي المبدع «إيلين كي» بأن هذا القرن سيصبح «قرن الطفل». وربما يوجد تعبيرٌ مشابه، في أول خطبة يلقيها «فيكتور الثالث» في التنصيب الذي تم في مستهل القرن، في عام 1900. لقد أطلق على التقويم الجديد المقترن ببداية القرن: «قرن الطفولة».

ربما تعكس هذه المقولات التنبؤية - جيدًا - الانطباعات السائدة في عقول الناس، عن طريق العلم في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. عندما بدأوا يُقدِّرون المعاناة التي يحتملها الأطفال، بسبب الأمراض المعدية والتي تتسبب في وفيات تبلغ عشرة أمثال النسبة بين الكبار، وبسبب صرامة المدرسة.

لكن، لم يتوقع أحد أن الأطفال قد كتموا - داخل ذواتهم - سرًا حيويًا لنزع الحجاب الذي غطى الروح الإنسانية. إنهم يحملون - داخل ذواتهم - شيئًا إذا ما تم اكتشافه، فسيساعد الكبار على حل مشكلاتهم: الفردية والاجتماعية. وهو هذا الذي يمكنه وضع أصل العلم الجديد في دراسة الطفل، مما يمكن معه إحداث تأثير فاعل في المجتمع بأسره.

الطفل والتحليل النفسي

لقد فتح التحليل النفسي - حتى الآن - مجالاً غير معروف للبحث. وخوّل لنا هذا، التغلغل في أسرار النشاطات العقلية الكامنة - مباشرة - تحت عتبة الوعي. لكنه - ضمن المشكلات الملحة - يقدم حلولاً لمشكلات قليلة داخل الحياة العملية. وفيما عدا ذلك، يستطيع المعاونة في فهم الإسهامات التي يمكن تقديمها عن طريق الحياة غير الظاهرة (المتوارية) للطفل.

ويمكننا القول، أن التحليل النفسي قد تخطى ما كان مستحيلاً - في اعتقاد علم النفس - وهو القشرة الخفية. تمامًا مثلما تجاوز الناس - أخيراً - النُصَبَ التذكارية لـ «هرقل» بطل الميثولوجيا الإغريقية القديمة. حيث وضعها الفكر القديم - ذات مرة - كحدودٍ فاصلة للعالم.

وإذا لم يتمكن التحليل النفسي من سبر أغوار محيط النشاطات العقلية تحت عتبة الوعي، لكان من الصعوبة بمكان، أن نشرح كيف يتمكن عقل الطفل من إعطائنا فهمًا متعمقًا للمشكلات الإنسانية.

وكما هو معروف، فالتحليل النفسي كان - في الأصل - فرعًا من الطب. وكان تقنيةً جديدةً في مداواة الاضطرابات الجسمية. لقد حقق - فعلاً - اكتشافاً رائعاً للقوة التي تطفئ بها النشاطات العقلية تحت عتبة الوعي، على أفعال الناس.

لقد حدث تغيرٌ كاملٌ وجذري في الأفكار القديمة، عن طريق القدرة على اختراق النشاطات العقلية تحت عتبة الوعي. فتمت دراسة عن

ردود الفعل الجسمية، والتي تلقي ضوءًا على العوامل السرية ذات الأهمية الكبرى.

لقد اكتشفوا عالمًا رحبًا وغير معروف، بينما هو وثيق الصلة بمصير الفرد. لكن التحليل النفسي لم ينجح في استكشاف هذا العالم غير المعروف. وإنه - بالكاد - ذهب إلى ما وراء نُصْب «هَرَقْل»، فيما لم يغامر باختراق الامتداد الشاسع للمحيط .. إجحاف آخر مشابه لهذا، هو أن الإغريق القدماء حددوا «فرويد» في دراسة الحالات المرضية، أكثر منها في الحالات السوية.

وفي القرن الماضي (التاسع عشر)، اكتشف الطبيب النفسي «كاركوت»، النشاطات العقلية تحت عتبة الوعي. وفي حالات استثنائية من الأمراض الجسمية المهلكة، لوحظ أن هذه النشاطات العقلية تحاول إيضاح نفسها. وذلك يشبه الهياج الداخلي لبركان ينفجر متخللاً القشرة الأرضية. إن التناقض الغريب بين النشاطات العقلية تحت عتبة الوعي وبين حالة الوعي الفردي، قد أخذت - ببساطة - على أنها أعراض للأمراض.

لكن «فرويد» تقدم إلى ما هو أبعد من ذلك. وباستخدامه تقنية متطورة، اكتشف طريقًا نفذ خلاله إلى النشاطات العقلية تحت عتبة الوعي. لكن غالبًا، كان اهتمامه مقتصرًا على الحالات غير السوية. وعليه، فكم حالة سوية ستُخضع ذاتها - طواعية - لاختبارات التحليل النفسي المؤلمة والتي تشبه نوعًا من جراحة، تجري على روح الفرد؟.

لقد استنتج «فرويد» نظرياته النفسية من معاملة المرضى. وكان علم النفس الجديد كنتيجة منطقية - قد تأسس كليًا - على الخبرات الشخصية في التعامل مع الحالات غير السوية. لقد شاهد «فرويد» المحيط، لكنه لم يكتشفه، فقد صوّره كمضيقٍ عاصف.

هذا هو السبب في أن نظريات «فرويد» غير ملائمة، وأن تقنيته في معالجة الأمراض العقلية ليست مُرضية تمامًا، ولا تقود دائمًا إلى الشفاء. وهذا يفسر لماذا وقفت التقاليد الاجتماعية وهي التزم الطبعي للخبرات القديمة تحول دون تعميمات «فرويد» النظرية. وباكتشاف الحقيقة الرائعة للنشاطات العقلية تحت عتبة الوعي، تصبح هناك حاجة واضحة لشيء أكثر من التقنيات العيادية والاستنتاجات النظرية.

سر الطفولة

يجب أن تُدخل وتُستخدم فروع أخرى من العلم، ومفاهيم مختلفة تخترق هذه المنطقة الشاسعة وغير المكتشفة داخل النشاطات العقلية تحت عتبة الوعي. وربما تساعدنا في دراستنا للإنسان منذ بدايات نشأته، بحيث نتبع أثر نمو روح الطفل عبر رد فعلها حيال بيئته. كما نشهد الدراما التراجيدية لنضالات السر، مما يترك الروح مظلمة ومشوّهة.

إنّ واحدًا من أكثر الاكتشافات إثارةً للدهشة - في مجال التحليل النفسي - هو أن الذهان (الاضطراب العقلي) يمكنه أن يغرس بداياته

في مرحلة الطفولة المبكرة. إن نسيان الحوادث التي تعود للذاكرة من داخل عتبة تحت الوعي، تُظهر أن الأطفال كانوا ضحايا عدم معرفة ما يعانون. هذا الاكتشاف كان مؤثرًا ومزعجًا، حيث يتعارض مع ما كان معتقدًا، بشكل عام. إن معاناة الأطفال الجسمية البحتة كانت بطيئة ومتواصلة. ولم يدركوا - أبدًا - أنها الأسباب الكامنة للأمراض الجسمية عند الكبار. إنها تتولد من كبح النشاط التلقائي للطفل عن طريق سيطرة الكبير. إنهم - بناءً على ذلك - يترابطون مع الكبير الذي له بالغ الأثر على الطفل، إنه والدة الطفل.

ويجب أن نميز - بدقة - بين مستويين من التحقق ونحن نتعرض للتحليل النفسي: واحدٌ منها أكثر سطحية (ظاهرية)، ويأتي من المجاهدة بين غرائز الفرد الطبيعية، وبين الظروف البيئية التي يجب أن يكيف نفسه معها. وهي - غالبًا وفيما بعد - تصبح صراعًا مع رغباته الأولية، طالما لا يكون صعبًا، نقل أسباب الخلل الهينة إلى مستوى الوعي. لكن، هناك مستوى آخر أكثر عمقًا يتجلى في أوقات تسبر فيها أغوار ذاكرة الأطفال. حين لا يكون الصراع بين الإنسان وبيئته الاجتماعية الحالية، بل بين الطفل وأمه، أو - بشكلٍ أكثر عمومية - بين الطفل والكبير.

إن صراعات هذا النوع نادرًا ما يمسه التحليل النفسي، صعبة المداواة. وما يتم إنجازه لحل مثل هذه الصراعات، قليل جدًا. وفي أفضل الحالات ينظر إليها بحسبانها عَرَضًا يسبب الأمراض.

وفي علاج أي أمراض - سواء كانت جسمية أو عقلية - أصبح مفهومًا الآن، ضرورة الأخذ في الحسبان، ما قد حدث في طفولة المريض. هذه الأمراض التي ترجع آثارها إلى الطفولة، هي القاعدة في أغلب حالات الشفاء الصعب وأكثرها خطورة. والسبب في ذلك أن نموذج حياة الكبير تأثّر يتم تحديده في سنّ عمره المبكرة.

إن الأمراض الجسمية أدت إلى نمو فروع تخصصية في الطب، كإعانة ما قبل الولادة، وصحة الطفل. كما جعلت المجتمع أكثر وعيًا بصحة الأطفال الجسمية. وعلى الرغم من ذلك، فلم ينتج تأثيرٌ مشابه بالنسبة لأمراض الناس العقلية. أما الآن، فقد أدرك الفكر أن الخلل الجسدي الخطير لدى الكبار، وصعوباتهم في التوافق مع العالم الذي يعيشونه، له بدايات في الطفولة. لكن، لم تُبذل أي جهود لحل هذه الصراعات في الطفولة.

وربما يرجع الإخفاق في إنجاز هذا، إلى الحقيقة التي مؤداها أن التحليل النفسي استخدم تقنية للدخول في عمق عتبة تحت الوعي. لكن هذه التقنية التي تصنع اكتشافات مذهشة في حالة الكبار، لا يمكن استخدامها مع الأطفال. وأنها ستتحوّل حتمًا، إلى عائق في حال استخدامها. فلا يمكن حث الطفل على استعادة شيء حدث في الطفولة، بينما هو لا يزال داخل هذه المرحلة.

بناءً على ذلك، هناك حاجة ملحة للملاحظة، عند التعامل مع الأطفال، أكثر من استنطاقهم والتحري منهم. لكن هذه الملاحظة

يجب أن تتم من وجهة نظر نفسية. وأن تهدف إلى اكتشاف الصراعات التي مر بها الطفل في علاقاته مع الكبار ومع بيئته الاجتماعية العامة. ومن الواضح أن مثل هذا المدخل يقودنا بعيداً عن نظريات التحليل النفسي وتقنيات الحقل الجديد في ملاحظة الطفل ومحيطه الاجتماعي.

هذا الإجراء لا يتضمن مهمة التحقق من اضطرابات العقل المريض لكنه يتضمن الإمساك بوقائع الحياة الإنسانية كما تنعكس في روح الطفل. ويمتدح عملي: إنها تشمل كل الحياة الإنسانية منذ لحظة الميلاد. ولابد من كتابة تاريخ التجارب المثيرة التي خاضتها روح الإنسان. فحتى الآن لم يصف أحد، المعوقات التي يصادفها الطفل. ولا صراعاته مع الكبار الأقوى منه، الذين يسيطرون عليه لكنهم يخفون في فهمه. فلا أحد قد صوّر معاناة الطفل غير المعروفة، أي: الاضطراب الشديد الذي يمثل موضوعاً لروحه الرقيقة. وبفشله في إحراز الهدف الذي تتطلبه الطبيعة، يصبح النمو داخل نشاطاته العقلية تحت عتبة الوعي، نمواً لذات إنسان أدنى منزلة.

وهكذا، أصبح هناك مجال جديد لاكتشاف العلم، يختص بالطفل. إنه يتشابه مع التحليل النفسي، لكنه يتميز عنه. فهو يهتم بما هو سوي أكثر من اهتمامه بما هو غير سوي. ويناضل «لمساعدة الحياة النفسية للأطفال». إنه يتطلع إلى تعزيز معرفتنا بهذه الحياة، وإيقاظ وعي الكبار حيث اتجاهاتهم الخاطئة تجاه الأطفال، هي النتائج لنشاطاتهم - هم - العقلية تحت عتبة الوعي.

2. المتهم

«الكبت»: مصطلح استخدم بواسطة «فرويد» ليصف به التثبيت الداخلي العميق لمصادر الاضطرابات النفسية لدى الكبير. إنها مصالحة ذاتية.

والطفل لا يمكنه النمو والاستمرار كما ينبغي، لأن الكبير يقمع هذا النمو. لكن هذه الكلمة في ذاتها «الكبير» - مصطلح مجرد. وفي الواقع، فإن المجتمع يعزل الطفل، إذا ما أثر فيه «كبير». إنه كبيرٌ محدد، كبيرٌ ملتصقٌ به. وعادةً - وفي المقام الأول - تأتي أم الطفل، ثم بعد ذلك أبوه، وأخيرًا معلمته.

على أية حال: ينسب المجتمع للكبار، دورًا مختلفًا تمامًا، إنه يعهد إليهم بتربية وتنمية الطفل. لكن الآن، بعد أن تم سبر أغوار الروح الإنسانية، هناك «اتهام» ينبعث منها، موجةً إلى أولئك الذين كانوا - في السابق يُنظر إليهم بحسبانهم الأوصياء على الإنسانية المحسنين إليها. لكن مؤخرًا، أصبح كل الكبار مدانين (الأمهات - الآباء - المعلمات - أو الأوصياء على الأطفال). لأن المجتمع المسئول عن رفاهية الأطفال، أصبح موضع مساءلة. وهناك شيءٌ خاص بهذا الاتهام المروع، إنه

غامض ومخيف، مثل صوت ينبعث يوم الحساب: «ماذا فعلت
للأطفال الذين عهدت بهم إليك؟».

رد الفعل الأول هو أحد أشكال الاعتراض والدفاع عن الذات: «لقد
بذلنا كل ما في وسعنا. أحببنا أطفالنا، ضحينا بأنفسنا من أجلهم».
مفهومان متصارعان - إذن - يواجه كل منهما الآخر: الأول واع تماماً،
والثاني ينبعث من عتبة تحت الوعي. إن الدفاع مألوف ومتجذر،
لكن - هنا - محل اهتمامنا هو «الالتهام» وليس «المتهم». فالأخير يرهق
نفسه في رعاية وتربية أطفاله. إنه يجد نفسه متورطاً في متاهة من
المشكلات: إنه مندهش كما لو كان في غابة مفتوحة ولا نهائية. وهو لا
يعرف - بعد - أن سبب دهشته وخوفه؛ قابُع في داخله هو.

إن كل من يتحدث عن تهذيب الأطفال، عليه أن يوجه هذا الاتهام
ضد الكبار. ويجب أن يفعلوا ذلك بحزم، وبدون استثناء ثم فجأة،
يصبح هذا الاتهام موضوعاً لاهتمام بالغ. لهذا، لا تُدان الأخطاء غير
المتعمدة، والتي يجب أن تكون مخجلة، تماماً مثل ما ينطوي عليه
الإخفاق الشخصي. لكنها أخطاء غير واعية. مثل هذا الاتهام يقود إلى
معرفة ذاتية، ويُعلي من منزلة كل تقدم حقيقي ينشأ عن اكتشاف كل
ما كان غير معروف، والانتفاع به.

هكذا تكون اتجاهات الناس - في كل الأزمنة - نحو أخطائهم،
اتجاهات متناقضة. فكلنا تألم من الخطأ «الواعي»، لكننا ننجذب
ونُسلب القدرة على تجنب الخطأ غير المعروف. ولذلك، فهذا النوع

من الخطأ الذي يخترق «السر» للتقدم نحو هدف معروف ومرغوب،
يمكنه كنتيجة منطقية - أن يرتقي بنا إلى نحو أفضل. وهذا يُفسّر
لماذا كان فارس القرون الوسطى مستعداً للمقاتلة من أجل أدنى انتهاك
لشرفه الشخصي، قادراً على الانحناء قبل الوصول إلى مذبح الكنيسة،
ثم يتذلل معترفاً: «أنا مذنب، وأعلن ذلك قبل كل شيء، لقد كان
خطأي وحدي». ويمدنا الكتاب المقدس ببعض الأمثلة المثيرة للدهشة
من هذه التوجهات المتناقضة: لماذا انجذب الناس إلى «يوحنا»؟ ولماذا
كانوا جميعهم من الملك حتى الرجل العادي - شغوفين بالانضمام
للحشود التي تطوقه؟. لقد أخبرهم أنهم آثمون أشرار إذا لم يهتدوا،
وسيهلكون لا محالة. كيف دعا «يوحنا المعمدان» هذه الحشود إلى
ضفاف الأردن؟. وأية دلالات ساحرة تجعل الناس كما وجدهم
محتشدين بهذا الشكل غير العادي. لقد أطلق عليهم جميعاً «صغار
الأفاعي».

هنا - حقيقةً - ظاهرة روحية غريبة: أناسٌ يندفعون سوياً لِيُسْمِعُوا
أنفسهم أنهم متهمون. بل أيضاً بحضورهم معاً يوافقون على ما
قيل، ويعترفون بخطأ تصرفاتهم. وتدخل الاتهامات القاسية المستمرة
إلى مستوى الوعي الذي يتجه بها ويدفعها في عتبة تحت الوعي. إن
النمو الروحي كله مكتسب من الوعي الذي يفترض أنه شيء
تكون خارجياً. إنه تكوّن بفضل السير في طريق الاكتشاف الذي
أحرزته الحضارة.

والآن، إذا عومل الطفل بطريقة مختلفة عما هي عليه اليوم، إذا أُنقذ من الصراعات التي تشكل خطرًا على حياته الجسمية، فهذا التغير الجذري، يعتمد على شيء يجب أن يُعدَّ أولاً. وهذا التغير يجب أن يتم داخل الكبير. حقيقةً، ومنذ تطلَّب الأمر أن يفعل الكبير كل ما في وسعه من أجل طفله، فهو يُظهر أبعد من ذلك، إنه يظهر استعداداه للتضحية بنفسه في سبيل حبه له. إنه يعترف بتحديه ومواجهته لمشكلة التمرد. لهذا؛ فعليه أن يلجأ إلى شيء يضعه خلف وعيه، مع الإدراك الإرادي لذلك.

هناك أيضًا كثير مما هو غير معروف: الجزء الخاص بروح الطفل، وهو دائماً غير معروف، ولكنه الشيء الذي تحب معرفته. ويجب أن نمضي - بروح التضحية والحماس في البحث، كأولئك الذين يرتحلون إلى أراضٍ أجنبية ويشقون الجبال في بحثهم عن الذهب المخفي. هذا ما يجب أن يفعله الكبير الذي يبحث عن العامل غير المعروف والذي يقبع مختفياً في أعماق روح الطفل. هذا هو الجهد الذي يجب أن يتشارك فيه الجميع، دونما تمييز أو فارق، لوطن أو لجنس أو لمكانة اجتماعية، بعد أن أصبح يمثل عنصراً لا غنى عنه في التقدم الأخلاقي للإنسانية جمعاء.

لم يفهم الكبار الأطفال أو المراهقين، ونتيجة ذلك؛ فإنهم في صراع دائم معهم. إن العلاج ليس هو وجوب اكتساب الكبار بعض المعرفة العقلية الجديدة، أو تحقيق مستوى عالٍ من الثقافة. لا، بل عليهم إيجاد نقطة مختلفة للانطلاق. على الكبير أن يجد بداخل نفسه، هذا الخطأ

القابع غير المعروف، والذي يمنعه من «رؤية الطفل كما هو». وإذا لم يتم هذا الإعداد، إذا لم يتحقق التوجه نحو هذا الإعداد فلن يستطيع التقدم عما هو فيه.

إن فعل الدخول إلى ذات أي إنسان، ليست مسألة صعبة كما يُتخيل، مادام الخطأ - حتى بدون وعي - كان مسبباً للألم والمعاناة. ولمحة واحدة في العلاج، تجعل الشخص يشعر بحاجة شديدة إلى الاسترخاء. فالإنسان الذي له إصبع مصاب، يضطر إلى وضع يده جانباً، حيث يعرف أن الألم لن يتوقف وأنه لن يكون قادراً على استخدام هذه اليد، مادام هذا قد حدث. وبالطريقة ذاتها، فبمجرد إدراك الشخص أنه أخطأ، سيشعر مكرهاً بضرورة أن يمثل للنظام، حيث ما اكتسبه من معرفة تؤدي به إلى الضعف والمعاناة، مما يسبب له مشقة الاحتمال. ومتى كان النظام قد أسس كل شيء بتقدم مهدٍ له ... وبمجرد اقتناعنا أننا ننسب الكثير إلى أنفسنا، ونعتقد أننا قادرون على فعل كل ما يعلو فوق قوتنا، نحن - إذن - شغوفون وقادرون على إدراك احتمالات أن الأرواح تختلف كثيراً في أنفسنا، عما هي عليه لدى الأطفال.

في تعاملهم مع الأطفال، لا يصبح الكبار أنانيين، بل أنويين⁽³⁾. إنهم ينظرون إلى كل ما يتعلق بروح الطفل من وجهة نظرهم الخاصة. ونتيجة لذلك، فإن سوء فهمهم في ازدياد متواصل. وسبب هذه ٣. الأنوي هو من ينطلق في أحكامه من الأنا، الذات الفردية أو رؤية فردية ليست من رؤية المجموع أو أحكام العقل الجمعي، وهي تختلف عن الأنانية التي تعني الغرور وحب الأنا والتمركز حولها (المترجمة).

الرؤية الأنوية ينظر الكبار إلى الطفل بحسبانه «شيئاً فارغاً»، ويصبح ممتلئاً من خلال جهودهم الخاصة. إنه «شيء جامد لا حول له ولا قوة» ولهذا، فعليهم القيام بكل شيء. شيء يفتقر إلى المرشد الداخلي ويحتاج في الحال - إلى موجه. وفي الختام، يمكننا القول أن الكبير ينظر إلى نفسه كخالق للطفل. وهو يحكم على تصرفات الطفل - حسنة أو سيئة - وفقاً لزاوية الرؤية في علاقته الخاصة بالطفل. إن الكبير يجعل من نفسه محكاً ومقياساً لما هو خير وشر داخل الطفل. والنموذج الذي يجب أن يتقوّل فيه الطفل، أن يكون معصوماً من الخطأ. وأي عيب في جانب من الطفل، يعتبر - وفقاً للكبير - شراً؛ على الكبير أن يسارع بتصحيحه.

إن الكبير الذي يتصرف بهذا الأسلوب، يقمع - لا شعورياً - نمو الشخصية الخاصة بالطفل. على الرغم من كونه قد يكون مقتنعا بأنه مملوء بالحماس وبالحب وبروح التضحية من أجل طفله.

3 . الفترة البيولوجية الفاصلة

عندما نشر «ك. ف. وولف» أكتشافاته حول انقسام الخلايا الأولية، أظهر كيف تنمو الكائنات الحية وتكبر. وفي الوقت ذاته، فقد قدم لنا مثلاً مثيراً للدهشة حول الكيفية التي تعمل بها القوى الداخلية، في اتجاه الهدف المحتم. وأثناء تجاربه، حطم - بكل ما في الكلمة من معنى - أفكار علماء النفس عن الإنسان، أمثال: «ليبتز» و«سبالنزي»، طبقاً لما تفعله الخلية المخصبة من تكوين للهيئة وللشكل النهائي للكائن البالغ.

وقد اعتقد فلاسفة تلك الفترة، أن البويضة المخصبة تتكون في تناسق بالغ الدقة، رغم عدم الاكتمال النهائي للكائن الحي. لقد توصلوا إلى هذه النتيجة من اختبار بذور النباتات التي تتكون مخفية بين فلقتي النبات الرقيق، مع ساق وجذور. وإذا غُرست مثل هذه البذرة في داخل الأرض، فسوف تنمو وتنضج. وقد عَمَّموا هذه النظرية على الحيوانات والإنسان.

ومع ذلك، وبعد اكتشاف المجهر (الميكروسكوب)، كان «وولف» قادراً على ملاحظة كيف تنمو - بحق - الكائنات الحية. لقد بدأ بأجنة الطيور، واكتشف أنها تتكون داخل خلية واحدة مخصصة. وقد أظهر المجهر أن هذه الخلية لا تكون شكل البالغ كما يمكن تخيله بوضوح. لكنها - مثل أي خلية أخرى - موجودة بنواتها ومادتها الحية الأساسية وينسجها الغشائي الخارجي. وما هو أبعد من ذلك، إن كل كائن حي - نبات أو حيوان - يأتي من مثل هذه الخلية الأولية المتماثلة. لقد لوحظ النبات الرقيق من البنور - قبل أن يصبح اكتشاف المجهر حقيقة - جنيئاً قد تم نموه من خلية أصلية أولية داخل الثمرة، والتي ستواصل النمو بمجرد وضعها في الأرض.

وتختلف الخلية الأصلية عن غيرها من الخلايا، في أنها تمضي بسرعة في الانقسام، طبقاً لخطة محتمة. لكن، ليس هناك حد أدنى من البرهان المادي على هذا النبات داخل الخلية الأولية نفسها، ومع ذلك، فهناك بداخلها أجسام دقيقة. إنها الكروموسومات التي تحدد خصائصها الوراثية.

وإذا تتبعنا سير النمو المبكر لجنين حيوان، فسنرى الخلية الأصلية تنقسم إلى اثنين. وهاتان الخليتان تنقسمان إلى أربع. ثم يستمر هذا الانقسام حتى يشكل نوعاً من الكرة المفرغة والتي يُطلق عليها «كتلة الخلايا». هذه الكرة كلما تنمو، تُفضي إلى كرة أخرى بجدار مزدوج وفم مفتوح، وهو الشكل المعروف بـ «الجسترولة»⁽⁴⁾ Gastrula

٤. الجسترولة هو جنين مكون من كيس مفتوح الفم، وجدران مؤلفة من

وعن طريق التقدم المستمر في انقسام الخلية وتعقيدها، يحرز الجنين قوة وتعقيداً في أعضائه.

لهذا، فإن الخلية الأصلية - دون رسم مصمم يمكن رؤيته - تتبع الأوامر الداخلية التي تحملها في داخلها. إنها كالخادم الأمين الذي يعرف - بقلبه - المهمة الموكلة إليه ويتحملها. ويتم ذلك دون المساعدة من وثائق مكتوبة، حيث يمكنها خداع أوامر سيده. إن خطة العمل الداخلي يمكن رؤيتها - فقط - في العمل المنجز، للخلايا التي لا تعرف التعب.

وإذا كانت كل أجنة الحيوانات تتماثل - بالضرورة - مع أجنة الإنسان، فإن أولى الأعضاء التي تظهر، هي الحويصلة الرقيقة التي تنمو في داخل القلب. وهذه تخفق بإيقاع محدد يعادل مرتين، سرعة ضربات قلب أمها. إنها تمد بالتغذية الضرورية لحياة الأنسجة التي ستتشكل وتشق طريقها باضطراد يتواصل ويستمر دون أن يصبح مرهقاً. إن نمو الجنين هو معجزة خلق رائعة، لأنها تتم في سرية وانفراد. ولا ترتكب الخلايا أي أخطاء في تحولاتها الممتدة. فبعضها تصبح غضروفًا، وأخرى تصبح أعصابًا، وأخرى تصبح جلدًا. ولكل منها وظائفها المتصلة المهيئة لتأديتها. هذه هي روعة الخلق، ومع ذلك تظل متخفية بعناية. وتثمر الطبيعة نماء الجنين دون احتراق الأنسجة. والطبيعة - وحدها - هي التي تكسر هذا التخفي متى يحين الوقت المناسب، وتحمل ثمرًا - خلقًا جديدًا مولودًا - إلى العالم.

طبقتين جداريتين من الخلايا (قاموس المورد - لمخير البعلبكي، ص ٣٨١).

لكن، هذا الكائن الذي يولد، شيءٌ أكبر من مجرد الجسم المادي الفيزيقي. إنه يشبه الخلية الأصلية التي تحمل بداخلها مبادئ جسمية مُحتمة. والجسم لن يؤدي وظائفه من خلال أعضائه فحسب، فهو مشحونٌ بما لا يوجد في الخلايا الفردية، بل في داخل الجسم الحي. بمجرد أن تكون كل خلية مخصصة - بداخلها - خطة النظام الكلي، وبالتالي جسم المخلوق الجديد المولود. وليس مهمًا نوع الجنس الذي سيُنتمي إليه هذا المولود، فسوف يحمل بداخله المواهب الفطرية التي تعينه على التوافق مع محيطه الخارجي. وهذه حقيقة كل كائن حي، حتى الحشرة الوضيعة. إن أعجوبة حشرات النحل التي تجعلها قادرة على العيش والعمل في مثل هذا المجتمع المعقد، لا يمكن أن توجد في البيض أو اليرقات، لكنها موجودة - فقط - بعد أن تبرز إلى الوجود .. وهكذا.

وحيثما يأتي كائنٌ جديد إلى الوجود، تتكون بداخله مبادئ مرشدة غامضة وهي التي تصبح مصدرًا لعمله، وخصائصه الشخصية، وللتكيف مع بيئته المحيطة. إن البيئة الخارجية التي يجد الحيوان نفسه بداخلها، لا تدمه - فقط - بوسائل الوجود النفسي، لكنها تهيئ له المثير اللازم لتحديد الخصائص المميزة لكل نوع من الحيوان. وبهذا، يصبح قادرًا على الإسهام - بطريقته الخاصة - في التناغم العام وفي بقاء العالم. ولكل نوع داخل الجنس الحيواني، البيئة المثلى المناسبة له. ولكل نوع خصائصه الجسمية المحددة التي تهيئه للإسهام في التنظيم العام للكون.

إن المكان الذي سيحصل عليه الحيوان في الكون، يمكن رؤيته في مولده. فنحن نعرف أن أحد الحيوانات سيكون أليفًا، منذ كونه حَمَلًا، وأن آخر سيكون شرسًا لأنه شبل أسد. ونعرف إن إحدى الحشرات ستكدرح دون توقف، منذ كونها نملة، وأن أخرى لا تفعل شيئًا، لكنها تطن في الأماكن المقفرة لأنها جراد.

هذه مجرد حيوانات أدنى، وبالتالي فالطفل حديث الولادة لديه ديناميات جسمية كامنة تميز وتحدد نوعه. وسيكون منافقًا للعقل، التفكير في أن الإنسان - بمفرده - هو المتفوق عن بقية المخلوقات في عظمة حياته الجسمية. أو أنه الوحيد - الكائن - الذي لا يفتقر إلى خطة لنموه الجسمي. وبخلاف الحيوانات المفترسة والتي يمكن رؤيتها - فورًا ومباشرةً - في طرائق تصرفها، فإن روح الطفل يمكنها التخفي - بعمق - حتى أنها لا تظهر لنا، فورًا ومباشرةً. إن الحقيقة المؤكدة هي أن روح الطفل لا تتحرك بنمط المقدرة الطبيعية الحتمية - ذاتها - والتي توجد في المخلوقات غير العاقلة لكنه إظهارٌ لعمق حريتها في التصرف. هذه الحرية الداخلية تتطلب شخصية محددة، وسرًا، ومثابرة صعبة، في هذا الجزء من كل إنسان. وهناك - في روح الطفل - يوجد سرٌّ لا يمكن النفاذ إليه، ثم يتكشف - تدريجيًا - كلما زاد النمو. إنه يتخفى كمزوج تتبّعه الخلية الأصلية في نموها، والذي يمكن رؤيته - فقط - في تقدم النمو.

هذا يفسر لماذا يستطيع الطفل - بمفرده - البوح بخطة «الطبيعة» للإنسان. لكن، بسبب رقة حالته - مثلما في جميع الكائنات الأولية -

تحتاج حياة الطفل الجسمية، إلى الحماية. وأن يحاط بيئة يمكنها أن
تضاهي الأنسجة ليحل محلها - بواسطة الطبيعة - الجنين الجسدي.

4 . الطفل حديث الولادة

(بيئة مغايرة)

عند الميلاد، لا يدخل الطفل إلى بيئة طبيعية، بل إلى واحدة تم إيجادها ومواءمتها من قِبَل الإنسان. إنها «بيئة مغايرة»، بناها الناس - على حساب الطبيعة - وفقًا لرغباتهم، ليحققوا لأنفسهم حالة أيسر للوجود.

لكن: ما الرعاية التي لجأ إليها الناس لمساعدة الطفل، والتي أدت - في الواقع - إلى صعوبة توافق الجميع، حيث المرور من حالة وجود إلى أخرى؟. ففي لحظة الميلاد - وليس في مرحلة أخرى - تبدو خبرة الإنسان ميلادًا عنيفًا ومجاهدة؛ وبالتالي معاناة.

هذه - تحديدًا - هي المرحلة الجديدة بأن تُدرس بجدية. ولكن، حتى الآن لم تتم مثل هذه الدراسة بعد. وكثيرٌ من يعتقدون أن العالم متعلقٌ بالطفل حديث الولادة ... ولكن كيف؟

عندما يولد الطفل، فالكل منشغل بأمه. إنها تعاني. لكن، أليست معاناة الطفل بالمثل؟ إن الرعاية تتم لوقاية الأم من الضوء والضوضاء. لكن: ماذا عن الطفل الذي يأتي من مكان محجوب عنه الضوء والصوت؟ إنه - أيضًا - يحتاج الهدوء والظلام. لقد تم نموه في مكان محمي من كل الاعتداءات، من كل تغير في درجة الحرارة، في سائل خلق لراحته. وفي لحظة، يتغير هذا البيت المظلم الهادئ، إلى هواء مُعاد. فجسمه الرقيق مكشوف للتلامس المزعج من أشياء صلبة، ويتم حمله - بخشونة - من أولئك الكبار الطائشين.

إن كل من في البيب - وهذه حقيقة - بالكاد يجروون على لمس الرضيع حديث الولادة، لأنه هش جدًا. ويستغيضون عن ذلك بحمله بأيدي خبيرة. لكن غالبًا وفي معظم الأحيان هذه الأيدي لا تناسب هذه المهمة بالغة الدقة والحساسية. فليس كافيًا أن يُحمل الطفل - بثبات - بأيدي قوية، إذ لابد من إمساكه على نحو صحيح. فقبل أن يُعهد إليها برعاية مريض أو مسن، تتعلم الممرضة الأسلوب الصحيح لتحريك المريض، وكيف تثني الرباط، وتعطي الدواء، دون التسبب في حدوث ألم شديد.

لكن: مثل هذه العناية لا توجه إلى الطفل حديث الولادة. فالطبيب يمسكه دون أي عناية خاصة، وعندما يبدأ الصراخ في يأس، لا أحد يأخذه على محمل الجد. فعادةً ما يضحك - بسعادة - كل من يستمع لصراخه. هذه هي طريقة كلامه، وصرخاته تعينه على تطهير عينيه وإنعاش رئتيه.

وبمجرد الولادة، يُحشَر الطفل داخل ملابس. ففي وقتٍ مبكر جداً يتم تقييده داخل رداءٍ محكم. ويصبح الجسد الرقيق الذي كان محتضناً داخل رحم أمه، وكأنه ملفوفٌ بمادة لاصقة. ومع ذلك، فالملابس ليست ضرورية للطفل حديث الولادة، ولا حتى أثناء الشهر الأول من وجوده. وفي الحقيقة، تتم عملية تطور تدريجي في هذه الناحية. فشرائط «القماط» تختفي ويحل محلها أثوابٌ خفيفة. وإذا تستمر عملية التقدم في النمو، سيختفي - تماماً - الدولاب الخاص به.

يجب أن يبقى الرضيع عارياً، تماماً مثلما يصوره الفن. ومثلما عاش الطفل داخل جسم أمه، فهذا يوضح حاجته لأن يكون مدفئاً. لكن، مصدر دفئه يجب أن يأتي من بيئته المحيطة، أكثر مما يأتي من ثيابه. حقيقة، هي لا تمدّه بالدفء، بل تحتفظ بما هو موجود فعلاً داخل الجسم. ودليل ذلك يمكن رؤيته في أسلوب رعاية الحيوانات لصغارها. فحتى مع وجود ريش أو فراء يغطيها، فأمهاتها تظل تحوم حولها، تدفئها بأجسامها.

ليست هناك حاجة للإصرار على هذه الضحالة في رعاية الطفل حديث الولادة. وأنا أثق أن الآباء الأمريكيين - إذا تمكنوا من التحدث إليّ - سوف يخبرونني عن اهتمامهم بالرضع في أميركا، وكذلك - أيضاً - الآباء الألمان والإنجليز. وأنا أثق أن هناك مفاجأة خاصة في معرفتي القليلة بالتقدم الذي أحرزوه في مجال رعاية الأطفال. فلا بد من حدوث تقدم، كما أعلم من خبرتي الشخصية في بلدان مختلفة - لكن

تبقى ضرورة القول أنه الآن وفي كل مكان، يوجد الوعي الكافي بما يتطلبه الطفل حديث الولادة.

وإذا كان التقدم يتمثل في رؤية ما لم تتم رؤيته من قبل، أو في فعل ما كان يُعتقد أنه غير ضروري أو مستحيل، فعلينا الاعتراف بأنه رغم الكثير الذي تم تحقيقه من أجل الطفل حديث الولادة، فما زال هناك كثير مما يمكن عمله. وهنا، يجب أن أمس نقطة واحدة: بقدر ما نحب الطفل منذ اللحظة الأولى لقدمه إلينا، تصبح حمايتنا له - غريزياً موجهة ضده. والجشع الفطري يجعلنا نسارع بحماية ما نمتلك، ومع ذلك: فلا قيمة حقيقية لما نفعل. فمنذ لحظة ميلاد الطفل، نتحكم في عقل الكبير هذه الفكرة: «احترس ألا يلوث الرضيع أي شيء، أو أن يصبح مزعجاً. راقبه! دعه تحت حراستك!».

واعتقد أنه حين يحقق الناس فهماً أفضل للأطفال، سيجدون وسائل أفضل لرعايتهم. فالطفل حديث الولادة لن يُجرب عن الأنظار لحمايته من الأذى، بل سيتوجب الاعتدال لتحقيق توافق الجسم مع العالم الخارجي الذي جاء إليه الطفل. وقد أظهرت التجارب، الحاجة إلى هذا الاستعداد المسبق، وأن يتم إرشاد الوالدين إلى هذه الرعاية. ولا يزال الآباء الأثرياء يجهزون مهداً (سرياً) رائعاً ورباطاً ثميناً لشده بأحكام تحت ملابس أطفالهم. لكن، وبهذا المستوى إذا ظلت الفائف دارجة الاستخدام، فسيرون أنها قد صُنعت من

سياط ذهبية تؤذي الأجسام الرقيقة. هذه الفخامة تظهر جهلاً تاماً بالاحتياجات النفسية للطفل. إن ثراء الأسرة يجب أن يهيئ لكونه أفضل للطفل، لا أن يكون وسيلة لإثراء محيطه الخارجي. إن الأفضل - بالنسبة للطفل - ينبغي أن يكون حجرة تنقطع عنها ضوء الشارع، وحيثما يتوافر الاطمئنان والهدوء ويمكن التحكم في الضوء والحرارة.

أيضاً، يجب أن يراعى الحرص في حمل الطفل. هذا يتطلب قدرًا محددًا من التدريب والمهارة. فإزال الطفل حديث الولادة ضعيفاً، تماماً مثلما تتعرض أمه لخطر الموت. وبدون وعي، فإن الهبة والرضا التي نشعر بها في رؤيته حيًا، هي - جزئيًا - شعورٌ بالارتياح أن الخطر قد زال تمامًا. لكن أحياناً، قد يجد صعوبة في التنفس، ولا بد من إعطائه أوكسجين. أو قد يعاني من فقر الدم، أو من نزيف تحت الجلد. لكن مع مثل هذا الطفل، تبقى ضرورة عدم الخلط بينه وبين الكبير المريض. إن احتياجات الطفل حديث الولادة ليست احتياجات شخص مريض، لكنها احتياجات من يناضل لتحقيق التكيف الجسدي والنفسية مع بيئة محيطة، جديدة وغريبة.

إن اتجاهنا نحو الطفل حديث الولادة، لا يجب أن يكون صورة للحنو أو الشفقة، بل يتعداه إلى توقير واحترام معجزة الخلق. حيث يكتمل هذا الكائن الروحي داخل محددات يمكننا إدراكها حسيًا. فذات مرة، رأيت رضيعاً حديث الولادة، تم - بالكاد - إنقاذه من الاختناق. فقد كان مغموراً بالماء داخل حوض موضوع على الأرض. وحين

انحدر داخل الماء، فجأة، ففتح عينيه مشدوهاً باسطة ذراعيه وقدميه الرقيقتين، رغم أنه كان يتهوى. لقد كانت تجربته الأولى في الخوف.

إن الطريقة التي نلمس ونحرك بها الطفل، ورقة المشاعر التي تبعث فينا الروح، تجعلنا نفكر في الإيماءات التي يستخدمها القس في مذبح الكنيسة. فيده طاهرتان، وحركاته مدروسة بعمق، وتصرفاته تتم في هدوء. وفي الظلام الذي يتخلله - فقط - ضوء خافت يتسلل عبر زجاج النوافذ. إنه شعورٌ بالأمل والتسامي ينتشر في المكان المقدس. وهو ما يجب أن يتوافر في المحيط الخارجي الذي يعيش فيه الطفل حديث الولادة.

ولو قمنا بمقارنة بين الرعاية التي تُقدم للطفل، والتي تُعطى لوالدته، وحاولنا تخيل أن ما يجب للأم، هو مثله ما يجب للطفل، فسنرى خطأً أساليننا. فالأم يتوافر لها استقرار تام، بينما يؤخذ بعيداً، طفلها حديث الولادة حتى لا يزعجها. ولا يحمل إليها إلا لإرضاعه فقط. ويتم وضع الوليد داخل ثياب جميلة. ويُزَيَّن مشدوداً إلى أربطة وشرائط، ويتم حمله - غالباً - بما يشبه «الارحمة». وكل هذا مواز لما يحدث مع الأم، فبعد ولادة طفلها - مباشرة - تنهض وتبدل ملابسها لاستقبال الزائرين.

يُحمل الطفل من محده (سريره) إلى الكتف، ومرة أخرى يُنزل به ويوضع بجانب أمه. وهو دائماً يُعتبر مصدراً لإيجاد الأم. وتبرر الممارسة بادعاء أن الطفل ليس لديه الوعي الحقيقي والخبرة، بالألم أو الهجة. وبالتالي، يصبح حقاً أن يعامل الطفل بعناية بالغة.

لكن، ماذا نعتقد في الرعاية التي تُقدم - بسخاء - للكبار الذين يفقدون الوعي أو يتعرضون لخطر الموت؟. إنها الحاجة إلى المساعدة، وليست إدراكا للحاجة التي يتطلبها الانتباه الكامل لعقل أو شعور. والحقيقة أنه لا مبرر - إطلاقاً - للطريقة التي نعامل بها الأطفال الرضع. إن المرحلة الأولى من الحياة الإنسانية لم يتم اكتشافها بصورة كافية، والآن - فقط - بدأنا نعي أهميتها. إن الأذى والحرمان في الشهور الأولى من وجود الطفل - وكما نعرف الآن - يمكن أن تؤثر في كل مراحل نموه المستقبلي. ولكن، إذا كان في الطفل يكمن صنع الإنسان، ففي الطفل - أيضاً - يكمن رخاء الجنس البشري.

إن الاهتمام الضئيل الذي يتلقاه الطفل حديث الولادة، هو مجرد تمرُّس على صعوبة الأزمات الإنسانية. وحين يظهر بيننا، فنحن بالكاد، نعرف كيف نستقبله. ومع ذلك، فهو يحمل بداخله قوة لخلق عالم أفضل مما نعيشه نحن.

إن الكلمات التي نقرأها في خطبة من تعاليم القديس «يوحنا»، هي معنى قابل للتطبيق على الطفل حديث الولادة: «إنه كان في العالم والعالم لم يعرفه. لقد أتى إلى ذاته، وذاته لم تستقبله».

5. الغرائز الطبيعية

أثناء مرحلة الرضاعة، توجه الغريزة جميع الثدييات في رعايتها الرقيقة لصغارها. وتمدنا القطعة بمثال لهذه الرعاية المفرطة. فنرى كيفية إخفاءها لقططها الصغيرة حديثة الولادة في بقعة مظلمة. وهي تغار على نسلها لدرجة أنها لا تسمح أن يراهم أحد. لكن وبعد مضي وقتٍ قليل، فإنها تقودهم كقططٍ صغيرة، حية وجميلة.

وفي الحيوانات المفترسة، تُشاهد رعاية أكبر بصغارها. ومعظم هذه الحيوانات تعيش في قطعان أو أسراب كبيرة. ولكن، عندما تكون الأنثى في انتظار الولادة، تنسحب من صحبة القطيع، وتبحث عن مكانٍ تختفي فيه. وعندما تلد وتحمي صغارها، تعزلهم وتحافظ عليهم مدة أسبوعين أو ثلاثة، وربما شهر أو أكثر. وتتنوع هذه المدة وفقاً لأنواعها. وخلال هذه المرحلة، تكون الأم راعية ومعاونة لنسلها. فتحملهم بعيداً عن الضوء والضوضاء التي قد تربحهم، بإبقائهم مختفين في مكانٍ هادئٍ بعيداً عن الأنظار. وعلى الرغم من ولادة الصغار مزودين بقوى متعددة تتنامى بسرعة تسمح لهم بالوقوف والمشي، فإن الأم - وباهتمامٍ

بالغ - تحتفظ بهم منعزلين، حتى يشتد عودهم ويتمكنوا من تكييف أنفسهم مع البيئة المحيطة الجديدة. هنا - فقط - تقودهم الأم إلى بقية القطيع حيث يتمكنون من الحياة تابعين لنوعهم المتماثل.

وتتشابه غرائز الأمومة لدى هذه الرتبة الأعلى من الحيوانات، سواء كانت خيولاً، ثيراناً أو خنازير، أو ذئباً أو فهداً. كما أن الطريقة التي يظهرون بها اهتمامهم بصغارهم، يمكن أن تثير المشاعر.

وبعد ولادتها للعجل، فإن أنثى الثور تحتفظ به بعيداً عن القطيع لأسابيع عدة. وتقدم له خلالها كل الرعاية المصحوبة بالركة. فعندما يبرد العجل، تغطيه بقوائمها الأمامية. وعندما يكون متسخاً، تلعقه - بصبر - حتى يصير نظيفاً. وعندما يكون جائعاً، فإنها تقف على ثلاثة أرجل بدلاً من أربعة، فرما ييسر ذلك الوضع عملية إرضاعه. وعندما تحمله لينضم إلى القطيع، فهي تستمر في رعايته بهذا الصبر الذي يختلف عما هو شائع بين جميع الإناث ذوات الأربع.

وإنّاث بعض الحيوانات لا تكتفي بالبحث عن مكان منعزل تلد فيه صغارها، بل تبذل جهوداً عظيمة لإعداد ملجأ لها. فمثلاً: أنثى الذئب تبحث عن تجويف مظلم أو ركن ناءٍ داخل أخشاب. لكن، إذا لم تتمكن من إيجاد مثل هذا المأوى، فإنها تحفر تجويفاً داخل الأرض، أو تبحث عن وكرٍ في تجويف جذع شجرة. ثم تحشوه وتبطنه بشعرٍ تنتفه من صدرها. وهذا لا يمنع الجرو دفئاً وحماية وحسب، بل ييسر أيضاً - رعاية الصغار المولودين، حيث يظلون لفترة من الوقت مغمضي

العيون والآذان. وخلال هذه المرحلة المبكرة، تصد جميع الإناث أية محاولات من الآخرين للاقترب من صغارها.

من حين لآخر، وفيما بين الحيوانات الأليفة، تكون غرائز الأمومة مشوّهة. فالحب قد يؤدي أحياناً إلى ابتلاع صغارها، بينما أنثى الخنزير البرّي هي واحدة من أكثر الأمهات حنوًا ورقة. وأنثى الأسد - أيضًا - حين تحبس في حدائق الحيوان، فإنها تأكل صغارها. هذا يشير إلى أن حماية الطبيعة للغرائز، تكتمل - فقط - حين تكون هذه الغرائز متحررة من الإكراه المصطنع.

وتوضح لنا غريزة الأمومة عند الحيوانات بشكل صريح أن صغارها لديها احتياج خاص للمساعدة، عندما يأتون للتواصل مع بيئتهم الخارجية المحيطة بهم. فبعد محاولة الميلاد، واستثارة وحفز القوى المتعددة، هناك فترة حرجة. إنها تتمثل في احتياجهم للراحة ولمكان منعزل. وعندما تنقضي هذه المرحلة، يظلون شهورًا في حاجة إلى الرعاية، والتغذية، والحماية.

وفي الحيوان، لا تهتم الأم باحتياجات وليدها الجسمية فقط، بل أيضًا - بتنمية غرائزهم الطبيعية ليتشكل فرد آخر من الجنس نفسه. ويتم كل هذا بصورة أكثر فاعلية في مكان هادئ خافت الضوء. وبمجرد أن تنمو قدماه وتقوى، يتعلم المهر كيف يتبع أمه، ثم يمضي في نموه حتى يصبح أكثر شبهاً بالحصان. لكن أنثى الخيل لا تسمح لأحد بالاقتراب من صغيرها حتى يصبح مُهرًا. وتتشابه القطعة في ذلك، فهي

لا تسمح لصغارها بالانفصال عنها حتى تتمكن من فتح عيونها، وتبدأ في المشي، وبعبارة أخرى، حتى تصبح قطعاً صغيرة.

وتتابع الطبيعة - بجلاء - نمو الحيوانات بكل هذه الرعاية البالغة، وهي تتحمل المكابدة من أجل إيقاظ الغرائز الكامنة في صغارها. فالأنثى تبدي اهتمامها بشيء أبعد من احتياجات صغارها الجسمية.

وبالمثل يمكن القول أن الرعاية الرقيقة الزائدة التي توجه لجسم الطفل حديث الولادة، لا تكفي. بل يجب - بالمثل - توجيه الانتباه إلى احتياجاته النفسية.

6. الجنين الروحي (التجسيد)

يعتبر التجسيد من أكثر الأشياء الغامضة التي يصعب فهمها في النصرانية، حين «تجسّد الكلمة وصار حيًّا بيننا». إن شيئًا يمكن قياسه بهذا الغموض، قد يوجد في مولد كل طفل. حين تلتحم الروح في «تجسّد يأتي ليحيا في العالم».

لقد جرّد العلم الطفل من «التجسيد». فنظر إلى الرضيع حديث الولادة، بحسابه تعقيدًا لأعضاء وأنسجة تصنع كلاً حيًّا، واعتبر ذلك شيئًا غامضًا. لكن: كيف يمكن لهذا الكائن الحي المعقد أن يأتي إلى الوجود؟.

يجب أن تتجلى رعاية خاصة بالحياة النفسية للطفل حديث الولادة. فإذا كانت هناك مثل هذه الحياة في لحظة الميلاد، فكم يكون ذلك عظيمًا عندما ينضج الوليد ويكبر؟. وإذا فهمنا بواسطة «التربية» أن نفسية الطفل أبعد من كونها مجرد نمو عقلي، لأمكننا القول - بحق وكما يتردد اليوم، أن تربية الطفل يجب أن تبدأ منذ لحظة ميلاده.

إن إثبات حياة الطفل النفسية، ربما يوجد في هذا الفارق الذي يتم بين وعيه وبين نشاطات عتبة تحب الوعي - Subconscious - وحتى إذا ما حددنا أنفسنا بشكل أكثر وضوحًا ومفاهيم أساسية، فعلينا أن نقر بوجود دور للفطرة داخل الطفل. ليس فقط باحترامنا لنموه الجسمي، ولكن - أيضًا - باحترام تنوع العمليات النفسية. فالخصائص المميزة للحيوانات غير العاقلة، تتحدد من خلال مثل هذه العمليات. ومهما زاد الاهتمام بالدافعية فإن الطفل ينمو أكثر بطئًا من الحيوانات الأخرى. ففي الميلاد، يكون نمو هذه القدرة ضئيلاً لدى الطفل، بالرغم مما يستخدم من حواسه، كاستجابته للضوء، أو اللمس، أو الصوت، .. إلخ.

يُنظر إلى الطفل حديث الولادة بإشفاق. إذ لا حول له ولا قوة، وسيظل كذلك لفترة طويلة. فهو لا يستطيع الكلام ولا يمكنه الوقوف منتصبًا، وهو دائماً في حاجة إلى الانتباه والرعاية. ولفترة طويلة، فإن الصوت الوحيد الذي يصدره هو البكاء أو الصراخ مما يسبب اندفاع الآخرين لمساعدته. ثم يصبح قادراً على الوقوف أو المشي، لكن - فقط - بعد فترة جديرة بالاهتمام، بعد شهور أو بعد عام، أو ربما بعد فترة أطول. ثم تمتد الفترة قبل أن يتمكن من الكلام.

والآن، يمكننا وصف نمو الطفل الجسمي والنفسي كنوع من «التجسيد». إن الفهم بواسطة هذه الكلمة التي هي شديدة الغموض تنشط جسم الطفل حديث الولادة الذي لا حيلة له، هي التي تعينه على النمو، وتعلمه الكلام حتى يكتمل.

ومن الملاحظ تمامًا، أن الطفل يظل لا حول له ولا قوة لفترة طويلة. بينما صغار الحيوانات الأخرى، غالبًا وفورًا أو بعد فترة قصيرة من ولادتها، يمكنها الوقوف، والمشي، والنظر إلى قطيعها. ويكون لديها اللغة المفترضة بين هذه الأنواع من الحيوانات. ومع ذلك، يبقى ذلك في غير اكتمال، ومثيرًا للشفقة. فلقطط لها مواء حقيقي، والحملان المرتعدة تصدر أصواتها، والمهر يئن بصهيله. ومع ذلك، فهي لا يمكنها أن تسمع، وهي أكثر نزوعًا إلى الهدوء. وكحقيقة واقعة: فإن العالم لا يضح بصراخ ونواح الحيوانات حديثة الولادة.

إنهم ينمون بسرعة وبلا مشكلة كبيرة. فجسم الحيوان حديث الولادة يزوده - بالفعل - بالقدرات الفطرية التي ستحدد أفعاله فيما بعد. فنحن نعلم كيف سيثب الشبل الصغير، وكيف سيقفز صغير الماعز وهو لم يزل يقف - بصعوبة - على أقدامه الأربعة. إن كل مخلوق يولد وبداخله الفطرة التي تؤهله لوظائف أعضائه الجسمية وهي تبدي ذلك في أنشطتها بصورة أوضح وأكثر تحديدًا من الجسم المخلوق ذاته.

إن جميع الخصائص النوعية لأي حيوان، والتي تبدو كمساعد إثمائي وظيفي، يمكن وصفها كـ «سمات جسمية». وكما أن مثل هذه السمات المحددة قد وُجدت في مولد كل الحيوانات، فلم لا يمكن وجودها بالمثل - في الطفل؟.

هناك نظرية تشرح فطرة الحيوانات نتيجة للخبرات المتراكمة لهذه الأنواع في الماضي، والتي تواصل تداولها كنوع من منحة الطبيعة

(الوراثة). فلماذا يكون الناس بهذا البطء حتى يرثوا من أسلافهم؟ إنهم دائماً يميلون إلى اتخاذ الإجراءات التي تحفظ نسلهم وأصولهم. ومن الحق أن نعتقد أن الإنسان وحده - دون بقية المخلوقات - هو الأكثر ثراءً في حياته النفسية، وأنه سيصبح المخلوق الوحيد الذي لا مثيل له في النمو النفسي.

لا بد من وجود بعض الحقيقة الخافية وراء هذا التناقض. إن الروح الإنسانية يمكنها أن تتخفى بعمق، بحيث تتمكن من عدم إظهار نفسها مثلما الفطرة في الحيوانات. إن الحقيقة المؤكدة هي أن الطفل ليس شخصاً نهائي الشكل يفرض - سلفاً - اتجاهها معيناً تفوقه الفطرة لتكون مؤشراً لتأصلها في حرية الفعل. وربما يحدث شيء من هذا القبيل مع بعض الأشياء التي يصنعها الناس لاستخداماتهم الخاصة. فهناك أشياء كثيرة تنتج على نطاق واسع وبسرعة بواسطة الآلات وجميعها متشابهة. وأشياء أخرى تُصنع يدوياً، تُنتج ببطء، وكل منها مختلف عن الآخر. إن التميز في المصنوعات اليدوية، هو أن كلاً منها يحمل البصمة المباشرة لصاحبها. فواحدة تظهر مهارة الزخرفة، وأخرى تحمل الطابع العبقري لفنانٍ عظيم.

وإذا انتقلنا بهذه المقارنة للكائنات الحية، لأمكننا القول أن الفروق النفسية بين الإنسان والحيوان تتكون من الآتي: الحيوان يشبه شيئاً تم إنتاجه على نطاق واسع ومتشابه في خصائص محددة لكل فصيلة من أنواعه المتعددة. بينما الإنسان - من ناحية أخرى، يشبه شيئاً تم تصنيعه يدوياً، فكل واحد مختلف عن الآخر. فكل إنسان لديه روحه

الخاصة المبدعة التي تجعل منه ما يشابه عملاً فنياً. لكن هناك حاجة إلى كثير من الكد والجهد. فقبل أن تظهر أية تأثيرات مرئية، هناك عملٌ داخلي يجب أن يكتمل. وهو ليس سهلاً لأنه ليس غطاً سابق التجهيز، إنه مخلوقٌ نشط لنموذج جديد. والمنتج النهائي - حين يبدأ في الظهور - فهو نتيجة لشيءٍ مفاجئ ومبهم. إنه يشبه القطعة الأصلية التي يحتفظ بها الفنان لنفسه داخل الاستوديو الخاص به، قبل أن يراها العامة.

إن ابتداء وتصميم الشخصية الإنسانية هو العمل السري «للتجسيد». فالطفل شيءٌ مبهم، وكل ما نعرفه هو أنه يحمل إمكانات واحتمالات عالية جداً، لكننا لا نعلم ما سوف يكونه هذا الطفل. وعليه أن «يصبح متجسداً» بمساعدة إرادته الخاصة به.

إن هذا الذي يشاع تسميته «الجسد» هو مركبٌ من «العضلات الإرادية» والتي - كما يشير اسمها - تتحرك وفقاً لإرادة. وبدون هذه العضلات المتعلقة بتصميم الحياة النفسية للإنسان، لا تستطيع الإرادة أن تفعل شيئاً. وفي الأشكال الأرقى من الحياة - وبخاصة في الإنسان - تكون العضلات متعددة ومعقدة حتى أن علماء التشريح يقولون أن على الدارس أن يحاول، سبع مرات على الأقل، أن يبحث عن هذه العضلات قبل أن يعرفها جميعاً. هذه العضلات المتعددة والمتنوعة تعمل متآزرة معاً للقيام بأكثر أنواع النشاط تعقيداً. ويصبح بعضها نشطاً، والبعض الآخر خاملاً، وأحياناً يعملون معاً، وأحياناً أخرى يعمل كل منها معاكساً للآخر.

إن عملية الكبح لأداء عضو من أعضاء الجسم، يلازمها دائماً، حفز وتصميمات لهذه العملية. فكثير من العضلات سوف تعمل معاً في تناغم، لأداء أكثر الأعمال تعقيداً مثل بعض الرياضات العنيفة أو الألعاب الهلوانية التي يتمكن صاحبها من الانتقال بالحركات إلى حد الالتواء أو التقوس دون معاناة. إن كل حركة وكل تعديل لها، تتطلب فعلاً تزامنياً ومتسقاً يتكون من مركبات وأجزاء لا تحصى، ويعمل كل منها لاكتمال النشاط.

لكن الناس لا يثقون في الطبيعة بشكل تام، مادام المبدأ الذي يقود النمو الإنساني هو الطاقة الشخصية المتكونة والكامنة داخل الطفل. إن حياة الطفل النفسية مستقلة تماماً، وهي تسبق كل نشاط خارجي، وتبعث فيه الحيوية.

ومن الخطأ أن نعتقد أن الطفل ضعيف عضلياً، لأنه لا يستطيع الوقوف أو لأنه غير قادر على إحداث التوافق بين حركاته. إن الطفل حديث الولادة يظهر قوة عضلاته بالطريقة التي يحرك بها شفثيه. فالامتصاص والبلع أثناء الرضاعة، هي عمليات معقدة تستغرق جهداً عظيماً من أجل التوافق العضلي، ومنذ لحظة ميلاد الرضيع، تماماً مثلما تفعل بقية الحيوانات. ولكن في بقية حركاته، يُترك حراً وفقاً لما تمليه الفطرة. وفي حالة الطفل تحديداً، فليست جميعها مسيطراً عليها. إذ حالما تنمو عضلاته وتقوى، تنتظر أن تقودها الإرادة للتنسيق فيما بينها.

إن الطفل لا ينمو بالبساطة التي يتسم بها نمو فرد في قطع من الكائنات، بل ينمو كشخص. إننا نعلم أنه - لاحقاً - سوف يتكلم، وسينتصب واقفاً، لكنه - أيضاً - سيظهر تفرده الخاص به.

نحن نستطيع أن نعرف جيداً الصورة التي سيكونها الحيوان الصغير حينما يكبر. فالغزال سيصبح خفيفاً رفيع الساقين، والقط سيصبح ضخماً بطيء الحركة، والفهد يصير متوحشاً، والأرنب يغدو نباتياً إلخ.

لكن الإنسان قادرٌ على أن يصبح أي شيء، ومظهره كطفل لا حول له ولا قوة، هو بذرة لشخصيته المتميزة. فالصوت الخافت حالياً، بذرة لأن يتكلم يوماً ما، على الرغم من أننا لا نعرف - بعد - بأي لغة سيكون هذا الكلام. هذا ما سوف يتعلمه الطفل وهو يصغي وينتبه إلى المحيطين به. وهو يقلد الأصوات التي يسمعها، سيداً بما يشبه التلعثم، ثم تصبح كلمات في حدود أقصى ما لديه من قدرة. وباستغلاله لإرادته في التواصل مع بيئته، يني قدراته المتنوعة حتى يصبح واعياً بذاته المبدعة.

دائماً ما يهتم الفلاسفة بحالة الطفل بعد ولادته حيث لا حول له ولا قوة، لكن وحتى الآن، لم يُبدِ المعلمون أو الفيزيائيون إلا اهتماماً قليلاً به. ومثل بقية الأشياء التي تتخفى في عتبة تحت الوعي، تعتبر حالة الطفل - ببساطة - مجرد حقيقة، دونما أي اهتمام خاص.

ومع ذلك وكحقيقة عملية - فإن مثل هذا الاتجاه، يهدد حياة الطفل النفسية. إنه يقود إلى الاعتقاد بأن عضلات الطفل ليست وحدها هي الحاملة، ولكن الطفل نفسه لا يقوى على شيء، فهو خمول، وليس له حياة نفسية خاصة به. ويعتقد البالغون - وهذا خطأ - أنه من خلال رعايتهم ومساعدتهم، يصبح الطفل هذا الإنسان الرائع المفعم بالحياة. إنهم ينظرون إلى تلك المساعدة كمسئولية شخصية، ويتخيلون أنهم يشكلون الطفل، وأنهم صانعو حياته النفسية. إنهم يتخيلون إتمام هذا العمل الخلاق عن طريق التوجيهات والاقتراحات التي يقدمونها للطفل لتنمو مشاعره وذكاؤه، وإرادته.

وفقاً لهذا، يعطي البالغون لأنفسهم قوة خارقة، ويجعلون أنفسهم آلهة لأطفالهم ويرددون داخل أنفسهم كلمات سفر التكوين: «سأصنع إنساناً في مخيلتي». إن الغرور هو خطيئة الإنسان الأولى، ومحاولاته أن يحل محل الله، هي سبب الشقاء.

ولكن، إذا امتلك الطفل - بداخله - المفتاح لشخصيته المتفردة، وإذا كان لديه خطة للنمو، وقوانين يمكن ملاحظتها، فستكون هذه هي القوى الحقيقية الرائعة. بينما يمنع تدخل البالغ - وهو في غير محله - إدراك الطفل لكل هذه الأسرار بداخله. فالناس - منذ الزمن المعن في القدم - وعبر تدخلهم في هذه القوانين الطبيعية للنمو، قد أعاقوا الخطة السماوية المقدسة من أجل الأطفال، وبالتالي خطة الله للناس أجمعين.

واحدة من أخطر المشكلات التي تواجه الناس، هي إخفاقهم في إدراك حقيقة أن الطفل يمتلك حياةً طبيعية نشطة، حتى عندما لا يتمكن من إظهارها. وأن الطفل - لابد - سيتم ويكمل - بسرية - هذه الحياة الداخلية، عبر فترة طويلة من الزمن.

إن الطفل يشبه روحًا محاصرة بالظلام، تناضل من أجل الخروج إلى النور. من أجل أن يولد، وأن ينمو - ببطء ولكن بالتأكيد - حتى يصبح كائنًا حيًا، مدفوعًا بصوت إرادته. وفي كل الأحيان ودائمًا، هناك حالة من الاستعداد تدفعه إلى مزيد من النمو.

ليس هناك ترتيبات مسبقة لهذا «التجسيد» حيث لا أحد ينتظره أو حتى يدرك ماهيته. بل إنه يواجه عوائق متعددة تقف في طريقه.

وعندما يصبح للطفل شكل جديد، يكون جنينًا روحيًا يحتاج لبيئته الخاصة به. مثل هذا الجنين الطبيعي يحتاج إلى عطف أمه حتى ينمو. وهكذا يحتاج الجنين الروحي إلى الحماية عن طريق بيئة خارجية يغلفها دفء الحب وثراء الأمومة، حيث كل شيء قد تم تجهيزه للترحيب به، ولا شيء يمكن أن يؤذيه.

وعندما يتم إدراك ذلك، سوف يغير البالغون اتجاههم نحو الأطفال. ويصبح تصوُّر الطفل بحسبانه كائنًا روحيًا بمسؤوليات جديدة. وحالما ننظر للجسد الصغير الساحر كدمية جميلة، ونسرف في اهتمامنا به، نصبح مقدرين لمقولة الشاعر الروماني «جيوفنال»: «الحناءة التقدير يستحقها طفل».

ويصبح تجسيد الطفل مؤشراً عبر دورات خفية. فهناك ما يشبه الدراما حول مجهوداته الخلاقة والتي بدأت الآن محاولة كتابتها.

لا يوجد في خبرات أي مخلوق أصعب من ترقب الإحساس بما سوف يحدث، وبأن تجبر على إملاء التعليمات على قدراتك الداخلية كي تجعلها نشطة ومنضبطة. إن الحياة الهشة الرقيقة التي بالكاد يمكنها أن تعي، يمكنها التواصل مع بيئتها عبر إحساساتها. ثم تتمكن من الوصول إليها بالفعل، من خلال عضلاتها وبجهد لا ينتهي نحو إدراك الذات.

هناك تغير داخلي بين الجنين الفردي والروحي وبين بيئته. فمن خلال البيئة، يتشكل الفرد كي يصل إلى الاكتمال. فالطفل يُرغم على الالتزام بشروط البيئة المحيطة به. والجهود التي تبذل تقود إلى التكامل في شخصيته.

إن هذا النشاط البطيء المتدرج يتضمن إخضاعاً متواصلًا لوسيلة روحية لا بد لها أن تبقى حذرة متيقظة ترقب وتحافظ على استقلال الطفل، حتى لا تموت حوافزه أو تتعطل، أو تصبح آلية. يجب أن تبقى الروح في حالة استعداد مستمر، حتى لا يحدث تشويش للحركات التي لا تخضع لتوجيه الفطرة المترسخة. إن هذا الجهد يحول دون توقف طاقات الطفل وإسهاماته في عمل لا ينتهي حتى يتم التجسيد الروحي.

هذه الطريقة، وبمجرد أن يصبح الجنين طفلاً، والطفل رجلاً، تكون الشخصية الإنسانية قد تشكلت عبر جهودها الذاتية.

حقيقة: بماذا تسهم أم أو أب في حياة طفلها؟. الأب يعطي خلية ميكروسكوبية غير مرئية، وبإضافتها إلى خلية أخرى مفردة، تقدم الأم بيئة حية لإخصاب البويضة التي يتم نموها وتصبح طفلاً مكتملاً. وليس صحيحاً القول أن أمًا أو أباً يصنعان طفلها. وربما يجب علينا أن نقول «إن الطفل هو والد الإنسان».

علينا أن ننظر لهذا الجهد السري للطفل كشيء مقدس. وعلينا أن نرحب بكل الإرهاصات التي تتبدى في تلك المرحلة الخلاقة، والتي يتوقف عليها الشخصية المستقبلية للفرد.

لهذا؛ لابد من دراسة علمية للاحتياجات النفسية للطفل، ولهذا أيضاً، لابد من إعداد البيئة المناسبة له.

نحن الآن على أعتاب بداية مشتتة لعلم لابد له من ضرورة التقدم والتبلور. وخلال ذلك وعبر الاستمرار في البحث، وبعد جهودٍ مضنية وعظيمة - سيعرف الناس سر النمو الإنساني.

7. النمو النفسي

(المراحل الحساسة)

إن الرُّضْع - وحتى أكثرهم رقة - يبدأون نموهم النفسي بالحساسية للإدراك (المدرّك الحسي)، قبل أن يتمكنوا من التعبير الخارجي.

ومع هذا، يحتل هذا النمو مكانه بسرية. فمن الخطأ كما في حالة النطق - أن نتخيل مثلاً أن هذا لا يحدث. ولتوضيح ذلك، يمكننا القول أن الإعداد لعملية النطق أو التكلم ينجزها الطفل بداخله (في منطقة الكلام) حتى وإن كانت أعضاؤه الخارجية لم تتمكن بعد من إعطاء التعبير الدال على ذلك. لكن ما يحدث حقيقةً بداخل الطفل هو النزوع لاكتساب لغة. وبالمثل يمكن القول عن جميع السمات المتنوعة لحياته العقلية. ففي داخل الرضيع، هناك فطرة خلاقة وقوة نشطة لبناء عالم نفسي داخل بيئته الثرية.

بهذه النظرة، فإن اكتشاف ما يُطلق عليه «المراحل الحساسة»، هو ذلك الارتباط الوثيق بظاهرة النمو، والذي يستدعي اهتماماً خاصاً.

نحن نتحدث عن النمو، إنما نعني حقيقة ذات مظهر خارجي قابل للرؤية. لكن الميكانيزم الداخلي للنمو يتفجر ويبقى ناقصاً وغير مفهوم. ولقد هياً لنا العلم الحديث وسيلتين لإحراز وتحقيق مثل هذه المعرفة: واحدة منها تكونت من خلال دراسة الغدد والإفرازات الداخلية المرتبطة بالنمو الجسمي. وقد أصبح ذلك مألوفاً وشائعاً، نظراً لأهميته القصوى بالنسبة لصحة ورعاية الطفل. أما الوسيلة الأخرى، فقد تكونت من خلال دراسة ما يُطلق عليه «المراحل الحساسة» والتي تقود إلى فهم النمو العقلي للطفل.

ولقد اكتشف العالم الألماني «هوجو دي فريز» هذه المراحل الحساسة في الحيوانات. وبالنسبة لنا وفي مدارسنا، فمن يكتشف ذلك؛ يمكنه الاستفادة من هذه المراحل الحساسة في الأطفال، ويمكنه استخدامها في تعليمهم.

وتعكس المرحلة الحساسة مقدرة خاصة يكتسبها أي مخلوق في بدء طفولته، بينما تظل داخل عملية تقويمية مستمرة. إنها نزعة مؤقتة ومحدودة لاكتساب سمة مميزة. وبمجرد ظهور هذه السمة أو الخاصية، تختفي المقدرة الخاصة بهذه الحساسية. فكل خاصية محددة لكائن حي، تتحقق ويتم إحرازها من خلال مساعدة موجة متفجرة تُنقل عبر الأنسجة والأعصاب والعضلات وهي ما تعرف بالقوة الكامنة. لهذا، فالنمو لا يخضع للوراثة، بل للجهد الذي تقوده - بعناية ودقة - عدة أشياء هي: المرحلة، والتوقيت، ثم الفطرة الكامنة. وهذا يعطي

توجيهًا لتشكيل نوع من النشاط يمكن ملاحظة اختلافه عما يمثله لدى البالغين.

وفي البدء، لاحظ «دي فيرز» وجود المراحل الحساسة عند الحشرات. وكان من السهل ملاحظة مراتب ومراحل النمو لديها. وكانت يرقة الفراشة هي المثال الذي قدمه «دي فيرز». نحن نعلم أن يرقة الفراشة تنمو بسرعة وأن لها شهية تشبعها من رحيق النباتات. واليرقة الخاصة التي درسها «دي فيرز» كانت في بداية أيام تكونها لا تستطيع أن تتغذى على نباتات ضخمة، لكن فقط على البراعم الرقيقة التي تعلو أطراف الأفرع.

وكالأم الحنون، تضع أنثى الفراشة بيضها في بقعة محمية على شكل زاوية يشكلها فرع الشجرة حيث يصبح البيض محميًا وآمنًا. ترى بماذا تخبرنا اليرقة الرقيقة حين تخرج من البيضة لتجد الطعام الذي تحتاجه موجودًا فوقها على نهاية فرع الشجرة؟. إنه الضوء، فاليرقة حساسة جدًا للضوء. فالضوء يجذبها، يفتنها. ونتيجة لذلك، تصبح الخطوات الرقيقة الدافئة هي طريقها إلى نهاية الفرع حيث يتمركز الضوء. وعبر هذه الأفرع الرقيقة تجد اليرقات ما يشبع جوعها الشديد. والحقيقة المؤكدة أن اليرقة بمجرد نموها وبالصورة التي تسمح لها بتناول الطعام الحشن، تنقضي مرحلتها الحساسة وتفقد حساسيتها للضوء. وتنتهي الفطرة تمامًا وتموت، ولا يستمر الضوء - بصفة خاصة - مصدرًا لجذبها. تنقضي اللحظة وتنعدم جدوى المرحلة الحساسة وتمضي اليرقة في مسارات مختلفة بحثًا عن خبرات جديدة مغايرة وعن معانٍ أخرى

للحياة. هذا لا يعني أنها غدت عمية، بل يعني - ببساطة - اختلاف استجابتها للضوء. وهذه اليرقة نفسها، والتي ترى أنها مختلفة تمامًا في تناول الطعام، تتغير في الحال بواسطة نشاط حسي آخر لتنتقل إلى نوع من صوم يشبه صوم الناسك. وأثناء صومها القاسي، تبني لنفسها نوعًا من التابوت المغلق المدفون كانه مجرد من الحياة. لكنها - في الحقيقة - مشغولة تمامًا ببزوغها وانبثاقها من مقبرتها التي تحتلها الاجنحة البراقة المزينة بالجمال والالوان.

نحن نعلم أن يرقة النحل تجتاز مرحلة يمكن خلالها لكل أنثى أن تصبح ملكة. لكن الخلية (جاعة النحل) تختار واحدة فقط. أما الشغالات فيعبدن لها غذاءً خاصًا يعرف بـ «خبز النحل» أو «غذاء ملكة النحل». وبذا تصبح اليرقة المختارة هي النحلة الملكة لهذا المجتمع. وإذا اختارها النحل الشغال وكانت أكبر سنًا وعديمة الجدوى، لن يمكنها أن تصبح ملكة، طالما فقدت شهيتها الضارية ولم يعد جسمها قادرًا على النمو كما ينبغي للملكة.

لا بد لمثل هذه الأمثلة التوضيحية أن تجعلنا متينين لمعرفة هذا العامل الحاسم في نمو الطفل. فبدخله يمكن النبض الحيوي الذي يقود إلى أن يأتي الطفل بتصرفات مذهلة. أما الإخفاق والفشل في اتباع مثل هذه الومضات فيعني أنهم سيصبحون قليلي الحيلة غير أكفاء. ولا يملك البالغون شيئاً حيال هذه النماذج المختلفة. فإذا لم يكن الطفل قادراً على التصرف وفقاً لتوجيهات مرحلته الحساسة، سوف تضعيف فرصة الاكتساب الطبيعي. فثناء النمو النفسي يصنع الطفل منجزات حقيقية

مدهشة. ولأننا تعودنا رؤية مثل هذه المعجزات أمام أعيننا، فإنها قد لا تدهشنا أو تستوقفنا. إذ كيف يتمكن الطفل - الذي يبدأ بلا شيء - من تأهيل نفسه واستشرافها في هذا العالم المعقد؟ كيف يأتي إلى الأشياء غير المألوفة ويتعامل معها؟ وبأي معانٍ مذهلة يتمكن من تعلم لغة بكل تفصيلاتها الدقيقة؟ كيف يحدث ذلك بدون معلم بل تقريباً - بمجرد الحياة ببساطة وبهجة ودونما إرهاق؟ بينما يحتاج البالغ إلى المساعدة على التكيف مع بيئة جديدة، كما يحتاج إلى تعلم لغة جديدة. هذا في الوقت الذي يجيد فيه الطفل لغته الأم دونما تعليم مسبق!

يتعلم الطفل - خلال مراحل الحساسة - أن يكيف نفسه ويتأقلم مع بيئته. إن هذا أشبه بالبطارية التي تولد الطاقة. إنها الحاسة التي تجعل الطفل قادراً على التواصل مع العالم الخارجي بسلوك محدد وطباع معينة. في مثل هذا الوقت، كل شيء ميسر وسهل، كل شيء هو الحياة. وكل جهد يصنع تزايداً في القوة. وعندما يتم الحصول على الهدف - عندها فقط - قد يحل التعب وتتساوى الأشياء.

وعندما يُرهق أحد المسارات النفسية، يتم استخدام آخر أكثر ملاءمة. هكذا، تعبر الطفولة من إنجاز إلى إنجاز في إيقاع متزامن يحقق البهجة والسعادة. وبداخل هذا التوهج الذي تمتلئ به الروح، والذي يضيء بلا كلل، يكتمل العمل الخلاق لعالم الروح الإنسانية. ومن ناحية أخرى، عندما تختفي المرحلة الحساسة، تُسَجَّل الانتصارات العقلية عبر عمليات سببية منطقية، وجهود تطوعية، وشبكة من الأبحاث. ومن السبات والبلادة وعدم الاكتراث يولد

النشاط البشري. هذا - إذن - هو الفارق الجوهرى بين نفسية الطفل ومثيلتها عند البالغ. إن للطفل حيوية داخلية خاصة هي التي تعدّه للأساليب المدهشة مما يصنع منها إنجازاته الطبيعية لكن، إذا واجه الطفل خلال مرحلته الحساسة عائقاً لجهده هذا، فسيعاني خلال أساسياً في تكوّن شخصيته، وتظل المعرفة قليلة حول هذا الموت أو الاستشهاد الروحي. لكن يبدو أن الكبار دون وعي منهم - قد يتسببون في شيء مثل هذا.

حتى الآن، نحن لا نشك في هذا النوع من النمو، مما يجعلنا نقول - من خلال الخبرة الطويلة - أن لدينا ملاحظات حول الحزن وردود الفعل العنيفة لدى الأطفال، حين تتعرض أنشطتهم الحيوية لمعوقات خارجية. ومادامت مثل هذه الردود من الأفعال غير معروفة السبب، فسيظل الأطفال - ببساطة - مقاومين لأي جهد نقدمه لهم لتهدئتهم. إن مسمى «نزوة»، أو «الميل إلى التقلب»، أو «نوبة الغضب»، أعطى لطواهر متنوعة، لكنها قليلة الانتشار. فنحن ننظر إلى الميل للتقلب كتعبير عن أي شيء ليس له سبب ظاهر، أو أي تصرف يفقد التعقل ويميل إلى الاندفاع. نحن أيضاً لاحظنا أن أنماطاً معينة من نوبات الغضب تتفاقم وتصبح أشد خطورة. وهذا في حد ذاته يشير إلى سبب يستمر في التكرار ولا يتوقف، وهو ما يعبر عن وضوح العلاج الممكن تلمسه من ملاحظة الجو المحيط بالطفل أثناء نوبات غضبه المتكررة.

إن المراحل الحساسة يمكن أن تعبر بوضوح لدى هؤلاء الأطفال سريعي الغضب. لكن ليس بينهم جميعًا، مادام هناك أسباب مختلفة تكمن وراء الصراعات الداخلية. إن النشاط المتهور هو نتيجة أخطاء الماضي، والذي يتفاقم فقط مع المعاملة والمعالجة الخطأ. إن النزوات المتنوعة ترتبط بالصراعات الداخلية أثناء المراحل الحساسة وهي موقنة مثلها مثل المراحل ذاتها. إنها لا تترك أثرًا دائمًا على الميول المكتسبة خلال المرحلة الحساسة. لكنها قد تحدث أثرًا ضارًا فتمنع واحدًا مما يتحقق كنضج نفسي.

إن نوبات الغضب في المراحل الحساسة تظهر على هيئة حاجة غير مشبعة وانطباعات تنذر بالخطر، أو كشيء خارج عن السيطرة. إنها تظهر حالمًا يمكن إشباع الحاجة أو درء الخطر. ويمكن للمرء أن يلاحظ طفلًا يبدأ فجأة وتتبع ذلك حالة من الهياج المرضي لذلك، علينا البحث عن السبب وراء أي تهوُّر طفلي. فهذا - ببساطة - هو ما ينفلت غالبًا من معرفتنا بالطفل. وحين نجد السبب، فهذا يمكننا من التعمق في داخل روح الطفل وتهيئ قاعدة لفهم الطفل وتحقيق السلام النفسي له.

اختبار المراحل الحساسة

إن دراسة «التجسيد» عند الطفل، وكذلك المراحل الحساسة، يجب أن تقارن بعملية التفجر، مما يجعلنا قادرين على رؤية وظائف الأعضاء المختلفة التي تيسر نمو الطفل.

إن تلك الدراسة توضح لنا كيف أن النمو النفسي للطفل لا يتم مصادفة. إنه لا يتم بمجرد توافر مؤثرات خارجية، بل تقوده وترشده قدرة حسية مؤقتة. وهي تحدث عن طريق الفطرة التي تلتصق باكتساب سمة محددة وترتبط بها. وبالرغم من كون ذلك يحدث داخل بيئة خارجية، فإن البيئة نفسها تعتبر مناسبة أو حالة طارئة، أكثر من كونها سبباً. إنها - ببساطة - تزود بالمعاني الضرورية للنمو الروحي، تماماً مثلما تمد البيئة المادية ما يلزم نمو الجسم من غذاء وهواء.

إن القدرات الحسية الداخلية، تجعل الطفل قادراً على أن يختار من بين محيطه الخارجي المعقد - ما هو مناسب وضروري لنموه. إنها تجعل الطفل حساساً لبعض الأشياء، لكنها تجعله غير مبالي ببعضها الآخر. وعندما تتفتح بعض الحساسيات الخاصة لدى طفل، فإنها تبدو كضوءٍ يشرق على بعض موضوعات دون غيرها، فيصبح هذا البعض هو كل عالمه. وليس سهلاً أو بسيطاً تحديد سؤال الرغبة الملحة في موقف محدد أو تحديد أشياء محددة تتمركز حولها ميول الطفل. فبداخله قدرة لا محدودة ولا محددة لاستخدام تلك الموضوعات لإحداث نموه الخاص به. مادام هذا يحدث أثناء المرحلة الحساسة، فهو الذي يصنع تكييفه وتوافقه النفسي. ويحدث هذا حين يصبح قادراً على التواءم مع بيئته، أو التحرك لزيادة أو تخفيض احتياجاته بحيث تسير الأمور بشكل دقيق ومحكم.

وفي هذه العلاقة الحساسة بين الطفل وما يحيط به، ربما وجدت المعاني لفك الخيوط المتشابكة من الغموض، والتي تحيط بالنمو الروحي للطفل، في كل أفعاله المثيرة للدهشة وللتعجب.

ويجب أن نصور لأنفسنا هذا النشاط المدهش الخلاق كسلسلة من المشاعر الحية تنبثق من عتبة تحت الوعي - ثم تلتحم ببيتها، فتبني وعيًا. إنها تبدأ مشوشة، ثم تمضي وتستمر حتى تصنع علامة فارقة، وفي النهاية، تخلق نشاطًا يمكن مشاهدته. ومثال ذلك: الكيفية التي يتعلم بها الطفل الكلام.

إن الأصوات المختلفة التي تطن كالتشويش غير المفهوم بالنسبة لأذن الطفل، تصبح فجأة مسموعة بشكل يميزها كشيء ساحر وجذاب، مثل أصوات لغة غير معروفة، لكنها واضحة النطق. إن الروح التي لم تزل بلا تفكير، تستمع إلى نوع من الموسيقى تملأ حياتها وعالمها. إن الطفل لا تحركه مجموعة من الألياف بل ما يشبه الأبحال الصوتية المتخفية. وحين يبدأ نشاط الذبذبات تصبح صراخًا أو صياحًا مكتملاً. ثم تردهر وتبدأ في التحرك المنتظم، لتتلقى أوامر وتعليمات بتغيير سلوكها في التذبذب. وهذه علامة تشير إلى بداية مرحلة جديدة في حياة الجنين الروحي. إنها حياة تتمركز حول الحاضر. ويظل مستقبل مجد هذا الكيان لا يُعرف بعد.

شيئًا فشيئًا، تلتقط الأذنان أصواتًا متنوعة، ويبدأ لسان الطفل في الحركة مصحوبة بحيوية جديدة. وقبل هذا، كان اللسان يستخدم

فقط - للرضاعة. أما الآن، فقد بدأ الطفل يجرب ذبذبات داخلية. بدأ يشعر بحنجرته، ووجنتيه، وشفتيه، بينما تبدو وكأنها تحت قيادة نبضات منتظمة لا عيب فيها. وحتى الآن، فهذه الذبذبات لا يُنتظر منها شيءٌ تعطيه، ما عدا تحقيق الرضا لإنسان لم يتكلم بعد. فالطفل يظهر سعادة لأنه يستقبل، عندما يقلص أطرافه أو يقبضها، عندما يقبض كفه بإحكام، عندما يصعد برأسه إلى أعلى، ثم عندما يدور بعينه في اتجاه من يكلمه وهو يتابع حركة شفتي المتكلم.

الطفل يعبر مرحلة حساسة: أمر في الأعماق يتنفس داخل هذا الكائن الذي لا حول له ولا قوة، وينفخ فيه من روحه. إن هذه الدراما الداخلية هي - لدى الطفل - دراما الحب. إنها حقيقة عظيمة ورائعة تتفتح داخل المساحات السرية من روحه حتى يكتمل استيعابها. هذه النشاطات الرائعة التي تتم في صمت، لا يمكن أن تمر دون أن تترك خلفها آثارًا مشرقة تظل مصاحبة للطفل خلال حياته.

كل هذا يحدث بهدوء ودون أن يلاحظه أحد، مادامت بيئة الطفل موالية ومتوافقة مع حاجاته الداخلية. على سبيل المثال: بالنسبة لمطلب الكلام، وهو أحد أصعب متطلباته، تظل مرحلة الطفل الحساسة غير ملحوظة مادام محاطًا بالناس الذين - من خلال حديثهم - يقدمون المفردات الضرورية لنموه. وتبقى ابتسامه الطفل هي الشيء الوحيد الذي يجعلنا ممتنين لهذه المرحلة الحساسة. وكذلك عندما ينطق بكلمات قصيرة واضحة. مرة أخرى، يتضح أماننا النمو الهادئ للطفل عندما يمر - في المساء - بتجربة مبهجة، حين يغني له الكبير أغنية

رقيقة تعاد فيها الكلمات وتكرر. وفي وسط هذه البهجة والسعادة يترك الطفل عالم الشعور والوعي ليدخل عالم النوم. وهذا يفسر لماذا نكلم الطفل بكلمات رقيقة. نحن نتمنى أن نبقى على ابتسامته مدى الحياة. هذا يفسر أيضًا لماذا - من حين لآخر - يذهب الوالدان الحنونان إلى أطفالهما الذين يتطلعون بشوق ولهفة، إلى أغنية أو أقصوصة.

هذه - إذن - الدلائل الإيجابية على القدرات الحسية الخلاقة للطفل. لكن هناك أيضًا ما هو غير ذلك، وما هو أكثر وضوحًا، إنه: الدلائل السلبية لها. إنها تبدأ في الظهور حين تعترض الوظائف الداخلية للطفل بعض العقبات. في هذه الحالة، تظهر المرحلة الحساسة نفسها من خلال ردود الأفعال العنيفة التي تصدر عن الطفل. ونحن نرى مثل هذا كنوع من الاكتئاب الذي يُطلق عليه «نوبة الغضب». لكن في الواقع هو تعبير عن خلل داخلي، أو حاجة غير مشبعة أنتجت درجة من التوتر. إنه يقدم جهدًا للروح كي يطرح سؤالاً أو أن يعرف نفسه.

ويعبر الغضب عن نفسه في هياج وحركات بلا معنى أو هدف. ويمكن مقارنة ذلك بارتفاع الحرارة الذي قد يهاجم الطفل دونما سبب مرضي معروف. فكما نعلم، أن هذا شائع بالنسبة لطفل يصاب بارتفاع في درجة الحرارة بصورة مرضية مما يجعل الكبير في حالة قلق ولكن دون انزعاج على الصغير. لكن الحرارة - في تلك الحالة - يمكن أن تختفي بسهولة ذاتها التي ظهرت بها. والشبه قائم على المستوى النفسي، فيمكن حدوث هياج عنيف للطفل دونما سبب خارجي

معروف أو محتمل. وردود الأفعال هذه يمكن ملاحظتها. وفي الحقيقة، أن هذه الغضبة أو الثورة التي يبدىها الطفل تظهر - غالبًا - منذ لحظة الميلاد ونعتبرها دلائل على مشاكسة الجنس البشري. وعليه، فإذا اعتبر كل خلل وظيفي، مرضًا وظيفيًا، فعلينا - أيضًا - أن نطلق على الخلل النفسي، خللاً مرضيًا. إن أول غضبات الطفل، هي أول مرض يصيب روحه.

وقد لاحظ الإنسان هذه الغضبات بحسبانها حالات مرضية، أكثر من كونها طبيعية. وليس شيئًا مطمئنًا أو آمنًا أن نضع المشكلة ثم نسأل عن انعكاساتها، لكنها مشكلة وعدم انضباط. إنها ليست قوانين الطبيعة، بل عيوب جاءت من هذه القوانين، والتي غالبًا ما تكون واضحة جلية. ولكن لا أحد يلاحظ صعوبة هذه المؤشرات الخارجية التي تصاحب العمل الخلاق، أو العمليات التي تؤثر فيها. فكل من عملية الخلق وما يحدث خلالها، تظل خفية.

إن ما يحدث مع الأشياء الحية، هو نفسه ما يحدث مع الأشياء التي يصنعها الإنسان. فالناس يصنعون أشياء رائعة ويحتفظون بها خلف صناديق زجاجية. لكن المحلات التي تنتجها يتم إغلاقها أمام من يريدوها. وهم يتعلقون بهذه المنتجات وتستثيرهم، أكثر مما تمثله هذه المنتجات من إثارة. فمثل الموضة، تعمل الأعضاء المختلفة داخل الجسم وهي عمليات مذهشة. لكن، لا أحد ينظر إليها أو يهتم بها. وحتى الشخص الذي يبقى حيًا بفضل وظائف هذه الأعضاء، لا يعرف شيئًا عن مدى تعقيداتها. فالطبيعة تعمل دون أن تعلن عن نفسها. إنها

تجسد وصية المحبة في المسيحية: «لا تدع يدك اليمنى تعلم ما تقدمه يدك اليسرى». إن التوازن المتناغم للقوى المتنوعة في عمل ما، تسمى «صحة» أو «سواء».

لقد سجلنا كل التفاصيل عن الأمراض، لكننا حتى الآن لم نحسب روائع الصحة. فقد تمت معرفة الأمراض ومعالجتها منذ أزمنة مبكرة. وعرف إنسان ما قبل التاريخ كيف يجري عمليات جراحية. وقد أنتج المصريون والإغريق الدواء. لكن - ومقارنةً بذلك - فالمعرفة حول وظائف الأعضاء الداخلية مازالت حديثة. إن اكتشاف الدورة الدموية مثلاً، يعود - فقط - إلى القرن السابع عشر. وكانت أول مناقشة تشريحية حول الجسم البشري قد تمت في العام (1600 م). وكان الاهتمام بعلم العلاج، والأمراض، تم تدريجياً وبشكل غير مباشر، قاد هذا إلى اكتشاف أسرار علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجي) في إطار الوظائف السوية للجسم.

بعد هذا، لم يكن من المستغرب أن يتم التأكد من الأمراض النفسية للأطفال، حيث كشف النقاب عن عملياتهم ووظائفهم السوية. ثم أصبح كل هذا أكثر فهمًا حينما أخذنا في الاعتبار الحساسية المفرطة للوظائف النفسية، والتي أخذت تحمي نفسها تدريجياً، في ظلمات سرية.

فإذا لم تقدم للطفل المساعدة، وإذا تم إهمال بيئته، فستصبح حياته النفسية في خطرٍ قائم. إن الطفل - كأي موجود في العالم - معرض

للأذى. وعليه أن يناضل من أجل نمو النفسي، وربما يخفق في هذا النضال. أما الكبار، فهم لا يقدمون عوناً، ماداموا لا يعرفون قواعد اللعب. وبدرجة أقل، يتنبهون للمعجزة التي تتحقق: إنها خلق حياة نفسية من شيء لا يظهر بشكل محسوس.

ويجب ألا نستمر في الجهل بالنمو النفسي للطفل. علينا أن نساعد منذ لحظاته الأولى في الحياة. مثل هذه المساعدة لن تكون في تشكّل الطفل، حيث يرتبط هذا الواجب بالطبيعة ذاتها. لكنها تتمثل في الاهتمام الرقيق للمظاهر الخارجية لهذا النمو، وكذلك في توفير تلك الوسائل الضرورية لتشكّله مما لا يمكنه الحصول عليها بمجهوده الذاتية فقط، وبمفرده.

وإذا كان الأمر كذلك، إذا بقي سر الطفل الصحيح السوي، متخفياً في بعض الطاقات الكامنة، يمكننا فقط تخيل الكم المرعب من انعدام التكيف. فهو يظهر كنتيجة لعيوب في النمو النفسي، وهو ما يرجع - بدوره - لخلل في النظام الداخلي أو للأمراض. ومتى كانت مبادئ الصحة النفسية للرضيع، غير معروفة، فسترتفع معدلات وفيات الأطفال بشكل غير اعتيادي. وقد كان هذا هو العامل الوحيد المقبول للمشكلة. وبين من يبقى حياً، كان هناك كثيرٌ من المهمومين والجهلة، ومن يعانون من الكساح، أو الهزال، أو شلل الأطفال. وكثيرٌ منهم كان لديهم عيوبٌ جسمية وضعفٌ وظيفي، مما جعلهم أقلّ مناعة ضد السل الرئوي، والتلوث، والجذام.

وليس لدينا - تقريبًا - خطة واضحة تضمن الصحة النفسية للطفل. فلا شيء في بيئتنا يحميها أو يصونها. إننا لا نعرف، بل نجهل سر العمليات التي تولد الرغبة في خلق التناغم الروحي. فالاضطراب يسبب التشوهات، فقد الإبصار، الضعف، إعاقة النمو، بل والوفاة نفسها. وكل هذا ليس مجرد ضرب (نوع) من الحديث، أو حديث مجازي. إنه حقيقة مرعبة حول حالة الطفل الروحية، توصف بالمصطلحات ذاتها التي تستخدم كمجرد إشارة لحالته الجسمية. إن أخطاء صغيرة تحدث في البداية. فالإنسان يمكنه النمو والوصول ناضجاً دونما بيئة روحية إذا كان لا يملكها. إنه يُطرد من الجنة التي ينبغي أن تكون له.

ملاحظات وأمثلة

لقد حاول الإخصائيون النفسيون استنباط ردود الأفعال من الأطفال، والتي تشير إلى استجابة نفسية لمثير حسي. لكن مثل هذه التجارب لم تتمكن من إثبات وجود حياة نفسية للرضع الصغار. ومع ذلك، فالحياة النفسية أولية وغير متطورة، ويجب أن تسبق مباشرة - أي نوع من الحركة الإرادية.

إن الشعور يحرك النبضة الأولى. هكذا - وعلى سبيل المثال - يظهر الطفل صوراً للحركة عندما يريد شيئاً، ويشد كل جسمه ويذل جهداً قوياً من أجل ذلك. وعندما يتقدم النمو والتناسق الحركي، عندها فقط يصبح قادراً على الفصل بين أنشطته المختلفة، حتى يتمكن من الوصول بيده إلى ما يريد.

مثال آخر يمكن مشاهدته في طفل الشهور الأربعة: فهو يقي عينيه مفتوحتين تمامًا على شفتي الكبير الذي يتكلم. وبواسطة حركة شفتيه هو، وخصوصًا بواسطة الاتجاه المقصود لرأسه، ييدي الطفل انجذابه لصوت الشخص المتكلم. وفي الشهر السادس، يستطيع الطفل تركيب كلمات قليلة متناثرة متلعة. لكن قبل أن يتمكن من إصدار هذه الأصوات، فهو ينصت باهتمام وتركيز، وبسرية يحفز أعضاء الكلام لديه.

وهذا يظهر أنه يمتلك مبدأ نفسيًا سيشجع ويحفز أفعاله وأداءه. ووجود مثل هذه القدرة المحسوسة، يمكن معرفتها من الملاحظة، لكن ليس عن طريق التجربة. فالتجارب النفسية في مثل هذا العمر المبكر، تصبح إجحافًا وظلمًا للجهد السري في حياة الرضيع النفسية وتجعل طاقاته فارغة من محتواها.

وبالطريقة ذاتها، يمكن ملاحظة الحياة النفسية لطفل يتأني في مراقبته للحشرات. فهو يرقبهم دون أن يتسبب في إزعاجهم حينما ينشغلون بعمل ما في بيئتهم الطبيعية. علينا البدء بملاحظة الطفل عندما تبدأ حواسه في إظهار انطباعات واعية بالعالم الخارجي. ومنذ حدوث هذا، تستمر الحياة في النمو على امتداد بيئة الطفل.

ولن يحتاج من سيقوم بمساعدة الطفل، الحصول على جهد متقن لدراسة الملاحظات أو ابتكار التفسيرات. إنه يحتاج ببساطة امتلاك الرغبة في مساعدة الطفل، ورصيد من الحس العام.

وسوف توضح بعض الأمثلة الظاهرة، إلى أي مدى إمكانية هذه الملاحظة. فعدم قدرة الطفل على الوقوف، تؤكد محاولاته المتكررة لمد جسمه إلى أعلى. ويجب أن يتلقى الطفل أول انطباعاته المحسوسة من البيئة المحيطة به. إنها تأتي من السماء كما تأتي من الأرض، وهو لا يجوز له أن يحدق إلى السماء. إنه يتأمل جدار حجرته، والذي غالبًا ما يكون أبيض اللون. مملًا ورتيبًا، تمامًا مثل غطاء فراشه. لهذا، لا بد أن يجد الفرصة ليرى هذه الأشياء التي ستروي روحه الظلمات. وكثيرًا ما يقتنع الآباء أن الطفل يحتاج شيئًا يصرف انتباهه عن رتابة البيئة المحيطة به. وبالتالي، يربطون كرة أو أي شيء آخر في طوق (أو ما شابه) ويجعلونها تتأرجح فوق رأس الطفل. وفي توفقه إلى استيعاب الخيالات من محيطه الخارجي، فإن الطفل - الذي لم يعد قادرًا على تحريك رأسه بعد - يتابع تأرجح حركة هذا الشيء بعينيه. وبسبب هذه الوضعية المصطنعة التي تفرض عليه، ثم حركة هذا الشيء، فإن مجهوداته تكون غير طبيعية ومعطلة.

ومن الأفضل أن يوضع الطفل على سطح رقيق يميل إلى الانحدار، حتى يمكنه استيعاب كل ما يشمله محيطه الخارجي. ويبقى من المفضل وضع الطفل في حديقة حيث يمكنه رؤية الطيور والأزهار والنباتات التي تتأيل برقة.

ويجب أن يوضع الطفل في البقعة ذاتها، في المناسبات والظروف المختلفة. وبهذا تتكرر إمكانية رؤيته للأشياء نفسها ويتعلم كيف يدركها.

وأيضًا يستوعب أماكنها وتقاربها معًا، وكيف يفرق بين أشياء حية
وأخرى غير مفعمة بالحياة.

8 . النظام

من أكثر الفترات أهمية وغموضًا، تلك التي تجعل الطفل يتمتع بحساسية مرهفة للنظام. هذه الحساسية تظهر في العام الأول للطفل وتستمر خلال عامه الثاني. ربما يبدو هذا مدهشًا بالنسبة لنا، إذا كان على الأطفال أن يمروا بمرحلة حساسة مع احترام النظام الخارجي. بينما الرأي الشائع أن الأطفال لا يبالون بأي نظام وفوضيون بطبيعتهم

فعندما يعيش طفلٌ في مدينة، في بيئة مغلقة مليئة بالأشياء المتنوعة، وعندما يتحرك فيها الكبار ويرتبون الأسباب التي لا يفهمها الطفل، يصبح صعبًا أن يتوافق الاتجاه الرقيق للطفل مع كل هذا. فإذا كان يمر بمرحلة حساسة للنظام، فإن الفوضى التي يأتي بها قد تصبح عائقًا أمام نموه وسببًا في الاضطراب وعدم السواء.

إن الكبار الذين يعتنون بالطفل، مازالوا لا يعلمون أن روح الرضيع بداخلها سرٌّ عميق. إذ كيف يصيح الطفل أو يبكي دون سبب ظاهرٍ ويقاوم كل محاولات تهدئته؟. هذا - في حد ذاته - يصبح سببًا معقولًا يجعلنا نشك أن لديه بعضًا من حاجة سرية يجب أن تُشبع.

إن حساسية الطفل للنظام يمكن ملاحظتها حتى في الشهور الأولى من وجوده. إن المظهر الإنجابي يمكن رؤيته في الحماس والبهجة التي

ييديها الأطفال في رؤيتهم للأشياء الموجودة بالأماكن الخاصة بهم. وهو ما يمكن ملاحظته - بسهولة - لأي من لديه المبادئ الأساسية للملاحظة. ويمكنني أن أسوق مثالاً: الممرضة التي لاحظت طفلة رضيعة - أثناء رعايتها لها - وهي مبتهجة ومهتمة بالتطلع إلى حجر رخامي أبيض معلق على حائط رمادي قديم. ورغم أن الطفلة لم تتعدّ الخامسة أشهر، ورغم أن «فيلا» أبويها التي تعيش فيها، كانت زاخرة بالزهور الجميلة، إلا أن الممرضة كانت تحملها كل يوم وتتوقف بها أمام هذا الحجر الخاص. منذ لاحظت ما يبعثه على الرضيعة من بهجة وسرور.

لكن، ربما تصبح هذه المرحلة الحساسة أكثر وضوحاً الآن حيث يواجه الطفل بالمعوقات. وربما يكون الغضب لطفلي المتهور، راجعاً إلى تلك الحساسية. وفي هذا المجال يمكنني إعادة ذكر بعض الأمثلة: أولها الشخصية المبدئية، وكانت تمثلها طفلة الشهور الستة. فذات يوم، وفي حجرتها التي كانت موجودة بها، شاهدت امرأة تدخل الحجرة وتضع مظلتها فوق المنضدة. بدأت الطفلة تحرق - للمظلة لا للمرأة - ثم بعد برهة من التحديق، بدأت في الصراخ. وظنت المرأة أنها أرادت المظلة، فالتقطتها وأعطتها لها مع ابتسامة سعيدة. لكن الرضيعة دفعت المظلة بعيداً عنها وواصلت الصراخ. وبلا فائدة بذلت جهوداً لتهدئة الطفلة. لكنها فقط صارت تحرق أكثر. ماذا يمكن عمله الآن لحل مشكلة هذه الغضبة المتزايدة؟ فجأة - وخلال بعض الاستبصار النفسي - أخذت والدّة الطفلة المظلة من فوق المنضدة وحملتها إلى غرفة أخرى. وفوراً بدأت الطفلة تعود إلى هدوئها. فقد كانت المظلة

هي سبب اضطرابها. فالشيء في غير موضعه تسبب في عنف الطفلة الصغيرة وغضبها. إنه نموذج لكيفية ترتيب الذاكرة وتعاملها مع الأشياء. مثال آخر: هو طفل أكبر قليلاً؛ فذات مرة وجدت نفسي مع مجموعة صغيرة من السائحين يمشون عبر نفق «جروتو أوف نيرو - نابلي». وكانت سيدة شابة تقود طفلاً في حوالي العام والنصف. لقد كان أصغر من احتمال مشقة السير في رحلة طويلة.

بعد انقضاء بعض الوقت من سيره على قدميه، بدأ الطفل يتعب، فرفعته أمه بين ذراعيها. لكنها بدأت تفقد قوتها. وكان معطفها يزيد شعورها بالحرارة، فتوقفت وخلعت معطفها وحملته على ذراعيها. ومن جديد عادت فحملت صغيرها. لكنه بدأ يصرخ. ثم يزداد صراخه ويزداد وفشلت أمه في تهدئته. بدا عليها الإرهاق وكان واضحاً أنها تلوم نفسها. بالطبع تطوع عدد من المجموعة بتقديم مساعدتهم لها. وظل ينتقل من ذراع إلى ذراع، لكنه بدا أكثر انزعاجاً. وبدأت صيحات التشجيع تتعالى، لكن ذلك - تحديداً - هو ما زاد الوضع سوءاً. وكان جلياً أن الأم يجب أن تعود بطفلها. لكن الطفل - في هذه اللحظة - كان يبدو كالمسحور. وبدا ذلك كوضع ميثوس منه.

وهنا، عرض المرشد السياحي - بتصميم - أن يمسك الطفل ويحمله بين ذراعيه. حينها، ظهر رد الفعل العنيف من داخل الطفل. ولأنني مقتنعة أن ردود الأفعال هذه، لها أسسها النفسية في الإدراك الحسي الداخلي للطفل، فقد قررت أن أحاول شيئاً. تقدمت إلى والدة الطفل

قائلة لها «هل لي في مساعدتك وأخذ معطفك عنك؟». نظرت إليّ في دهشة بينما لم تزل غاضبة، لكنها بشوشة، ثم استجابت لطلبي وتركتني أساعدها في حمل معطفها على يدي. وفورًا هدا الطفل تمامًا. وبينما دموعه ونحيبه بدأت في الاختفاء، ظل يقول «معطف كنتف». وهذا معناه «معطفك فوق كنتفك». نعم على الأم أن تضع معطفها فوق كنتفها، مما يعني - ببساطة - «أخيرًا استطعت أن تفهميني». لقد فتح ذراعيه لأمه بابتسامة جميلة. وقد أنهينا رحلتنا عبر النفق دون أي مزيد من الصعاب. إن المعطف صُنع ليوضع فوق الأكناف لا أن يُحمل كقطعة بالية - على ذراع واحد. إن الخروج على النظام والذي لاحظته في شخص أمه، كان السبب في محاولة الصراع.

هناك مشهد أسري آخر - وكنت شاهدة عليه يومًا - هو أيضًا له دلالة: امرأة تشعر (أو يبدو عليها) بعض الإجهاد، كانت مسترخية على مقعدٍ وثير يستند إلى وسادتين. وجاءت ابنتها الصغيرة التي لا تتجاوز العشرين شهرًا. اقتربت من أمها وسألتها أن تروي لها «قصة». وأي أم يمكنها مقاومة مثل هذا الطلب؟. ورغم أنها كانت متعبة، فقد بدأت المرأة تروي أقصوصة صغيرة والطفلة تتابع باهتمام كبير. لكن أمها كانت مريضة لدرجة لم تستطع معها الاستمرار في الحكى. وقد اضطرت أن تستعين بالخادمة للذهاب إلى فراشها في الحجرة المجاورة. وبدأت الابنة الصغيرة - التي تركت بجوار المقعد - في الصراخ. كان واضحًا أنها تنتحب من أجل معاناة أمها. وحاول القائمون على رعايتها،

تهديتها لكن دون جدوى. وحينما عادت الخادمة لتأخذ الوسادتين من فوق المقعد لتذهب بهما إلى حيث حجرة الأم، بدأت الطفلة في الصراخ: «لا ليست الوسائد كان يبدو وكأنها تحاول القول: «على الأقل اتركي شيئاً في مكانه».

وبكلمات رقيقة ناعمة، حملت الطفلة إلى حيث فراش أمها. وتحاملت الأخيرة على معاناتها وأرغمت نفسها على إكمال الحكى والاستمرار في القصة، ظناً منها أن ذلك سيرضي فضول الطفلة ونهمها للمعرفة. لكنها، ببراءتها ودموعها تغطي وجهها، قالت: «ماما المقعد». محاولة بذلك أن تخبر والدتها أنها يجب أن تجلس فوق المقعد.

لم تعد تهتم بالقصة، فالأم والوسادتان قد غيرتا الوضع. فالقصة بدأت في غرفة، ثم تم استكمالها في غرفة أخرى. وقد خلق هذا صراعاً دراماتيكياً في عقل الطفلة الصغيرة.

هذه الأمثلة تشير إلى حدة هذه الفطرة. وربما المدهش هنا، ظهورها في عمر مبكر جداً. ففي عمر الثانية، تظهر الحاجة إلى النظام لدى الطفل، وتبدي نفسها في هيئة ساكنة. وهي في ذلك الوقت تعني أن الحاجة تصير مبدأ للنشاط وتعد لظاهرة مثيرة، بل من أكثر ما يثير الملاحظة في مدارسنا. فحينما لا يوجد شيء في مكان ما، فإن الطفل هو من حملها ليضعها حيث يجب أن تكون، أو يلاحظ افتقار النظام إلى أدق التفاصيل، التي قد تغيب عن ملاحظة الكبار، أو حتى الأطفال الأكبر عمراً. على سبيل المثال: إذا انسكب قليل من الحساء

فوق مائدة الطعام، وليس في داخل طبق الحساء، أو إذا كان المقعد في غير موضعه. إنه طفل الثانية من يلحظ ذلك - فجأة - ويضعه في نظام.

يبدو أن رؤية الأشياء وموقعها في غير مكانها، تستدعي نوعاً من المثيرات، وتنادى النشاط. لكنه بلا شك - شيء أكبر من ذلك. إن النظام أحد احتياجات الحياة، والتي - حال إشباعها - تنتج سعادة حقيقية. وفي مدارسنا - وهذه حقيقة - نرى أطفال الثالثة أو الرابعة، يضعون الأشياء التي يستخدمونها - بعد أن يفرغوا من التمرينات - في مكانها الصحيح. إنها واحدة من أمتع وأسرع الواجبات التي يتقنونها. والنظام يتكون من إدراك مكان كل شيء في علاقته بيئته، وفي تذكر المكان الذي يجب أن يوضع فيه الشيء. هذا يتضمن أن الفرد قادرٌ على أن يضع الشيء ذاته في بيئته ذاتها وأن يتأكد - خلال ذلك - من كافة التفاصيل. إن البيئة المناسبة للروح هي التي يستطيع الفرد أن يتجه إليها بعينين مغمضتين، وببساطة يجد أي شيء يرغبه بمجرد أن يمد يده إليه. وبيئة مثل هذه، ضرورية للسلام النفسي والسعادة. من الواضح أن «حب النظام» لدى الأطفال ليس كمشيله عند الكبار. فالنظام يجلب للكبير كما محددًا من السعادة الخارجية. لكنه - بالنسبة للأطفال الصغار - شيء مختلف تمامًا. إنه كالأرض التي تسير فوقها الحيوانات، أو كالماء الذي تسبح فيه الأسماك ففي عالمهم الأول، تقود الصغار مبادئهم، نحو التكيف وفقًا لبيئتهم التي عليهم - لاحقًا - أن يتسيدوها. وبمجرد أن يتشكل الطفل بواسطة بيئته، سيحتاج

مرشدين واعين أشداء، وليس شيئاً بسيطاً أن يلف بعض الغموض هذه الصيغة المطلوبة.

هذا النظام ينتج سروراً طبيعياً، ربما نشاهده من نط الألعاب التي يمارسها أطفال صغار جداً. إنهم يدهشوننا برغبتهم في المنطق. إن مبعث سرورهم أن يجدوا الأشياء في أماكنها. وقبل أن أستطرد في أبعد من هذا، يجب أن أذكر تجربة تمت بواسطة البروفيسور «بياجيه» في جنيف، مع طفله هو شخصياً: لقد أخفى شيئاً تحت حشوة المقعد، ثم أرسل طفله خارج الغرفة. أخذ هذا الشيء ووضعه تحت حشوة مقعد آخر في مواجهة المقعد الأول. وكان أمل البروفيسور أن يبحث الطفل عن الشيء تحت الحشوة الأولى، ثم حين لا يجده، يبحث عنه تحت الأخرى. لكن، كل ما فعله الطفل حين عاد إلى الغرفة، أن رفع حشوة المقعد الأول، وبعدها قال بطريقة غير المكتملة في النطق: «لقد ذهب». لكنه لم يبدل أي جهد للبحث عن هذا الشيء في أي مكان آخر. وبعد ذلك كرر البروفيسور «بياجيه» التجربة ليرى طفله كيف أخذ الشيء من تحت حشوة مقعد ووضعه تحت الأخرى. لكن الطفل فعل - بالضبط - مثلما فعل من قبل، وقال ثانية: «لقد ذهب». ولقد توقف البروفيسور عند نقطة مؤداها أن ابنه غيبي جداً. لكن ما حدث هو أنه ترك الشيء تحت حشوة المقعد الثاني ثم رفعه قائلاً: «ألم تر أنني وضعته هنا؟» أجاب الطفل: «نعم». ثم - وتركيزاً على المقعد الأول - قال لأبيه «لكنه مفترض أن يكون هناك».

لم يكن الطفل شغوفاً بأن يجد الشيء، بل بأن يجده في مكانه. واضح أنه اعتقد أن البروفيسور هو الذي لم يفهم اللعبة. ما الشيء الموجود هناك للعب، إذا لم يوضع في مكانه الصحيح؟.

وذات مرة شهدت لعبة «تَخَفَّ واجتْ» يمارسها أطفال في الثانية أو الثالثة من العمر. وحقيقة كنت في حالة من الذهول والإعجاب. لقد بدوا سعداء، مستشارين، ممتلئين بتوقع وترقب ما سوف يفعلونه. فكيف مارسوا لعبتهم؟. طفل يركع ويختبئ أسفل منضدة مغطاة بمفرش يصل إلى أرضية الحجرة. بعد أن يراه الأطفال يفعل ذلك، يذهبون خارج الحجرة ثم يعودون، يرفعون المفرش ويبادرون بصيحة بهجة إذ وجدوا رفيقهم خلف هذا الغطاء. وكانت اللعبة تتكرر مرات كثيرة. كانوا يتبادلون المواقع، فيقول أحدهم «الآن، أنا أخبئ نفسي»، ثم يذهب أسفل المنضدة.

في مناسبة أخرى: رأيت أطفالاً أكبر عمراً يمارسون لعبة «تَخَفَّ واجتْ» مع طفل صغير. وخبأ نفسه خلف إحدى قطع الأثاث. ودخل الأطفال الأكبر وتظاهروا أنهم لا يرونه. وبحثوا في كل مكان، عدا ما خلف الأثاث، معتقدين أنهم - بهذه الطريقة - يرضون الصغير ويسعدونه. لكنه صاح فجأة «أنا هنا» وبنبرة واضحة - ضمناً - كان يقول «ألم تروا أنني كنت هنا؟».

ويوماً ما أخذت دوراً في هذه اللعبة. فقد وجدت مجموعة من صغار الأطفال، وكانوا يصيحون ويصفقون بأيديهم في فرحة. ذلك أنهم قد

وجدوا رفيقهم المختبئ خلف الباب. ثم اقتربوا مني قائلين: «العبي معنا، خبئي نفسك». وقبلت الدعوة، وخرجوا جميعهم - بأمانة - من الحجرة وكانهم لا يريدون رؤيتي أين سأخبئي. وبدلاً من الذهاب خلف الباب، تخفيت في ركن من الحجرة. انتظرت لبرهة، وأخيراً ولأربعم أنهم لم يبحثوا عني، خرجت من مخبئي. كان الأطفال تعساء ومشوشين وتساءلوا «لماذا لم تلعب معنا؟، لماذا لم تخبئي نفسك؟».

إذا كانت موضوعات الألعاب، موضوعات تبعث على البهجة (وفي الحقيقة كان الأطفال سعداء في تكرارهم لتمريناتهم المضحكة)، فإنه من المحير أن مبعث البهجة في حياة الطفل - في مرحلة عمرية محددة - تتمثل في إيجاد أشياء في مكانها المناسب. «التخفي» - بالنسبة لهم - يُفسر بحسبانته إيجاد شيء في بقعة محجوبة عن الانظار. وكان لسان حالهم يقول «أنت لا تستطيع رؤيته، لكنني أعرف أين هو، وأستطيع إيجاده بعيني المغمضتين».

كل هذا يبين أن الطبيعة تمد الطفل وتروده بالحساسية للنظام. إنها نوع من الحساسية الداخلية التي تنبه بالعلاقات بين الأشياء المتنوعة، أكثر من الأشياء في حد ذاتها. إنها بذلك تجعل كلية البيئة وعمومها، والمكونة من أجزاء متعددة، في حالة من الاعتماد التبادلي. فعندما يوضع شخص في بيئة مثل هذه، يستطيع أن يوجه نشاطه لإحراز أهداف محددة. ومثل هذه البيئة تهيب الأصل لحياة متكاملة. فما هو الشيء الجيد في مجرد تراكم صور متنوعة، إذا لم تكن مرتبة وفقاً لنظام؟ إن هذا يشبه امتلاك أثاث دون منزل يوضع فيه. إن

من يعرف موضوعات متنوعة لكنه لا يعرف علاقاتها الطبيعية، كمن يعيش في تشوش كامل، مما لا يستطيع معه أن يحمي نفسه أو يخلصها من خطر. إنها مرحلة الطفولة، التي يتعلم الإنسان خلالها إرشاد نفسه وتوجيهها في طريق الحياة. وتقدم له الطبيعة أول حافز خلال المرحلة الحساسة والتي ترتبط وتتواصل مع النظام. والطبيعة كما كانت دائماً - تعطي للإنسان الباعث الذي سيجب من وضع نفسه في قلب العالم. إنها تشبه المعلمة التي تقدم لفصلها المدرسي انطباعه الأول عن الجغرافيا، عن طريق تزويدهم برسم توضيحي (مثل الخريطة) للحجرة الدراسة. والطبيعة تعطي الأطفال القوة كي يعيدوا إنتاج أصوات كلام الكبار. فذكاء الإنسان لا يأتي من لا شيء، بل ينشأ على أصول وأسس تأتي من طفل خلال مراحل الحساسية.

النظام الداخلي

يملك الطفل نوعين من الإحساس بالنظام: أولها خارجي ويرتبط بإدراكه لعلاقاته ببيئته. أما الثاني فهو داخلي ويجعله واعياً بالأجزاء المختلفة المكونة لجسمه، والعلاقات التي تربطها. وهذا النمط من الحساسية يمكن أن يطلق عليه «التوجيه الداخلي».

وقد تمت دراسة التوجيه الداخلي بواسطة علماء النفس التجريبيين. وقد أدركوا وجود إحساس عضلي، والذي يجعل الفرد قادراً على الوعي بالأوضاع المختلفة التي تتم عن طريق الأجزاء المتنوعة في جسمه. وهي تتطلب نوعاً خاصاً من الذاكرة، هي «الذاكرة العضلية».

وهذا شرح آلي تمامًا، ويستند إلى خبرة الأفعال المتكونة بوعي وإدراك. وهذا يتطلب - على سبيل المثال - أن الفرد إذا حرك يده لالتقاط شيء، فإن الحافز قد تم إدراكه وأصبح ثابتًا في الذاكرة، ومن ثم يمكن إعادة إنتاجه. وبهذا، يستطيع الإنسان أن يختار تحريك ذراعه الأيمن أو الأيسر، ليديره في اتجاه أو آخر. وذلك بسبب الخبرة الإرادية التي وضح اكتسابه لها.

لكن الطفل يُظهر أنه يمر خلال فترة نمو مرهفة الحساسية، مع تقديره لتنوع الأوضاع في جسمه. وهذا يسبق قدرته على حرية الحركة ومروره بهذه الخبرات. وبعبارة أخرى: تجهز الطبيعة الطفل وتمده بحساسية خاصة، تتصل بالاتجاهات المتنوعة وبأوضاع جسمه.

لقد كانت النظريات القديمة تستند إلى ميكانيزم الجهاز العصبي. ومن ناحية أخرى، فإن المراحل الحساسة تتصل بالحقائق النفسية. لقد استبصروا وتلمسوا أنهم وضعوا أصول وقواعد الوعي. وفقًا لذلك، ظهرت الطاقات لتأسيس المبادئ التي تشكل أسس النمو النفسي. ولهذا، فالطبيعة تهيئ الإمكانية والخبرة الواعية التي النمو الحقيقي. أما البرهان السلبي على وجود هذه المرحلة الحساسة، فقد يُرى عندما تظهر ظروف في داخل البيئة من شأنها إفساد هدوء نمو هذا الاكتساب الخلاق. وعندما يحدث هذا، يصبح الطفل مُثارًا بعنف. أما ثورات الغضب التي يمكنها مقاومة كل جهود تهدئتها، فتمتد كظروف سيئة وضارة وضاعطة. كما يمكن افتراض تسببها في ظهور الأمراض.

و بمجرد أن تتحرك العوائق ويتم إزاحتها. يختفي المرض ونوبات الغضب، وهذا يبين السبب الواضح للظاهرة.

وهناك مثال مثير لذلك: يمكن رؤيته من خلال خبرة ممرضة إنجليزية، حين اضطرت لترك نوبة عملها لفترة قصيرة، ووجدت بديلاً مناسباً. لكن الممرضة الأخرى واجهت مشكلة بالغة في نيل ثقة الطفل أثناء رعايتها له. فحين كان يأخذ حمامه (يستحم)، بدا غاضباً ومحبطاً. ولم يكن هذا هو رد فعله الوحيد. فقد قاوم الممرضة وحاول دفعها بعيداً وبذل جهداً في الهروب منها. وبذلت الممرضة كل ما استطاعت تصوره من أجل جذب الطفل إلى تقبلها. لكنه - تدريجياً - بدا غير محب لها. وعندما عادت الممرضة الأولى، أخفى الطفل امتعاضه، وكان واضحاً سروره بهذا الحمام. إن الممرضة التي تم تدريبها في مدارسنا، وكانت شغوفة باكتشاف الاساس النفسي للبعض الذي أصاب الطفل، جلست - في صبر - تفسر الكلام غير المكتمل الذي يتفوه به الطفل.

لقد اكتشفت شيئين - وكانت قادرة على ذلك - أولهما أن الطفل اعتبر الممرضة الثانية سيئة، لماذا لأنها قامت بعملية الاستحمام بشكل معكوس. فقد قارنت الممرضتان الطريقة التي تمارسها كل منهما في غسلها لجسم الطفل، لتكتشفا هذا الفارق فالأولى تأخذ الطفل بيدها اليمنى لتقترب بها من رأسه، واليسرى تقترب بها من قدميه. أما الثانية، فقد فعلت العكس تماماً.

حالة أخرى يمكنني أن أعيد ذكرها، وكانت أكثر خطورة: فقد تجلى فيها كل مظاهر العلة غير المحددة. وحدث أنني انشغلت، بل استغرقت فيها تمامًا. وعلى الرغم من أنني لم أثق تمامًا في قدرتي كطبيبة، فمازلت قادرة على أن أكون مساعدة. لقد كان الطفل أقل من عام ونصف العام من عمره. أتم أبواه رحلة طويلة جدًا. وكان رأيها أن الطفل أصغر من احتمال الإرهاق والمعاناة. ومع ذلك، فقد لاحظا أنه لم يوجد أي حادث محدد أثناء الطريق. وفي كل ليلة ينامون في فندق من الطراز الممتاز، حيث للطفل مهدّ خاص به، فكل شيء مُعدّ باتقان. ثم إن طفلها الرضيع يتم تجهيز طعام خاص له. وعادت الأسرة من رحلتها، وكانت تعيش في شقة فاخرة التأثيث ورحبة. لكن، لم يكن له فيها مهدّ مخصصًا لنومه. كان الطفل ينام مع أمه في غرفة رحبة وفراش واسع. وفي المنزل، كان الرمز الأول لمرضه هو الأرق وانعدام النوم. ثم مضايقات أمعائه. كان على الطفل أن يذهب - محمولاً - للنوم كل مساء. وكانت صرخاته وصيحاته تتسبب في آلام معدته. وقد تم استدعاء طبيب أطفال لفحصه. وقد أعطي الطفل (غذاءً خاصًا). لكن ذلك لم يفده، حتى صارت الأمسيات كالكابوس بالنسبة للأسرة. وأخيرًا دخل الطفل في نوبات تشنجية. وكانوا يرونه وهو يتلوى على سريريه في تقلصات لا إرادية تثير الشفقة. كانت تلك الهجمات تحدث - غالبًا - مرتين أو ثلاث، يوميًا. ثم بدأت ملاحظة من قبل أشهر أخصائي الأمراض العصبية عند الأطفال. وكانت هذه لحظة تدخلية. كان الطفل يبدو في حالة طيبة - وطبقًا لما ذكره والداه كان في صحة جيدة طوال رحلتهم الطويلة. لكن يبدو أن هناك

بعض الأسس النفسية لحالة الاضطراب التي أصابته. ولقد كُوت هذا الانطباع بمجرد رؤيتي للطفل وهو يعاني من إحدى النوبات التي هاجمته. لقد أخذت حشوتين (وسادتين) ووضعتهما كل منهما تُوازي الأخرى بحيث يكونا ما يشبه السرير الصغير مع جوانب دائرية تشبه مهدًا. ثم غطيت هذا بما يشبه مفرش السرير، ثم وضعت ملاءة، ودون التحدث بأي شيء، وضعت هذا المهد الارتجالي بجوار سرير الطفل. استمر الصغير يتابع وينظر إليه، وكأنه يكبح صرخة، وظل يدور ويدور، حتى وصل إلى حافة الفراش. ثم ألقي بنفسه داخل المهد قائلاً: «كاما، كاما، كاما!». وهي الكلمة التي يستخدمها للتعبير عن المهد. وفورًا شعر بالنعاس. ولم تعاوده معاناته - أبدًا - بعد ذلك.

من الواضح أن الطفل في فراش أو سرير متسع قد افتقد الدعم النفسي الذي كان يشعر به الجسم الصغير بين جانبي المهد. هذا النقص خلق نوعًا من انعدام النظام والاضطراب وألم الصراع الداخلي، والذي بدا مستعصيًا على الحل. إن ردود أفعاله تظهر قوة المراحل الحساسة، حينما تكون الطبيعة في عملية خلق.

فلم يشعر الطفل شعورًا مشابهاً تجاه النظام الذي وفرناه له. إن التجارب والخبرات جعلتنا جميعًا متشابهين. لكن الطفل مازال يفتردها وهو في قلب عملية جني الانطباعات. إنه يبدأ من لا شيء، ثم يشعر بجهد الخلق ومشقته. إننا نشبه أبناء رجل أصبح ثرياً عبر كدح وجهدٍ عظيم. ونحن نخفق في فهم المعاناة التي واجهها واحتملها. إننا لا نبالي بسبب ما تم إنجازه لنا من مكانة مميزة في المجتمع. ونحن الآن نستطيع

أن نستخدم السبب الذي من أجله يولد الطفل بداخلنا، الإرادة التي سيتدرب عليها، العضلات التي ينشّطها ويقويها من أجلنا. فإذا ما تمكنا من وضع أنفسنا في قلب العالم، فسبب ذلك أن الطفل هو من أعطانا المعاني لمثل هذا الفعل. وإذا كنا على وعي بأنفسنا، فلأن الطفل هو من جعل هذا ممكناً. نحن أغنياء لأننا ورثة الطفل الذي بدأ بلا شيء، ثم أمدنا بأصول وأسس مستقبل حياتنا. وللمرور من لا شيء ووصولاً لهذا الذي سيصبح أول مبادئ مستقبل حياة الفرد، لا بد للطفل أن يبذل جهوداً مضنية. إنه قريب جداً من ينايع الحياة، لأنه يفعل ويتصرف من أجل الفعل والتصرف. هذا هو طريق الخلق، الذي ليس لنا به معرفة أو ذكرى.

9. الذكاء

يظهر لنا الطفل أن الذكاء لا يبنى ويتكون ببطء ومن الخارج، كما أسس لذلك علماء النفس الآليون. ومازال هذا سائدًا في كل من النظرية والتطبيق التربوي. وطبقًا لنظريتهم المعرفية، والانطباعات التي نستقبلها من الموضوعات الخارجية، تبقى كما هي لتفتح بوابات حواسنا. ثم تبقى بداخل المنطقة النفسية. وتدرجياً، تتضافر معاً لتبدأ في تنظيم وبناء العقل.

إن المقولة القديمة «لا يوجد شيء في العقل، تمامًا مثلما يحدث بصورة أو بأخرى مع بداية الإحساس»، يمكن تطبيقها على هذه العملية. إنها تفترض أن الطفل سلبي نفسيًا وتحت رحمة محيطه الخارجي. من هنا، يصبح الطفل موضوعًا مطلقًا لتحكم الكبار. مفهوم مشابه، هو أن الطفل ليس سلبيًا من الناحية العقلية فقط بل هو مثل آنية الزهور الفارغة، وأنه موضوع أو شيء يمكن ملئه وقولته.

إن خبراتنا - بالتأكيد - لم تقدنا إلى عدم التشديد على أهمية بيئة الطفل في نمو عقله. وكما هو معروف، فإن نظامنا التربوي يُقدّر بيئة

الطفل، وبدرجة هائلة نجعل منها مركزاً للتعليم والإرشاد. كما نعطي اهتماماً بالغاً لتقدير حواس الطفل وإحساسه، اهتماماً يفوق غيرها بين نظم في التعليم. لكن، هناك بين مفهومنا ووجهة النظر الأقدم، فرق في رؤية الطفل ككائن سلبى تقريباً. فللطفل مرحلة حساسة تبقى حتى يبلغ الخامسة تقريباً. وهي تمكنه من استيعاب الصور من بينته بشكل استثنائي. إنه مراقب - بنشاط - استقبال تلك الصور عبر حواسه، لكن هذا لا يعني أنه يستقبلها كالمرآة. إن هذا المراقب الحقيقي يتصرف وفقاً لنبض داخلي. إنه نوع من الشعور أو المذاق الخاص. وهو - بالتالي - انتقائي في اختياره للصور. وقد ساد هذا المفهوم وانتشر بواسطة «جيمس» حين قال أن أحداً لا يرى الشيء - أبداً - في كلية خصوصية. فكل فرد يرى - فقط - جزءاً منه، إنه يراه في ضوء وجدانه واهتماماته. وهكذا، فالشيء ذاته يوصف بطرق مختلفة بواسطة أفراد مختلفين. لقد جاءت أمثلة «جيمس» الخاصة بهذه الظاهرة مثالقة للغاية. فقد لاحظ أن، «إذا كنت مسروراً - بشدة - بحلة جديدة، فستبدأ في ملاحظة ملابس الآخرين، وقد تتعرض - في سبيل استمرار ملاحظتك - لخطر الموت تحت عجلات سيارة».

علينا أن نتساءل، ما الشغف والاهتمام الخاص لأطفال صغار، الذي يجعلهم يلتقطون صوراً محددة بأعداد لا تحصى مما يصادفونه. ومن الواضح أنه لا يمكن وجود نبض خارجي يظهر النزوع إلى التفكير، مثلاً أوضح «جيمس» في المثال السابق. إن الطفل يبدأ من لا شيء، ثم يتقدم بمفرده. إنها المراحل الحساسة المتعاقبة. إن عملية التفكير أو

الاستنتاج - وهي طبيعية وخلاقة - تنمو تدريجيًا مثل شيء حي. ثم تجني قوة تتمثل في الصور التي تستقبلها من البيئة الخارجية المحيطة بها. فالتفكير يهيئ الطاقة والقوة الأولية التي يبدأ فيها التكوّن، والصور المتنوعة تنظم لخدمة التفكير. ويمتص الطفل صوره الأولى ويستوعبها لمساعدة العقل. حتى أنه يمكننا القول أن الطفل شغوف ومتلهف على هذه الصور. وكما سنعرف، فالطفل ينجذب بقوة - إلى الضوء، والألوان، والأصوات، ويأخذها ببهجة عارمة. وكما تمنى أن نتناول الظاهرة الداخلية، وهي عملية التفكير، بحسبانها حركة تلقائية. ومع هذا، فهي - هنا - مجرد بداية. من الواضح أنه علينا احترام ومساعدة حالة الطفل النفسية. فالطفل يبدأ من لا شيء، ثم ينمي عقله، السمات والخصائص الشخصية الخاصة بالإنسان. وهو يبدأ من هذا المعبر، حتى قبل أن يتمكن من السير على قدميه الصغيرتين.

إن هذا يمكن إيضاحه - بصورة أفضل - بمثال يبرز المعنى، أكثر من الشرح؛ إذ يمكنني رواية حالة خاصة لرضيع في الأسبوع الرابع من عمره، والذي لم يتواجد - إطلاقًا - خارج المنزل الذي ولد فيه. ذات يوم كانت الممرضة تحمله على ذراعها، حين رأى الطفل أباه وعمه معًا (والأخير كان يعيش بينهم في المنزل نفسه). وكان الرجلان - تقريبًا - في الطول والعمر ذاتهما. وأبدى الطفل دهشة، ثم خوفًا من رؤية الرجلين. وقد كانا مطلعين على ما نقوم به، ويشيعون الهدوء لإزالة خوف الطفل. وقد افترقا مع استمرار الرضيع في التحديق فيهما. أحدهما

اتجه يمينًا والآخر يسارًا. استدار الطفل ناظرًا إلى أحدهما، وبعد التطلع إليه لبرهة - وقاصدًا - استرسل مبتسمًا.

وفجأة، بدا الطفل قلقًا متوترًا. وبسرعة، أدار رأسه بسرعة لينظر للآخر. ولم يتسم له إلا بعد مضي بعض الوقت. لقد كرر هذه الأفعال اثنتي عشرة مرة، يدير رأسه من جانب إلى آخر. وكان يظهر إشارات واضحة تدل على انشغاله، قبل أن يصل إلى إدراك أن هناك - حقيقة - فردان أو شخصان. إنهما الرجلان الوحيدان اللذان رآهما الطفل. وكان كلاهما يلعب معه، في مناسبات مختلفة. يأخذانه بين ذراعيهما ويحدثانه ويضحكان معه. ولقد أدرك الطفل أن هناك كائنًا مختلفًا عن أمه، وعن الممرضة، وأي من السيدات العاملات بالمنزل. لكنه - فقط - لم ير الرجلين معًا. لقد كان يظن أن هناك رجلًا واحدًا فقط. ثم وجد نفسه - فجأة - يواجه باثنين معًا، فأصبح مدعورًا.

وسط هذا التشوش الذي يحيط به، قام بعزل أو تنحية رجل من الاثنين. ثم حدث أن واجهه الآخر، فاكتشف خطأه الأول. ففي عمر مبكر جدًا - أربعة أسابيع - أدرك القابلية للخطأ لدى العقل البشري، كما كان يناضل ويجاهد في عملية التجسيد.

وإذا لم يدرك الرجلان أو يعيا وجود حياة نفسية للطفل منذ لحظة ميلاده، لم يكن باستطاعتها أن يساعده في عملية اكتساب التنبيه واليقظ والوعي.

يمكن أيضًا أن نسوق أمثلة من تجارب وخبرات الأطفال الأكبر
عمرًا. كان طفل الستة أشهر جالسًا على الأرض يلعب بوسادة. وكان
غطاؤها مزينًا بصور الزهور والأطفال. والطفل يشم الزهور ويُقبل
الأطفال بهجة واضحة. ولم تكن الخادمة موثوقًا بها في رعايته، فهي
- بالكاد - مؤهلة. لذا، اعتقدت أن الطفل سيكون مبتهجًا مسرورًا
إذا ما اشتَمَّ وقَبَّلَ - بالمثل - أشياء أخرى. وعليه، فقد اجتهدت في
إحضار أشياء أخرى له وهي تقول «شُم هذه! قَبِّل هذا!». لكن
النتيجة كانت أن عقل الطفل أصبح مشوشًا. فهذا العقل كان يمر
بعملية ترتيب وتنظيم نفسه، عن طريق إدراك الصور وتخزينها في
ذاكرته. لذلك كان يبدو سعيدًا ومطمئنًا وهو يحمل على عاتقه تكوين
بنية داخلية. لقد تم تخريب جهوده الغامضة لتحقيق التناغم الداخلي.
والسبب في ذلك، هذه الكبيرة (الخادمة) التي لم تدرك - بل أخفقت
في إدراك - ما كان يحدث.

ويستطيع الكبار أن يعيقوا هذا الكدح الداخلي، عندما يفسدون
- بجهل - ردود الانعكاس لدى الطفل، أو عندما يحاولون صرف
انتباهه. فيأخذون يد الطفل الرقيقة ويقبلونها، أو عندما يحاولون معه
أن يذهب لينام، دون الأخذ في الاعتبار، نموه النفسي الخاص. ومن
خلال جهلهم وبسببه، يستطيع الكبار كبح رغبات الطفل الأولية.

من ناحية أخرى، فمن الضروري جدًا، أن يستوعب الطفل جميع
الصور التي يستقبلها، وبكل وضوح. وأن يختزن في عقله هو، كل
العلامات الفارقة التي برزت له أثناء تلك العملية.

لقد تم إجراء تجربة مثيرة - بواسطة طبيب أطفال متخصص - حول إشباع الرضع. وقادته خبرته إلى محصلة مؤداها أن العوامل الفردية لا بد من أخذها في الحسبان، عند إشباع الأطفال. وقد وجد أنه لا بد من لبن الأم يمكن أن يقدم لجميع الأطفال (على الأقل حتى يصلوا إلى عمر محدد). نظراً لأن ما قد يصلح لطفل، يمكن ألا يكون كذلك بالنسبة لآخر. وكانت إجراءاته قد أثبتت نتائج رائعة مع أطفال الستة شهور، لكن بعد ذلك بدا الأطفال في التراجع. وكان هذا مريباً ومحيراً، نظراً لأن إشباعهم - بالرضاعة الصناعية - في هذا العمر كان أسهل بكثير، وربما في عمر أقل. وداخل العيادة كان الطبيب يقدم الخدمات والأدوية مجاناً للأمهات الفقيرات غير القادرات على رعاية أطفالهن، ممن يأتين إليه طلباً للنصيحة ثم كيفية إشباع (إرضاع) أطفالهن.

لكن هؤلاء الأطفال ذوي الآباء الفقراء، لم يظهروا أي أعراض مزعجة بعد الأشهر الستة، مثل هؤلاء الذين بقوا في العيادة. وبعد الملاحظات المتكررة، توصل البروفيسور إلى محصلة مؤداها أنه لا بد من وجود عوامل نفسية خلف هذه الظاهرة. وبدأ يرى أن هؤلاء الأطفال المقيمين - ممن هم فوق الشهور الستة يعانون من «سأم وضجر يعود إلى نقص التغذية النفسية». وحينما وفر وهياً لهم اللهو والتسلية باصطحابهم في نزعات خارج العيادة، ولأماكن جديدة رآها الأطفال لأول مرة، استعادوا صحتهم.

لقد خلصت تجارب عديدة إلى نتائج أوضحت أن الأطفال في عامهم الأول - يستقبلون تلك الانطباعات من محيطهم الذي يمكنهم

إدراكه، من خلال الصور. وربما هناك ملحوظة أبعد من ذلك، أن تلك الانطباعات بمجرد حدوثها، تفقد هم اهتمامهم بالحياة، إلى أن يتجدد غيرها ... وهكذا.

ومن بداية عامه الثاني، لا يصبح الطفل مأخوذاً ومنهراً بالأشياء المبهجة والألوان البراقة، للدرجة التي تنتقل معها الهجة إلى خصائص المراحل الحساسة. لكنه يبدأ الاهتمام بالأشياء الدقيقة التي تغيب عن ملاحظتنا. وربما يمكننا القول أنه يهتم ويستثار بما هو غير مرئي، أو على الأقل - بما يوجد في أطراف الوعي.

وقد لاحظت هذه الحساسية - لأول مرة - في طفلة صغيرة يبلغ عمرها خمسة عشر شهراً. سمعت ضحكها تأتي من داخل الحديقة، وهو أمر غير اعتيادي من طفلة صغيرة كهذه. لقد ذهبت - بمفردها وكانت تجلس فوق كتلة مستطيلة مضغوطة بداخل الحديقة. وبالجوار، كان هناك سرير رائع لونه أحمر قان، يزهر احمراره ويزيده بريقاً أشعة الشمس. لكن الطفلة لم تكن تنظر إلى كل ذلك. لقد وضعت عينها - تماماً - على الأرض، حيث لم يبدو شيء يمكن رؤيته. لقد وقعت أسيرة إحدى هؤلاء الأطفال ممن يمكنهم إرباكنا. ذهبت إليها ببطء ونظرت بتعفن إلى هذا المستطيل دون أن أتمكن من العثور على شيء خاص أو لافت للانتباه. وما لبثت الطفلة أن شرحت لي في لهجة واثقة: «شيء صغير يتحرك هناك». وبمساعدة هذه الإشارة رأيت حشرة صغيرة ميكروسكوبية لها لون المستطيل نفسه، تجري بسرعة فائقة. ما أعظم الدهشة التي أثارها حقيقة وجود

كائن حي بهذا الصغر يمكنه السير، بل والجري أيضًا. حتى بهذا الصغر يمكن السير، بل والجري أيضًا. لقد كانت الطفلة الصغيرة سعيدة ومندهشة في آن معًا. وقد خرجت هذه المشاعر في صيحتها المبهجة. صيحة أعلى من المعتاد لطفلة صغيرة كهذه. والبهجة لم يكن مصدرها الشمس، ولا الزهور، ولا ألوانها الزاهية !

وبطريقة مشابهة، أذهلني طفل في العمر ذاته تقريبًا. فقد وضعت أمه - له - مجموعة ضخمة من الكروت الملونة ليلعب بها. بدا الطفل سعيدًا وحمل إلي تلك المجموعة. وبكلامه الطفلي، قال لي: «بام - بام» ومعناها «أوتوموبيل». وأدركت أنه أراد أن يجعلني أشاهد صورة «سيارة».

كان معه مجموعة كبيرة وجميلة ومتنوعة من الصور. وكان واضحًا أن أمه قد جمعها بغرض إسعاده، وتشكل مهاراته في الوقت ذاته.

أما الصور، فكانت : حيوانات غريبة مثل الدببة، الأسود، القردة .. إلخ. وهناك صور أخرى لطيور وحيوانات أليفة مما قد يسعد الطفل: أغنام، قطط، حمير، خيول، وأبقار. وما زال هناك بورتريهات لبيوت، وحيوانات، وكائنات حية. لكن المثير للغرابة، أن كل هذه المجموعة، لم يكن بينها صورّ - أو حتى صورة واحدة - لسيارة. قلت للطفل: «لم أر أية سيارة». نظر إلي ملتقطًا كارت، ثم قال بانتصار: «ها هي هنا!». في وسط الصورة يمكن رؤية كلب صيد، وفي ركن من الصورة يمكن رؤية خط قد يكون طريق، وفي هذا الطريق يمكن رؤية بقعة صغيرة

سوداء. أشار إليها الطفل بأصبعه وقال: «بام - بام». وفي الحقيقة، ورغم كونها صغيرة لدرجة - غالبًا - لا يمكن رؤيتها، استطعت رؤية النقطة الصغيرة وكنت قد تصرفت كافي لا أبالي. قلبت الصفحات وبدأت النظر في صورة أخرى. فجأة قال الطفل: «إنه نائم». مع هذا اللغز الطفلي المحير، سألت: «من النائم؟». أجاب الطفل بجدية: «يسوع يسوع نائم». وأومأ إليّ بإشارة لأعيد الصفحة حتى أرى بنفسى..

نظرت إلى الصورة مرة أخرى، ورأيت أنها تصوّر المسيح ينظر لأسفل، وتحت الأطفال وعيناه - بالتالي - كانت كالمغمضة، مثل شخص كان نائمًا. لقد انجذب انتباه الطفل إلى تفاصيل ما كان ليلحظها الكبير. واصلت شرحي للصور، وتوقفت أمام تلك التي تصوّر يسوع. قلت: «انظر.. بُعد يسوع إلى الأرض، والناس خائفون. انظر كيف يحرك الولد عينيه، وكيف تمد المرأة ذراعيها؟». وأدركت كم كنت غير موفقة في اختيار الصورة المناسبة، وكيف أن الشرح لم يكن ملائمًا لطفل. لكنني شغفت بتحقيقي من الاختلاف من رد فعل طفل صغير، وآخر كبير حيال هذه الصورة المعقدة. وقد أعطى انطباعًا ضئيلاً كأنه يقول «حسنًا، لكن استمري في قلب الصفحات وتغيرها». ولم يبد وجهه الصغير أيًا مما يدل على اهتمام.

بدأت في قلب الصفحات مرة ثانية، ورأيت يشب برأسه ويمد رقبتة في هيئة أرنب. بعد ذلك قال: «باني» إنه في حيرة بسبب

شيء صغير». ثم فجأة، عاد الطفل يحركني كي أعيد الصفحات السابقة. فعلت ذلك، ولاحظت أن هناك - فعلاً - أرنبا صغيرا موضوعا على جانب صورة «التجلي». من كان سيلاحظها؟. واضح أن الصغار والكبار في وضعين مختلفين من ناحية الرؤية العقلية الخارجية. لكن سؤال الكم أو درجة الاختلاف، ليس سهلاً.

بناءً على ذلك، فجهد الصغار لملاحظة الأشياء العادية (في عمر ثلاث أو أربع سنوات) يبدو كأنهم لم يروا شيئاً قبل ذلك. لكن، لابد أن نأخذ هذا التأثير ذاته، حين يصرخ طفل لطفل آخر ظناً منه أن الأخير طفل أصم. وبعد القيام بجهدٍ عظيم كي يسمعه، يسمع المعارض قائلاً «لكنني لست أصم أبداً!».

لقد اطمئن الكبار إلى كون الصغار حساسين - فقط - للأشياء المبهجة، والألوان البراقة، والأصوات العالية، وتعودوا أن يوفروها للأطفال بحسبانها كل ما يشد انتباههم. وكلنا لاحظنا كيف يجذب الأطفال للأغاني، ولأصوات الأجراس، ولتأرجح الأعلام في الريح، وللأضواء اللامعة البراقة وهكذا. لكن هذا الانجذاب العنيف، انجذابٌ خارجي ومؤقت، ويمكن أن يكون تسليّةً ولهواً، أكثر من كونه نعمةً أو هبة. وعلينا أن نجري مقارنة مع أسلوبنا في التصرف. إذا كنا مستغرقين في قراءة كتاب شائق، وفجأة سمعنا صوت فرقة موسيقية تمر في الشارع، فسوف ننهض ونضّي إلى النافذة لنرى ما يحدث. إذا ما رأينا أحداً يفعل هذا، فمن الصعب أن نخلص إلى أن الإنسان

ينجذب بشكل خاص إلى الأصوات المرتفعة. ومع ذلك، نستنتج هذا بالنسبة للأطفال الصغار.

الحقيقة بأن المثير الخارجي القوي، يخطف انتباه الطفل، إن هذا - تقريبًا - موقف عرضي طارئ، وليس حقيقة ثابتة علميًا. إذ ليس لذلك علاقة حقيقية بالحياة الداخلية للطفل المسئول عن نموه. ويمكننا أن نعي برهان ودليل حياة الطفل الداخلية، في الطريقة التي يستغرق بها تفكيره - كليةً - في أشياء دقيقة وصغيرة جدًا، مما لا يشغلنا نحن. لكن من ينجذب لأصغر الأشياء ويركز انتباهه عليها بهذه الدرجة، ليس لأنها تركت لديه انطباعًا مدهشًا، لكن - ببساطة - لأن استغراقه فيها، دليل على حبه للفهم.

بالنسبة للكبار، فإن عقل الطفل لغز لا يمكن سبر أغواره أو فهمه. إنه أمر مربك ومحير لهم. فهم يحكمون عليه من خلال تجلياته الخارجية وما يديه أمامهم، أكثر مما لديه من طاقات نفسية داخلية. علينا أن نحاول فهم أن هناك سببًا يدرك بالعقل فقط، وهو ما وراء نشاطات الطفل. إنه لا يفعل شيئًا دون سببٍ ما، محركٍ ما. من السهل القول أن كل رد فعل طفلي لا يتخطى كونه نزوة أو طيشًا، لكن هذه النزوة هي شيء أكثر من ذلك. إنها مشكلة لا بد من حلها، ولغز لا بد من إجابة له. ربما يصعب - في بعض الأوقات - العثور على الإجابة، لكن البحث عنها يمكن أن يتحول إلى متعة لا حدود لها. وإذا ما عثر الكبير على إجابة هذه الألغاز، فلا بد له من تبني اتجاه جديد نحو الطفل. وأن

يعمق إحساسه بالمسئولية تجاهه. عليه أن يصبح دارسًا، أكثر منه محررًا بلا تفكير، أو قاضٍ مستبد. عليه - فقط - أن يُغلب احترامه البالغ للطفل.

هنا، أستطيع أن أعيد مناقشة سيدات حول كتب الأطفال. كانت إحدى الأمهات الشابات تقول «هناك بعض كتب». وهي أم لطفل صغير عمره حوالي ثمانية عشر شهرًا، وكان بصحبته. ثم أضافت: «إنّ معي أحد هذه الكتب، وهو كتاب سخيف مليء بالصور الغريبة إنّه «سامبو الأسود الصغير». و«سامبو» هو ولد زنجي صغير، تلقى هدايا متنوعة من والديه في عيد ميلاده. منها: قبعة، حذاء، جوارب، وكرة صوفية براقة اللون. وبينما يعد والداه وجبة عشاء شهى احتفالاً بعيد ميلاده، رغب «سامبو» في التباهي بثيابه الجديدة، فغادر البيت دون أن يلحظه أحد. وفي الطريق التقى كثيرًا من الحيوانات البرية. وحتى يأمن شرورهم، كان عليه أن يعطي شيئًا لكل منهم. أعطى قبعته للزرافة، وحذاءه للفهد، وهكذا. وأخيرًا عاد إلى البيت عاريًا وباكيًا. لكن القصة تنتهي نهاية سعيدة. فوالداه يسامحانه، ويقدمان له عشاءً شهياً، كما يمكنكم أن تقرأوا في الصفحة الأخيرة من الكتاب.

ودارت السيدة بالكتاب حول الأخريات لرؤيته. لكن الصغير صاح فجأة: «لا - لولا». ودهش الجميع. إذ ما الذي يحاول الصغير قوله وهو مازال يردد: «لا - لولا»؟.

قالت أمه: «لولا هو اسم المربية التي تولت رعايته لبضعة أيام». لكن، بعد قليل بدأ ابنها الصغير في البكاء صائحاً: «لولا»، وبصوت أعلى، حتى بدا وكأنه يدخل في نوبة صراخ. أخيراً، قدمنا له الكتاب ليشاهده. وأشار إلى الصورة الأخيرة. لم تكن بداخل نص القصة، لكن على أحد جانبي الغلاف وتصور الطفل الزنجي المسكين وهو يبكي. بعدها فهمنا ماذا يعني بـ «لولا». إنها طريقته في نطق الكلمة الأسبانية التي معناها: «للوراء»، «إنه يبكي» ..!

والطفل كان محقاً. فهذا الغلاف يظهر «سامبو» باكياً، ولا يبدو هناك منظرًا سعيداً. ولم يلفت ذلك انتباه أحد. لقد كان اعتراض الطفل منطقيًا حين استمع إلى أمه وهي تقول: «كل شيء انتهى بسعادة».

واضح أن الطفل قد نظر - بامعان - إلى الكتاب مما لم تلاحظه أمه. ورأي في النهاية صورة «سامبو» وهو يبكي. وظلت هي ملاحظته، ولم يتمكن - بعدها - من متابعة حديث السيدات حول قدرته على التحديد الدقيق للالفت للنظر.

إن الشخصية النفسية للطفل مختلفة تمامًا عما نحن عليه. وهو اختلاف نوعي وليس كمياً سهل تحديده. فالطفل الذي يتعلق بأدق التفاصيل وأصغرها، ينظر إلينا بدرجة محددة من الازدراء، مادام لم يَعمِ التكوين العقلي الذي أصبحنا عليه الآن. تبعاً لذلك، سينظر إلينا ككائن عاجز - بصورة أو بأخرى - كأفراد لا يجيدون الرؤية. فمن وجهة

نظر الطفل، نحن لسنا مكتملين تمامًا. إنه ينظر إلينا كمتأثرين أغبياء،
مادمنا لسنا شغوفين بالتفاصيل الصغيرة. فإذا تمكن الطفل من التعبير
عن نفسه، فسوف يخبرنا - حتمًا - أنه وفي أعماقه، لا يثق فينا. تمامًا
مثلما لا يحظى منا إلا بثقة قليلة فيه، حيث تتفرق أساليب وطرق
تفكيرنا ليصبح كل منها غريبًا عن الآخر .. وهذا يفسر لماذا يخفق كل
من الصغير الطفل، والكبير البالغ، في فهم كلٍ منهما للآخر.

10 . معوقات النمو

(النوم)

يبدأ الصراع بين الطفل والكبير، عندما يصل الطفل مرحلة في نموه تمكنه من التصرف باستقلالية. بالطبع لا أحد يمكنه منع الطفل - تمامًا - من الرؤية أو من السمع. بهذا يصنع لنفسه اقتحامًا للعالم الخاص به لكن، عندما يبدأ الطفل في التصرف بنفسه: أن يمشي، أن يلمس أشياء متنوعة، فتلك قصة مختلفة تمامًا. ومع ذلك، فالمفترض أن الكبير يجب الطفل حقيقةً، لكن قوة الدفاع الفطرية تبدأ في الظهور بداخل الطفل. فحالتان نفسييتان - التي تنمو لدى الطفل، والموجودة لدى الكبير - تلتقيان وجهًا لوجه. ومن المستحيل كما يبدو - أن يعيشا معًا دون أن تحدث بعض صور ضبط التوافق. وليس صعبًا - أو هكذا يجب - أن تتم مثل هذه الضوابط لصالح الطفل. ويعتبر القانون الاجتماعي في مقدمة ذلك. فتصرفات الطفل غير المتناغمة مع بيئة الكبير، لا يمكن تبريرها أو قبولها، خصوصًا حين لا يكون الكبير

على وعي باتجاهه الدفاعي، لكن فقط هو يقتنع أنه يغفر لـحبه الكبير للطفل وحنوه عليه.

لكن هذا الدفاع اللاواعي عند الكبير، مختبئ في جزء منه، تحت قناع. إن جشع الكبير الذي يجعله يدافع عما يمتلك، يتخفى تحت «الواجب في تربية المرء لطفله». أما الخوف من تعطيل الأمان والطمأنينة، فيتخفى تحت «الحاجة لجعل الطفل ينام، هو فعل عظيم لحماية صحته».

امرأة غير متعلمة، ربما تدافع عن نفسها ضد طفلها بالصراخ، وإساءة المعاملة، والصفعات، وبطرده خارج المنزل والدفع به إلى الشارع. لكنها تعاود مثل هذه التصرفات مع ملاطفات ومحبة وقبلات حارة، وهو انعكاس لحب رقيق تختزنه - لاشك - لطفلها.

إن الشكلية المتأصلة في الطبقات الاجتماعية الأعلى، تقبل اتجاهات محددة. مثل الحب، التضحية، الإحساس بالمسؤولية، والتحكم الخارجي في الذات. ومع ذلك، فسيئات هذه الطبقات الراقية، أكثر استعدادًا للتحرر من إزعاج أطفالهن، من مثيلاتهن من الطبقة الاجتماعية الأدنى. فهن يعهدن بأطفالهن إلى مربية، قد تأخذ الأطفال في نزهة، أو تذهب بهم إلى الفراش حتى يناموا.

إن الصبر والإنسانية، وحتى الطاعة من قبل هؤلاء السيدات تجاه المربيات العاملات لديهن، هي مؤشر ضمنى لاستيعابهن أن المربية

ستتولى كل شيء، مادامت مسئولية أي مشاكل يسببها الطفل، واقعة على عاتق المربية.

وبصعوبة يتعلم الطفل الحركة، ثم يبدأ في الابتهاج بحريته الخاصة في ممارسة النشاط، على ألا يقابل بما يعيق ما حققه من كسب في الحركة والاندفاع. إن الطفل ليس في وضع يشبه اليهود الذين أخرجهم «موسى» من مصر. فبعد تيهيمهم في الصحراء، وبعد وصولهم إلى نقطة دخولهم واحة، ووجهوا بحرب. إن الذكرى الموجهة للمقاومة العدائية ضدهم، جعلتهم يهيمون في الصحراء فاقدى الهدف لمدة أربعين عامًا. وقد هلك كثيرٌ منهم بسبب الإجهاد والإرهاق.

إنه - غالبًا - قانون الطبيعة أن يحمي الإنسان ذاته من أي اعتداء أو انتهاك. وعبر الشعوب والأمم قد يتسبب هذا في عنفٍ منطرف. ويظل منبع غريزة الدفاع عن الذات، متخفيًا في أعماق عتبة تحت الوعي داخل الروح الإنسانية. إن أقدم صور هذه الظاهرة القاسية، وجدت في حماية الكبار لما يمتلكونه وللحفاظ على أمنهم وسلامتهم، من اقتحام الأجيال الجديدة. لكن وعلى الرغم من جهودهم لم يتوقف التعدي والانتهاك. يقاتلون من أجل حياتهم، وبقائهم.

إن هذا التنارع والنضال بين حب الوالدين وبراءة الطفل، يستمر دون وعي. فمن السهل على الكبير أن يقول: «على الطفل ألا يتحرك .. يجب ألا يلمس الأشياء التي لا تخصه .. يجب ألا يتكلم عن أو مع .. يجب أن يمتثل ويكون هادئًا .. يجب أن يأكل وينام .. يجب أن

يكون الآن خارج المنزل». كل هذا قد يحدث حتى بصحبة شخص ليس من أفراد العائلة، والذي لا يمتلك مشاعر حب خاص للطفل. ويرى الوالدان أن أسهل طريق لراحة أنفسهم، هو إرغام أطفالهم على النوم .. لكن من الذي يقرر أن الطفل يجب أن ينام؟

لكن، إذا كان الطفل متنبهاً وسريع الملاحظة، فإنه ليس «نائماً» بطبيعته الخاصة. إنه يحتاج، ولا بد أن يحصل على كم طبيعي من النوم. لكن لا بد من التفرقة بين ما هو مناسب ومن الاستمالة المصطنعة. إن الشخص الأقوى - خلال اقتراح - يلي إرادته على شخص آخر أضعف. والكبير الذي يجبر الطفل على النوم أكثر مما يحتاج الصغير، يرغمه - لا شعورياً - على الخضوع لإرادته، عبر قوة الاقتراح.

فالكبار سواء كانوا آباء متعلمين أو غير متعلمين، أو المربيات المنوط بهن رعاية الصغار الرضع، كلهم متآمرون على مصادرة هذه الحياة، على النشاط الحي أن ينام. وفي بيوت الأثرياء فإن الرضع، وحتى الأطفال في عمر الثانية أو الثالثة أو الرابعة، محكوم عليهم أن يناموا أكثر مما يجب، رغم أن هذا ليس هو الحال في الأسر الفقيرة. فأطفال تلك الأسر يلعبون ويجرون في الشوارع طيلة اليوم، ولا يرغمون على النوم لأنهم ليسوا مصدرًا لقلق أمهاتهم. وكقاعدة: فأطفال تلك الأسر الفقيرة أقل عصبية من أولئك القادمين من بيوت أكثر ثراءً. والسبب في ذلك قد يكون أن ما يحتاجه كطفل - حقيقةً - من ساعات للنوم، يتحقق فيما بعد (بعد عودتهم من الشوارع). وأذكر طفلاً في الثامنة من عمره، يثق في، أخبرني أنه لم ير - أبداً - النجوم في السماء. ذلك أن والديه

يجبرانه على النوم مبكرًا، قبل أن يكتمل الظلام. ثم قال لي: «أتمنى أن أذهب إلى قمة الجبل - في ليلة ما - وأمدد نفسي على الأرض، حتى أتمكن من رؤية النجوم». في المقابل، يتباهى كثير من الآباء بأن أطفالهم قد اعتادوا الذهاب - مبكرًا - للنوم، مما يمنح الوالدان أنفسهم حرية الخروج والسهر بعيدًا عن البيت..

حتى فراش الطفل يمكن أن يصبح مصدرًا للألم. فعلى النقيض من المهد الناعم الجميل لطفل رضيع، نجد الفراش الرحب الواسع لشخص كبير. ومهد الرضيع أشبه بالحقيبة الموضوعة عاليًا، حتى يتمكن والداه أو المربية من وضعه بداخله ودونما متاعب ومشاكل وقوفه والخوف من سقوطه على الأرض وما يسببه من أذى لنفسه. بل إن حجرة الرضيع - أيضًا - لابد أن تكون غارقة في ظلام لا يسمح لضوء يوم جديد أن يوقظه.

إن واحدًا من أعظم ما يمكن تقديمه للنمو النفسي للطفل، هو إعطاؤه فراشًا مناسبًا لحاجاته، يوقف استمراره في نوم أطول مما هو ضروري له. يجب أن يُسمح للطفل بالذهاب إلى النوم عندما يكون متعبًا، وأن يسير ويمشي عندما يكون مستريحًا، وأن يستيقظ عندما يريد. وهذا هو سبب افتراضنا بضرورة أن يتغير نمط تصميم مهد الرضيع الذي نراه - بالفعل - في كثير من العائلات. وبدلًا منه، يجب أن يتوافر للطفل سرير منخفض تمامًا ويقرب من الأرض، حيثما يتييسر له النوم، الرقاد، النهوض، الاستيقاظ، كيفما يشاء.

وكلل المساعدات الجديدة حياة الطفل النفسية، فإن السرير المنخفض اقتصادي في كلفته. فالطفل يحتاج أشياء بسيطة. بينما الأشياء المعقدة تكلف المئات، أكثر من كونها تساعد في نموه. وفي كثير من العائلات تم إعادة تشكيل عادات نوم الطفل عن طريق وضع حاشية على الأرض مغطاة بمفرش كبير. هكذا يستطيع الطفل بكامل إرادته ورغبته - أن يذهب لفراشه مبتهجا في المساء، ويستيقظ في الصباح، دونما إزعاج من أحد.

مثل هذه الأمثلة توضح كيف يخطئ الكبار في فرض إرادتهم على الصغار، وكيف يرهقون أنفسهم في رعاية أطفالهم. والحقيقة أنهم يسيرون ضد حاجات أطفالهم. إنها تستحث غرائزهم الدفاعية، التي يمكنها أن تظهر بسهولة.

من كل هذا، نستطيع القول أن على الكبير التوقف عن كبح حاجات الطفل. بينما يمكنه إشباعها بتوفير وتهيئة البيئة المناسبة له. بهذا - فقط - يمكن أن يبرز فجر جديد لتربية جديدة تحمل مساعدة حقيقية للبشرية جمعاء. على الكبير أن يتوقف عن التطلع للطفل كشيء يُترك ويحمل في صغره، ولا شيء سوى طاعة الكبار عندما يصبح طفلاً أكبر. على الكبار أن يقتنعوا أن دورهم ثانوي في نمو الطفل. يجب أن يجتهدوا في فهم الأطفال حتى يتمكنوا من مساعدتهم. ويجب أن يكون هذا هو هدف الأم ورغبتها، تماماً كوجوب ذلك على كل من يملك شيئاً يفعلُه لتربية طفل. وطبيعي أن يكون الطفل أضعف من الكبير. وإذا ما كان موجوداً لينمي شخصيته، فمن الضروري

أن يضع الكبير نفسه مكان الطفل ويتبع كيفية قيادته لنفسه أثناء عملية نموه. ساعتها، سوف يرى أنها خصوصية يمكنه تفهمها.

11 . المشي

إن خط التوصيل الذي يمكن للكبير أن يتبعه، هو إنكار مصلحته الخاصة، وبهذا يمكن التكيف مع حاجات طفل ينمو.

فالحيوانات الراقية تتصرّف بفطرتها - على هذا النحو، عندما تكيف نفسها وفقًا لحاجات صغارها. عندما تدفع أنثى الفيل بفيل صغير إلى قطع الكبار، فإنهم يبطئون خطواتهم الثقيلة تماشياً مع خطى الفيل الصغير. وعندما يبدأ في التعب والتوقف، يتوقفون جميعهم مثله.

ويوجد اعتبار مشابه في ثقافات مختلفة. فذات مرة، شاهدت أبا يابانياً وهو يصطحب ابنه الصغير ويسيران معاً. لاحظت - وأنا أتابعهما - أن الصغير الذي كان عمره حوالي العام ونصف أو العامين، قد وضع ذراعيه - فجأة - حول ساق والده. وظل الأب واقفاً وترك طفله يدور حول ساقه. وعندما فرغ من لعبته، عاود الاثنان - من جديد - سيرهما البطيء، معاً. وبعد قليل، جلس الطفل على حاجز حجري عند حافة الطريق، بينما ظل الأب واقفاً بجواره. كان وجه الأخير مرهقاً، لكنه

طبيعيّ تمامًا. إنه لم يفعل شيئًا استثنائيًا. إنه - ببساطة - أبّ أخذ ابنه الصغير في نزهة سيرًا على الأقدام.

هذا نوع من المشي مناسب تمامًا للأطفال الذين يتعلمون كيفية التناسق والتوافق الحركي بين حركات مختلفة. مما يتطلب توازنًا وتقدمًا في السير على قدميه.

وعلى الرغم من أن الإنسان لديه أطراف مثل تلك التي للحيوانات الأخرى، فعليه أن يمشي على اثنين بدلاً من أربعة. فللقرود أذرع طويلة جدًا تكون عونًا لها حين تسير على الأرض. لكن الإنسان حقيقةً - هو (الحيوان الوحيد) الذي يتحرك على قدميه الاثنتين في خطى متوازنة. وعندما تمشي ذوات الأربعة تتعاقب الحركة، فاليسرى تتقدم إلى الأمام، وواحدة تميل في اتجاه واثب عن الأرض، بينما تحتفظ بالاثنتين الآخرين على الأرض. بينما الإنسان - حين يمشي يثبت نفسه على قدم واحدة أولاً، ثم على الأخرى. وتتولى الطبيعة حل صعوبة اتزان الحركة، ولكن بطرق مختلفة. وبينما تتعلم الحيوانات المشي بالفطرة، فإن الإنسان يتعلم كيف يمشي خلال جهد إرادي شخصي.

وينمي الطفل قدرته على المشي، ليس بانتظار أن يأتي، بل بالمشي وممارسته. ثم تقابل خطواته الأولى بتلك البهجة العارمة من والديه، فهي غزو للطبيعة، ورسالة واضحة من العام الأول إلى العام الثاني. إن المشي بالنسبة للطفل، بمثابة ميلادٍ ثانٍ، حين يتحول من كائن لا حول له ولا قوة، إلى كائن نشط. ويشير نجاحه في هذه الجهود

إلى علامة نمو طفل طبيعي. لكنه يحتاج - بعد خطوته الأولى - إلى تمارين فورية. لأن تحقيق التوازن والثبات، يتأتى بالجهد الفردي. ويستمر الطفل بنبضة ساحرة أثناء محاولاته المشي. وحتى مع بعض التهور، فهو مملوء شجاعة في محاولاته تلك. إنه يشبه الجندي الذي يتطلع إلى النصر ويترقبه، دون النظر إلى المخاطر المحدقة به. لكن شغف الطفل بما هو مقدم عليه وإصراره على تحقيق الهدف، يدفع الوالدين إلى أن يحيطوا به كحصن أمان، مما يعتبر - بحق - معوقات في طريق الطفل. إنهم يحاولون - حتى بعد أن تقوى قدما الطفل - مراقبته والتحكم في كل خطوة يقدم عليها.

ثم يحمل الطفل ويوضع داخل هذه العربة الخفيفة الدائرية الشكل وكأنها سياج يحمي تحركه، يحدث هذا حتى بعد أن يصبح قادراً على المشي. لكن، مادامت قدماه قصيرتين، فهو لا يقوى على المشي لمسافات طويلة. وعليه أن يوائم نفسه مع الكبير الذي يرفض أن يدعه في سلام. وحتى عندما يعهد به الكبير إلى مربية، فإن الطفل هو من يجب عليه أن يتكيف معها، وليس العكس. فالمربية ستمشي بسرعتها هي كي تحقق هدف الخروج. وهي تدفع عربة الطفل وهو بداخلها، وكأنها عربة مملوءة بالخضروات. وعندما تصل إلى المنتزه، ساعتها فقط، تطلق سراح الطفل من العربة. تجلس هي وتسمح للطفل بالمشي فوق الحشائش وهي ترقبه عن كثب. كل هذا يتم فعله - ببساطة - حتى يُمنع عن الطفل أي حوادث محتملة. إن الرعاية تكون من نصيب نموه الجسمي، لكن ليست أبداً من أجل نموه النفسي الداخلي.

إن الطفل ما بين عمر العام والنصف وحتى العامين، يمكنه المشي مسافة أميال متعددة ويتحمل تلك الصعوبة المتمثلة في أشياء مثل: القفز فوق السلام، والسير على منحدر. لكنه يمتلك غرضًا خاصًا محددًا من المشي، يختلف عنا تمامًا. فالكبير يمشي بهدف خارجي، وبالتالي يمضي إليه مباشرة. إن له غاية ثابتة هي التي تدفعه - غالبًا - للسير آليًا. ومن ناحية أخرى: فالرضيع يمشي حتى يكتمل أداء وظائفه، وبالتالي فهدفه هو شيء ابتكاري يتخلق بداخل نفسه. إنه بطيء، لا يسير بإيقاع منتظم، ولا يوجه خطواته نحو هدف خارجي محدد. إنه يتحرك بانجذاب إلى الأشياء التي يراها - للتوّ - في نفسه. وإذا ما ساعد كبير مثل هذا الطفل، فعليه أن يترك له مسافة وأن يتركه ينهي الخطوة.

وفي «نابولي»، شاهدت زوجين يصطحبان طفلتهما، وكان عمره عامًا ونصف العام. وللوصول إلى الشاطئ أثناء الصيف، عليهما أن يقطعوا قرابة الميل أسفل طريق منحدر، مما يجعل من المستحيل السير فيه بسيارة أو قاطرة. وأراد الزوجان الشابان أن يصطحبا معها طفلتهما الصغير. لكنهما وجدا من الصعوبة أن يحملاه على ذراعيهما. لكن الصغير حل المشكلة فقد أخذ يمشي ويجري طوال الطريق. ثم يتوقف أمام بعض الزهور، أو يجلس على الحشائش، أو يقف لينظر إلى بعض الحيوانات. ثم يقف لمدة تصل إلى ربع الساعة يحملك في حمار يرح في حقل. فالحركة البطيئة على هذه الشاكلة، مكنت الطفل من قطع هذه المسافة الطويلة الصعبة - كل يوم - دون أي انزعاج.

ومع الاحترام لأنشطة مثل هذه، مازالت هناك سيدات يتحدثن عن تهور أطفالهن. ذات مرة حدثتني امرأة عن نوبات غضب ابنتها الصغيرة، التي بدأت في المشي منذ أيام قليلة. فكلما رأت سُلماً، بدأت في الصراخ. وكلما همَّ أحدُ برفعها أو إنزالها من السلم، غالباً ما تبدو مرتعدة خوفاً. وظننت والدتها أنها قد تكون أخطأت في استنتاج سبب غضب وصراخ ابنتها. ويبدو أنه من غير المعقول أن تخاف الطفلة وترتعد كلما حُمِلت صعوداً أو هبوطاً من سلام. واعتقدت الأم أن هذا الحلل والانزعاج يمكن إرجاعه - ببساطة - إلى حالة عرضية. لكن الواضح أن الطفلة الصغيرة أرادت تسلق السلم والنزول منها بنفسها. لقد كانت أكثر انجذاباً إلى الخطوات على شيء يمكنها أن تريح يديها عليه أو الجلوس فوقه، أكثر من حقلٍ مفتوح تدفن فيه قدميها داخل العشب، وحيث لا تجد شيئاً تستند إليه يديها. لكن، المكان الوحيد المسموح لها بالمشي فيه، هو تلك الحقول.

بطبيعة الحال، يريد الأطفال المشي والحركة حول سلام مفتوحة، لكنها حتماً ستتسبب في سقوطهم. ويختلف الحال مع طفلٍ من عائلة فقيرة يخرج إلى الشوارع ويعترض حركة المرور، أو يسرق الدراجات وثمار الحقول. أما طفل الطبقات الأرقى، فهو كسول، يعتمد على الآخرين، لا يتحرك خطوة دون رقابة مشددة. لكن، كل طفل له ما يساعده في بيئته. الطفل الفقير، متروك للكبير الخطير في بيئة الشوارع. الثاني محاط بكثير من الأشياء التي تعني بحمايته من الاخطار المؤذية في نفس المحيط الخارجي.

إن الطفل في طريقه لأن يصبح رجلاً، يكمل الجنس البشري، يشبه
المسيح المخلص من الخطايا مع هؤلاء الذين قال فيهم: «ليس هناك
مكان يدفن فيه رأسه».

12. اليد

من المثير ملاحظة أن هناك خطوتين من ثلاث خطوات مهمة ينظر إليها الإخصائيون النفسيون كحددٍ للنمو الطبيعي للطفل، مرتبطة بالحركة: إنهما تعلم كيفية المشي وكيفية الكلام. وهاتان الوظيفتان هما نوعٌ من التنبؤ بقراءة مستقبل الطفل. وفي الحقيقة، هذه الأنشطة المركبة تظهر أن الطفل قد حقق أول انتصاراته على وسائل الحركة والتعبير. لكن إذا كانت اللغة هي خصائص محددة للإنسان، كوسيلة للتعبير عن أفكاره، فإن المشي هو شيء يشترك فيه مع سائر الحيوانات الأخرى.

فالحيوان يختلف عن النبات في كونه «يتحرك في فراغ». وعندما تكون هذه الحركة مؤثرة من خلال أعضاء خاصة مثل الأطراف، فإن سلوك المشي يصبح خاصية أساسية. ومع ذلك - وبالرغم من كون المشي مؤشراً على قدرة الحركة لدى الإنسان، وأنها تسمح له باكتشاف الأرض كلها - فالمشي - في حد ذاته - ليس خاصية محددة لكائن زكي.

لذلك، فحركنا الجسم المرتبطتان بذكاء الإنسان هما: اللسان الذي يستخدم في الكلام، واليدان اللتان يستخدمهما في العمل. فقد استخدمهما الإنسان الأول في حمل الحجارة ورفعها وتقطيعها كأدواته الأولى التي استخدمها. والقدرة على استخدام الأدوات، هي علامات مرحلة جديدة في التاريخ البيولوجي للمخلوقات الحية، هنا فوق الأرض. فالكلام نفسه يصبح تسجيلًا لماضي الإنسان عندما تسجله يدان. ويصبح طرفاه العلويان أدوات ذكائه، أكثر من كونها وسائل حركة. وبسبب الاستخدام الذي صنعه الإنسان لأطرافه في خدمة ذكائه، احتل مرتبة أعلى من المخلوقات الأخرى - أيضًا - مما يشير إلى الوحدة الأساسية في طبيعته الإنسانية.

إن اليد الإنسانية غاية في الرقة، وأيضًا في التعقيد. ليس فقط لأنها تتبع العقل وتسمح له بالتعبير عن نفسه، بل لأنها قادرة على الدخول مع كل الأحياء في علاقة خاصة ببيئتها. حتى أننا يمكننا القول: «يأخذ وضعه في بيئته بواسطة يديه». إن يديه تتحركان تحت توجيه ذكائه حيث ينقل إليه تلك البيئة. وبذلك تمكنانه من أداء مهمته في العالم.

ويبدو منطقيًا أننا إذا أردنا تأكيد النمو العقلي لطفل، فعلينا الأخذ في الاعتبار «حركاته الذكية» منذ ظهورها في بدايته. لهذا؛ علينا دراسة كلامه، وكيفية استخدامه ليديه أثناء العمل.

ويدرك الناس - بالفطرة - أهمية هذين المظهرين الخارجيين للذكاء: وهما الكلام والتعبير الإنساني بالإيماءة. يدركهما كخصائص محددة

للجنس البشري. لكن ذلك يحترم - فقط - كرموز محددة تتصل بالحياة الاجتماعية للكبار. فعلى سبيل المثال: عندما يتزوج رجل وامرأة، يضان يديهما معاً «دليل المحبة والثقة». وعندما يكون الرجل بصدد خطبة امرأة، فإنه «يعطي وعداً»، أو «يعطي كلمته»، والمرأة «تطلب يدها». وعندما يؤخذ القسم يرفع المرء يده عند ترديد الكلمات. وتستخدم اليد كتعبير قوي عن مناصرة شخص ما. وقبل البدء في شعائر القداس. يقف المصلي أمام المذبح ويقول: «سوف أغسل يدي من الخطايا». وبعد أن يردد هذه الكلمات، فإنه فعلاً يغسل أصابعه، حتى إذا كان قد فعل ذلك قبل دخوله المذبح.

هذه الأمثلة التوضيحية تُظهر كيف يُنظر إلى اليد كتعبير عن الذات (الأنَا) الداخلية. وإذا كان ذلك كذلك، فأى شيء أكثر روعة وقدسية من النمو بداخل الطفل كتعبير عن «النشاط البشري». وهكذا، تبدو لمستَه الأولى وحركته الأولى ليده الصغيرة تجاه الأشياء الخارجية، حدثاً متربّحاً بشغفٍ وشوق.

إن الحركة الذكية الأولى لهاتين اليدين الرقيقتين، والعطش الأول لهذه الحركة التي تقدم الانا لتعرف العالم، ستملاً عقل الكبير بالدهشة والإعجاب. ومع ذلك، فهو يخشى من هاتين اليدين الرقيقتين أن تمتدّا إلى أشياء لا قيمة أو أهمية لها، لكن المهم هو أن يبعدها عن يدي الطفل خوفاً عليه. وفي الحال يقول «لا تلمس»! بمجرد أن يقولها، يعود ويكرر: «ابق هادئاً»!

وفي هذا التعلق، تكمن ظلال عتبة تحت الوعي، حيث يستدعي الكبير دفاعات تحت مسمى مساعدة الآخرين. كما لو كان يناضل سرًا- ضد قوة هاجمت راحته وممتلكاته.

لكن الطفل - في سبيل تنمية عقله - لابد أن يأخذ أشياء من بيئته، مما يمكنه سماعه أو رؤيته. وخلال عمل يديه، فهو يحتاج أشياء، بها يستطيع العمل ويهيئ الدافعية لنشاطه. لكن، داخل العائلة، يتم إهمال هذه الحاجة. إن الأشياء المحيطة بالطفل التي تخص الكبار تعتبر مقصورة على استخدامهم. وكلما زاد اهتمام الطفل بهذه الأشياء صارت محرمةً عليه. إن العامل الحاسم والعصيب في نموه هي أن يظل ثابتًا بعد أن يخبروه بعدم لمس أي شيء. وإذا نجح طفل في اختطاف أو التقاط شيء، يصبح مثل الجرو الصغير الذي وجد عظمة وجرى بها إلى ركن يختفي فيه ليقرض العظمة، وهو خائف من أن يأتي من يمنعه ويمسك به.

إن حركات الطفل لا تخضع للصدفة. فتحت إشراف وتوجيه الأنا لديه، يكون بنفسه التوافق الضروري للحركة المنظمة. وبعد محاولات لا تحصى بما يتخللها من خبرات، تنسق الأنا وتنظم وتهذب أعضاء التعبير مع نموه النفسي. لذلك، يجب أن يكون الطفل حرًا ليقرر وينفذ تصرفاته الخاصة. ومنذ دخول الطفل في قلب عملية استيعابه لنفسه، فإن حركاته تنسم بخصائص وسمات خاصة. لأنها - ببساطة - ليست وليدة الصدفة أو الومضات العشوائية. إن الطفل لا يجري ببساطة، أو يقفز، أو يتناول أشياء دونما هدف أو غرض

في نفسه. وهكذا يخلق الفوضى داخل المنزل. وحركاته البناءة تأخذ ملامحها من تصرفات الآخرين. إنه يتوق إلى تقليدهم في طريقة تناولهم أو استخدامهم للأشياء. فالصغير يحاول التصرف كما يفعل الكبير تجاهه، ويستخدم نفس الأشياء. وبالتالي، سيرتبط نشاطه بأسرته وبيئته الاجتماعية. إنه يرغب في فتح الباب، وغسل الأطباق أو الملابس، يصب الماء، يغتسل بنفسه، يمشط شعره، يرتدي ثيابه بنفسه، ... وهكذا.

هذه النزعة الطبيعية تسمى «المحاكاة». لكن المصطلح ليس مضبوطاً تماماً مادام يختلف - مثلاً - عن محاكاة تصرفات القرد. فحركات الطفل البنائية ذات بعد نفسي، وذات طبيعة ذكية. والمعرفة - دائماً - تولد الحركة. فمتى أراد الطفل أن يفعل شيئاً، فهو يعرف - مسبقاً - ما هو. إنه يرى الآخر يفعل شيئاً، ثم يتوق لفعل الشيء ذاته. وهذا حقيقي مع تعلمه كيف يتكلم. فالطفل يلتقط اللغة التي يتم الحديث إليه بواسطتها. إنه يحمل معه ذاكرة العالم التي سمعها من قبل. لكنه يستخدم الكلمة بنفسه، وفقاً لاحتياجات اللحظة الخاصة.

وفي استخدامه للكلمات، ليس الطفل كاللبغاء. إنه لا يحاكي ببساطة، لا يقلد صوتاً بل يوظف المعرفة التي حصلها وخزنها من قبل. لأن المحاكاة لدى الطفل ليست - أبداً - فعلاً آلياً بحتاً. وعلينا أن ندرك ذلك، ونحن نقدر نشاطات الطفل وعلاقاته بالكبار.

تصرفات أولية

قبل أن يتمكن الطفل من القيام بتصرفات منطقية الأداء، مثل التي يلاحظها من الكبار، يبدأ في التصرف لغاياته هو. وهنا يستخدم أشياء - غالبًا - تبدو غير مفهومة لمن هم أكبر منه. هذا يحدث في معظم الأحوال مع الأطفال من هم في عمر يتراوح بين عام ونصف، إلى ثلاثة أعوام. وذات مرة، رأيت طفلًا عمره ثمانية عشر شهرًا. وقد وجد كومات من الحديد موضوعة الواحدة فوق الأخرى. أخذ الصغير واحدة من هذه الكومات ورفعها بعناية فائقة ليذهب إلى ركن الحجرة ويضعها على الأرض وهو يقول «واحدة». ثم عاد من حيث أتى. المؤشر المؤكد أنه توجه بفعل حساسية خاصة. وبعد أن عبر الغرفة، أخذ كومة أخرى وسار بالطريقة نفسها ليضعها فوق سابقتها ويقول: «واحدة». وكرر ذلك حتى نقل جميع الكومات الصغيرة إلى هذا الركن الآخر. ثم عاد ليعكس العملية. أعادهم جميعًا - واحدة تلو الأخرى - إلى مكانها الأصلي. ومن حسن حظ الصغير أن أحدًا من أعضاء الأسرة، لم يكن موجودًا أثناء هذه المغامرة الطويلة. وكمن أطفالنا الصغار يسمعون - في حالة مماثلة - صياح الكبار: «توقف توقف! اترك ذلك وشأنه!» وكمن يحدث لهذه الأيدي الرقيقة الحساسة أن تضرب حتى تتعلم عدم لمس أي شيء!

مهمة أخرى «أولية»، هي أن الأطفال الصغار يأخذون سداة الزجاجاة، ينزعونها ثم يعيدونها، وخصوصًا إذا كانت تلك السداة

مصنوعة من الزجاج العاكس لألوان القوس قزح. وتبدو مهمة نزع السدادة ثم إعادتها، واحدة من أهم ما يشغلهم. نشاط آخر مفضل لدى الطفل: هو رفع وإعادة غطاء المحبرة أو الصندوق، أو حتى فتح وإغلاق باب المحبرة. ومفهوم جيدًا أن يحدث الصراع - تبعًا لذلك - بين طفلٍ وكبير، حول أشياء لها جاذبية طبيعية عند الصغار. لكنها - في الوقت ذاته - ممنوع لمسها مادامت تخص الأم أو الأب، أو كانت جزءًا من أثاث غرفة المعيشة. هذا الصراع قد يتسبب في حدوث نوبات غضب. لكن الطفل لا يريد - حقيقةً - زجاجة بعينها أو محبرة محددة؛ لأنه يصبح راضيًا مشبعًا مع أشياءه التي تمكنه من ممارسة الحركات ذاتها، وتكرارها.

هذه التصرفات الأولية وما يشابهها، والتي ليست لها غاية (خارجيًا) يمكن اعتبارها الجهود الأولى غير الفعالة لدى الإنسان العامل. إن بعض الخامات التي نبتكرها لكل الأطفال الصغار (كالأسطوانات المتدرجة والتي تصمم بشكل يناسب إدخالها في ثقب داخل كتلة خشبية)، قد أثبتت كفاءتها ونجاحها. ولابد أن يكون تصميمها لإشباع حاجات هذه المرحلة الخاصة من حياة الطفل.

إن الفكرة المثالية في ترك الطفل مع ذاته، يمكن الإصرار عليها والتشبث بها. لكن هناك معوقات متجذرة بعمق في عقل الكبير مما يُصعب تحقيق ذلك. إن الشخص الأكبر - حتى إذا أراد ضمان تحقيق رغبة الطفل وتركه حرًا في لمس وتحريك الأشياء - يجد نفسه لا

يستطيع مقاومة الومضات الغامضة بداخله، والتي تقوده إلى التحكم في الطفل.

لقد أرادت سيدة شابة - في نيويورك (وكانت مشهورة بتبني هذه الأفكار) أن تضع الكبار في تجربة. واختارت لذلك أمًا لطفل عمره عامين ونصف العام. رآته يومًا وهو يحمل إبريقًا مملوءًا بالماء. ولاحظت عليه التوتر والجهد الذي يبذله وهو يتحرك - ببطء - عبر الغرفة، مرددًا لنفسه: «كن حذرًا ! كن حذرًا !». لقد كان الإبريق ثقيلًا، وشعرت الأم برغبة في مساعدته. فحملت عنه الإبريق إلى حيث كان يمضي. لكن الطفل بدا حزينًا وغير راض. أدركت الأم أنها تسببت في معاناة الطفل. لكنها بررت تصرفها بالقول أنه كان مجهدًا. ويبدو أنه من الخطأ ترك الطفل يرهق نفسه، ثم يذهب الوقت سدى في عملٍ يمكن أن تنجزه الأم في دقيقة واحدة.

قالت المرأة: «أعلم أنني ارتكبت خطأ». وكانت تسألني نصحاء، وكنت متفهمة لمشكلتها الخاصة وهي «قلة احترام طفل»، وتتولد من الرغبة في حماية ما يمتلكه المرء. ثم سألتها: «هل تمتلكين بعض الأواني الصينية؟ كؤوس مثلاً؟ دعي طفلك يحمل واحدًا من هذه الأشياء الخفيفة وانتظري ما سيحدث». واتبعت السيدة نصيحتي، وأخبرتني - بعدها - أن ابنها قد حمل الكؤوس بحرص وتركيز، وهو يمشي بحذر حتى استطاع - في النهاية - أن يصل بهم ويضعهم في المكان المخصص لهم. أثناء ذلك، كانت أم الطفل مشتتة بين حالين: الأول شعورها بالغبطة والسرور بما يفعله ابنها، والثاني خوفها وقلقها على كؤوسها.

لكنها تركت طفلها يتم المهمة التي كان شغوفًا لإتمامها، والتي كانت ضرورية لنموه النفسي.

وفي مناسبة أخرى، وضعت ورقة جريدة بين يدي طفلة عمرها أربعة عشر شهرًا، وبالتالي يمكنها تمزيق هذه الورقة. وحيثما كانت تجلس، قطعتها إلى أجزاء صغيرة وكانت مبتهجة تمامًا بما تفعل. لكن أمها صعبت عليها الأمر حين أثب إليها بشيء آخر بدا غريبًا على احتياجات طفلة صغيرة.

إن الكبار غير المتفهمين لأهمية غريزة العمل عند الطفل يدهشون تمامًا حينما يبدي الصغير أول إنجازاته. ويرى الكبير أن عليه تقديم تضحية عظيمة أن يوفر شيئًا لشخصية الطفل ويئته المحيطة به. لكن هذا لا يتطابق مع نظام حياته الاجتماعية. ففي بيئة الكبير، يبدو الصغير كائنًا اجتماعيًا خارجيًا. ويتصور الكبير أن حمايته تتمثل في منع أي مؤثرات بيئية يتصورها الكبير مضرّة بصغيره. بينما الحقيقة، وكما يحدث اليوم، فهو يعوق نموه الاجتماعي والنفسي، (وكانه لا يسمح للطفل - مثلاً - أن يتعلم الكلام).

إن الحل المناسب لهذا الصراع، هو إيجاد وإعداد بيئة تلائم الطفل. بيئة يتمكن فيها من إظهار ميوله العالية. وعندما ينطق الطفل كلمته الأولى، فليس هناك حاجة لإعداد أي شيء خاص، حالما سُمع صوته كصوتٍ للمرح يغمر المنزل. لكن «العمل» الخاص باليدين الرقيقتين في ارتعاشتها الأولى لعمل الإنسان، يتطلب «حواجز النشاط»، مثلاً

في الأشياء التي تتوافق مع رغبته في العمل. وأحياناً يرى البعض أطفالاً يأتون بتصرفات تتطلب جهداً لا يتخيل المراقب لهم أنها ممكنة جسائياً. فلدي صورة فوتوغرافية لفتاة إنجليزية صغيرة تحمل قالباً كبيراً من الخبز، لدرجة أن ذراعها تحملانه بصعوبة. كانت الطفلة تحتضنه بشدة وتضمه لجسمها. واضطرت للسير وهي منشئة بجسمها إلى الخلف، حتى أنها لم تعد قادرة على رؤية موضع قدمها. وفي الصورة - أيضاً - يوجد كلب كان بصحبته ولا يتركها تغيب عن عينيه. لقد كانت متوترة وتبدو كما لو أنها تحاول رفع جسمها للأمام حتى لا تتعثر. في خلفية الصورة، يوجد كبار يرقبون الطفلة، وكانوا مضطرين لمنع أنفسهم من الاندفاع نحوها لحمل الخبز عنها.

أحياناً، ينمي الأطفال الصغار مهارة ويصقلونها - حال توافر البيئة المناسبة - ويترجمونها إلى عمل يدهشنا جميعاً.

13 . إيقاع

قد يصبح الكبير عائقًا لنمو الطفل، إذا كان لا يفهم أن الطفل يحتاج إلى استخدام يديه. وأيضًا إذا كان لا يدرك أن هذا هو الإظهار الأول لفطرة العمل. ولا يرجع ذلك - دائمًا - إلى الاتجاه الدفاعي الكامن في جزء من الكبير. فهناك - بالمثل - أسبابٌ أخرى: واحد منها، حقيقة مؤداها أن الكبير ينظر إلى النهاية الخارجية لتصرفاته ويحكم عليها وفقًا لرؤيته العقلية الخارجية. بالنسبة له، هناك نوع من القانون الطبيعي «قانون الحد الأدنى من الجهد». وهو يدفعه إلى توظيف أغلب المعاني المباشرة التي تمكنه من تحقيق هدفه في أقل وقت ممكن. وبالتالي، حين يرى طفلًا يبذل جهودًا عظيمة لتحقيق بعض الثمار الضئيلة من تصرف يستطيع هو إنجازها في التوّ، وعلى وجهٍ أفضل وأكمل، فإنه يتألم، ويحاول مساعدة الطفل.

بالنسبة للكبير، فإن حماسة الطفل لأشياء تافهة أو غير مفيدة، هي شيء غريب على نحو مضحك، وغير مفهومة حقًا. عندما يرى الطفل أو يلاحظ أن مفرش المائدة ليس موضوعًا كما يجب، يتذكر الكيفية

التي يجب أن يكون عليها، يحاول - بكل بساطة ودقة الأمر الداخلي - أن يفرد وينشره على المائدة بشكل مستو. بالنسبة للطفل في هذه المرحلة من نموه، هذا تصرف حقق به نصراً مبهجاً. لكنه لا يتمكن من هذا الإنجاز إلا بمعزل عن إعاقة جهوده وتدخل الكبار.

فإذا أراد طفل تمشيط شعره، يهاجم الكبير كينونته الرقيقة، بدلاً من الابتهاج بهذا الطموح النبيل. والكبير يعلم أن الطفل لا يستطيع تمشيط شعره جيداً وبسرعة، وبالتالي لن يحقق هدفه. بينما يمكنه هو أداء ذلك بسرعة وبصورة أفضل بالنسبة للطفل. بعد ذلك - وبينما ينجز الصغير مهمته بفرحة - يتدخل الكبير (الأكثر قوة وقدرة) ويأخذ المشط قائلاً أن عليه إتمام عملية التمشيط. والشيء نفسه يحدث، حين يرى الصغير وهو يجهد نفسه في محاولة ارتداء ثيابه، أو ربط حذائه. كل محاولة للطفل يتم التدخل فيها وإفسادها. إن الكبير يسخط ويثار، ليس فقط لأن الصغير يحاول - بإصرار - أن يتم عملاً، ولكن بسبب إيقاعه البطيء، وسلوكه المختلف عنه أثناء تصرف أو عمل شيء.

إن الإيقاع ليس مفهوماً قديماً يمكن تغييره حينما يشاء المرء. إنه خاصية جوهرية تميز الفرد - غالباً - مثل مظهر جسمه أو شكله. ونحن نسعد بالانضمام والاجتماع مع آخرين يتشابهون معنا في الإيقاع الحركي. بينما نعاني وتنالم حين نرغم على التكيف مع إيقاعات أخرى مختلفة.

على سبيل المثال: إذا كان علينا السير مع شخص مصاب بشلل جزئي، نشعر بنوع من الكرب. وإذا رأينا آخر يحمل كوباً يرفعه إلى شفثيه مع تحريك بطيء ليده، نتألم للفرق الحاد بين حركته هو، وحركة يدنا الحرة تمامًا في التصرف. إننا نرغب في تحرير ذواتنا من الصراع الداخلي، فنهرع إلى مساعدة الطفل، حتى لا نعاني من إيقاعه البطيء المختلف تمامًا عن إيقاعنا نحن.

وقد تبدو تصرفات الكبير أشبه باحترام الطفل. فبلا وعي، يحول دون ممارسة الصغير لطبيعته البطيئة في الحركة ومعاناته أثناء ذلك. وهو يرغب في إزاحة تلك المضايقة عن الصغير، تمامًا مثلما يصرف فراشة أو يبعدها.

من ناحية أخرى، يستطيع الكبير أن يجاري حركات الطفل، إذا ما اشتركا في فعل يتم أدائه بسرعة إيقاع واحدة. إنه مستعد أن يتواءم مع الفوضى والتشوش التي يخلقها الطفل المفعم بالحياة. هنا يستطيع الكبير أن «يتذرع بالصبر»، مادام يلاحظ شيئاً واضحاً تماماً ويمكنه فهمه وتفهمه. لكن، عندما يتحرك الطفل ببطء، يشعر الكبير برغبة جامحة في التدخل لتبديل نشاط الطفل الخاص به هو. لكن هذا التدخل، وبدلاً من مساعدة الصغير، والصبر على تصرفاته التي يجب الطفل القيام بها بنفسه تلبية لحاجاته النفسية، يمنع عنه كل ذلك. إنه يمنع الصغير من التصرف - بحرية - ويجعل من نفسه أخطر عائق أمام النمو الطبيعي للطفل.

إن صراخ الطفل «المتقلب المزاج» الذي لا يرغب في الاغتسال، أو ارتداء ثيابه، أو أن يمشط له أحد شعره، يكشف عن النضال الدراماتيكي، الذي يصاحبه أثناء جهوده كي ينمو ويكتمل. من يتخيل أن المساعدة التي لا يحتاجها الطفل - لكنه يتلقاها - هي أول أنواع «الكبت» التي يمر بها كخبرة مؤثرة عليه في حياته اللاحقة؟

إن اليابانيين - كجزء من طقوس تجرى للميت - يضعون عددًا من الأحجار الصغيرة، وما يشابهها من أشياء، على مقابر الأطفال. فالأحجار التي يضعها الوالدان على مقبرة الطفل، تساعد على إعادة بناء لعبة القلاع التي كان يصنعها، والتي كانت تسقط بواسطة الأرواح الشريرة. هذا المفهوم عن خبرات الطفل الميت المؤلمة، هو أحد أكثر الأمثلة إيلامًا لما نستشعره - في عتبة تحت الوعي - تجاه الحياة الأخرى (أو ما بعد الموت - الآخرة).

14 . استبدال الشخصية

يستطيع الكبير أن يبدل نفسه من أجل طفل، بأن يتصرف نيابة عنه، أو بأن يقحم إرادته هو بدلاً من إرادة الطفل. حين يحدث هذا، فلا يمضي وقت طويل حتى تصير تصرفات الصغير، هي عمل الكبير من خلال الطفل.

في معهده الشهير للطب النفسي، أوضح «كاركوت» - من خلال التنويم المغناطيسي - أن الإحلال أو الاستبدال، يصنع في شخصيات الأفراد، موضوعاً للهستيريا. وقد نتج عن ذلك النبأ، ضجيج مدو في الأوساط العلمية. لقد كانت تجاربه بمثابة هدم لكل الملاحظات الإنسانية والتي كان مؤداها أن الإنسان هو سيد تصرفاته الخاصة. لكن «كاركوت» أثبت بالتجربة - أن مثل هذا الافتراض القوي يمكنه أن يتأكد من خلال فقد الشخص لمعالم شخصيته الحقيقية (كما يتصرف أثناء التنويم المغناطيسي).

هذه التجارب، رغم محدوديتها في عدد الحالات ورغم إجراءاتها داخل عيادة، إلا أنها فتحت الطريق لدراسات واكتشافات جديدة. ومنها

تلك التي تعاملت مع حالات فصام الشخصية، وحالات عتبة تحت الوعي، وحالات التسامي النفسية.

عندما يبدأ الصغير - في مرحلة الطفولة - في الوعي بذاته وبحواسه، تكون جميعها في حالة من الابتكار، ويكون هو موضوعًا للإيجاء. خلال هذا الوقت، يمكن للكبير أن يتسلل بنفسه إلى داخل الطفل، ويقوي إرادته، ويصبح قادرًا على التحرك من خلال الطفل بأفعاله.

وفي مدارسنا، لاحظنا أننا إذا أرينا الطفل كيف يعمل شيئًا بدقة متناهية أو بحركات مبالغ فيها، فإن طاقة الطفل وقدرته على التفكير والحكم - بنفسه - سوف يتم كبها أو كبها. ويمكن القول أن أي نشاط يتم منفصلًا عن ذات الطفل (الأنأ) التي يجب أن تطلب منه ذلك، لا ينتهي إليه. حيث يتم هذا النشاط بواسطة ذات (أنأ) أخرى، أقوى من «أنأ» الطفل، لكنها لا تمت له بصلة. هذه الأنأ الغريبة، تلك القوة التي تسلب من الطفل المعاني الرقيقة للنشاط الخاص به. وكقاعدة: فالكبير لا يعتمد فعل هذا، لكنه - خلال تغييب وعيه الافتراضي يتمكن من الهيمنة عليه، دون ما رغبة من الكبير في ذلك. أو حتى إذا ما عرف الكبير ما يقوم به، فلن يقلع عنه، حتى لو أدرك التأثير المستقبلي لهذا التدخل على حياة الطفل النفسية وعلى شخصيته.

وهناك بعض الأمثلة التي تؤكد ما سبق. وقد قمت برصدها، ربما من باب الاهتمام: ذات مرة، شاهدت طفلًا في الثانية من عمره يضع زوجًا من الأحذية القذرة فوق مفرش السرير الأبيض. لا إرادياً،

وبدون تفكير، أخذت الحذاء ونَحِيته في أحد أركان الغرفة، وقلت: «إنها قدرة». ثم سحبت غطاء السرير ونفضته بيدي بعد هذه الواقعة، كلما رأى الصغير زوجًا من الأحذية، يجري ناحيتها صائحًا: «إنها قدرة». ثم يذهب نحو الفراش ويمرّ يده فوقه كأنه ينظفه. يحدث ذلك حتى إذا لم تكن الأحذية بالقرب - أصلاً - من الفراش.

وهذا مثال آخر: تلقت سيدة شابة ذات يوم لفافة داخل صندوق. وعبرت عن فرحتها وسعادتها بتلك الهدية ففتحتها، ووجدت بداخل الصندوق منديلًا حريريًا. أعطته لابنتها الصغيرة، ثم أخذت تصدر - بشفتيها - صوتًا كالصغير، تعبيرًا عن إعجابها. صاحت الطفلة بسعادة غامرة: «موسيقى». ولمدة متتالية بعد هذا اليوم، كلما لمست الطفلة قطعة قماش، فإنها تصفر وتصيح: «موسيقى»!

إن قوانين الحظر - الكامنة في جزء من الكبار - حينها لا تكون لافتة للنظر ولا تنهي عن رد فعل الصغار، يمكنها - بسهولة - أن تكبح نشاطهم. هذا التدخل الكاخر يتولد بشكل أكبر من تربية الكبار وتعليمهم وقدرتهم على التحكم في النفس، وبشكل خاص من آثار الممرضات. وهناك حالة طريفة لطفلة في العام الرابع من عمرها، كانت تعيش مع جدتها في أطراف المدينة. وكان واضحًا أن الصغيرة تريد فتح النافورة في حديقة المنزل، لترى الماء وهو يتدفق. لكن، حين بلغت لحظة التنفيذ، سحبت يدها وتوقفت. شجعته جدتها على فتح الصنبور، لكن الفتاة أجابت «لا .. إن مريتي لا تحب ذلك». وقد شجعته الجدة مرة أخرى وطمأنتها بأنها أعطتها الإذن لتفعل ذلك.

ابتسمت الطفلة في فرح ورضا، وهي تفكر في منظر اندفاع الماء. مدت يدها، ثم - مرة أخرى - سحبتها دون أن تفتح الصنبور. إن أمر المربية الغائبة، كان أقوى من دعوة جدة الصغيرة التي كانت إلى جانبها وستحقق رغبتها.

حالة أخرى مشابهة، حدثت مع طفل أكبر عمراً: كان طفلاً في السابعة من عمره. وحين كان جالساً، رأى - على بعد مسافة - شيئاً جذب انتباهه. وقد هم بالنهوض ليرى هذا الشيء، لكنه عاد ثانية إلى الجلوس. كان يبدو متذبذباً مرتعشاً وكان إرادته قد فُقدت منه. من كان «السيد؟» من أوقف خطوه؟ لا أحد يعرف. حتى الذكرى غابت عن عقل الطفل.

حب من أجل البيئة

إن قابلية الطفل للإيحاء يمكن فهمها كتضخيم للحساسية الداخلية، التي يساعدها نموه النفسي، والتي يمكن تسميتها بـ «حب البيئة». إن الطفل ملاحظ شغوف، ومشدود - بشكل خاص - إلى تصرفات الكبار، ويريد محاكاتهم. في هذا التطلع والمراقبة، يمكن للكبير أن يأخذ على عاتقه نوعاً من المهمة. أن يصبح ملهماً لتصرفات الطفل، وكتاباً مفتوحاً حيث يمكن للطفل أن يتعلم كيف يقود حركاته ويوجهها. لكن، إذا صار الكبير هو المرشد المتوقع، فعليه أن يتحلى - دائماً - بالهدوء، وأن يتصرف ببطء، حتى يتمكن الطفل الذي يرقبه، من رؤية تصرفاته بكل خصوصياتها.

لكن، إذا لم يفعل الكبير هذا، وفرض ميوله - هو - الطبيعية، فبدلاً من مساعدة إلهام الطفل وبنائه، ستُلزم روح الطفل بإيقاعات الكبير المتسارعة. وبهذا، وبقوة الإيحاء، يتم إحلال الكبير في داخل الطفل.

وحتى الأشياء الحساسة - إذا كانت جذابة - يمكن أن تكتسب قوة وتدخل إيجابياً على الطفل وأنشطته المتنوعة، تماماً مثل قوة المغناطيس. وهناك فيلم لتجربة نفسية مثيرة، سجله البروفيسور «ليفين»، يوضح هذه الفكرة: كان موضوع تجربته هو توضيح ردود الأفعال المختلفة حيال الأشياء ذاتها، وقد أجريت في واحدة من مدارسنا. وتم تطبيقها على مجموعتين من الأطفال، إحداها معوقة والآخرى سوية. وكل من المجموعتين كانت في العمر نفسه، ومن خلفيات بيئية متماثلة، بشكل عام. وضعت منصدة ضخمة مغطاة بأشياء عديدة مختلفة. وأدخلنا عليها بعض المواد والخامات الصالحة لاستخدام الأطفال.

وفي الفيلم، شوهد الأطفال يأتون إلى الحجرة. كانوا مهتمين منسغلين ومنجذبين إلى الأشياء المتنوعة التي جاءت قبلهم. كانوا مفعمين بالحيوية، وابتساماتهم تشير إلى سعادتهم وهم في وسط تلك الأشياء الكثيرة المختلفة. كل طفل منهم يأخذ شيئاً ويجلس للعمل. ثم يُنحى شيء جانبا، ويأخذ شيئاً آخر، ويكرر هذا .. متنقلاً من نشاطٍ لآخر.

بعد مشاهدة هذا الجزء من الفيلم، شوهدت مجموعة أخرى من الأطفال تدخل الحجرة. إنهم يتحركون ببطء، يتوقفون، ثم ينظرون

حولهم. وبالكاد، يتناولون الأشياء وهم يتلفتون حولهم، ثم يقفون بلا نشاط. كان هذا هو الجزء الثاني من الصورة التي توقفت عندها الفيلم. من كان من المجموعتين معاقًا ومن كان سويًا ؟ إن الأطفال المعاقين هم الأسعد، الأكثر حيوية، الذين تحركوا بنشاط واضح، المتنقلون من نشاط لآخر ومن شيء لغيره، ويلعبون بكل الأشياء. وكانوا - بالنسبة لمن شاهد الفيلم - يقدمون انطباعًا بأنهم الأكثر ذكاءً.

لكن حقيقة - فقد تحرك الأطفال الأسوياء بهدوء وروية. وفي الفيلم، كنا نشاهدهم واقفين لفترة طويلة، يركزون اهتمامهم وتفكيرهم في كل شيء على حدة. إنهم يبرهنون - بطريقة مذهشة - أن الهدوء والحركة المحسوبة، تحدث لاعتبارات فكرية وعقلية. وهي علامة تميز الطفل السوي.

وقد حظيت تجربة البروفيسور «ليفين» بقبول ملحوظ وعام. ففي البيئة العادية، سيتصرف الأطفال الأذكاء مثل الأطفال المعاقين، كما رأينا في الفيلم. إن الطفل السوي في مدارسنا شيء جديد. إنه بطيء، لكن حركاته تحت السيطرة بواسطة «الأنا» ومسترشدة بسبب معقول. مثل هذا الطفل يثار بواسطة الأشياء التي يراها. لكنه يسيطر على انطباعاته، وبالتالي يحسن استخدام هذه الأشياء. وما تم تسجيله ورصده هو تحكم في النفس ونشاط غير عشوائي. فمن المهم أن يشير الطفل ويتسيد حركة أعضائه، ولا يتحرك بسهولة اندفاعًا لسلوك، أي سلوك. وحسب.

إن القدرة على الحركة بتوجيه من العقل، وليس بمجرد استجابة لمثير حساس، تقود إلى التركيز. وهذا الانكباب - من العقل والنشاط على شيء مفرد، هو ظاهرة لعضو داخلي.

وكذلك القدرة على تحريك الشخص لنفسه بروية وتفكر، هي بالفعل - سلوك طبيعي للفرد. إنها علامة على نظام داخلي يكشف عن نفسه من خلال سلوك أو تصرف خارجي منظم. وعندما يضعف هذا النظام الداخلي، يمكن لنشاط الفرد أن يغيب تحكمه الشخصي ويتم توجيهه بواسطة إرادة شخص آخر. أو أن يصبح فريسة سهلة للتدخلات الخارجية، تمامًا مثل سفينة تحت رحمة التيارات والرياح.

إن إرادة الآخر، تنتج تصرفات منظمة ملتزمة بصعوبة بالغة مادام ذلك التدخل الخارجي لا يتكرر التنظيم الضروري لمثل هذا النشاط. وعندما يحدث التدخل، يمكننا القول أن شخصية الفرد قد تم فصمها أو شقها. عندما يحدث هذا للطفل، يفقد فرصته للنمو على النحو الطبيعي المفترض. هذا الطفل يجب أن يقارن برجل تم إسقاطه - بواسطة اللون - في صحراء. والذي يفاجأ ببالونه تطيره الريح، تاركة إياه وحيداً. لقد فقده، ولم يعد يرى شيئاً لديه، يمكن أن يحل مكانه. هذه صورة لما يمكن حدوثه لإنسان - كالطفل مثلاً - عليه أن يتبارى مع الكبار. فعقله مظلم وغير نام، ووسائله في التعبير مشوشة، وهو كما سبقت الإشارة - فريسة سهلة للمحيط الخارجي.

15 . الحركة

لا بد من التأكيد على أهمية النشاط الجسمي أو الحركة، في النمو النفسي. ومن الخطأ الجسم أن تدرج الحركة بين الوظائف المتنوعة للجسم دونما تمييز كافٍ بينها وبين تلك التي تساعد على استمرار الحياة وإنماءها مثل امتصاص الطعام، أو التنفس وما إلى ذلك. عملياً، تعتبر الحركة كمساعد للوظائف الطبيعية للجسم في التنفس، والهضم، والدورة الدموية.

والحركة رغم كونها خاصية للحيوانات، فهي تدخل - أيضاً - في إنماء الحياة البشرية. فنحن - غالباً - نقول أنها شيء يسبق، ويصحب، ويعقب كل الأنشطة الجسمية. لهذا، من الخطأ أن تُدرك الحركة من وجهة نظر جسمية فقط. ويمكننا رؤية الفوائد المترتبة على الارتباط الحركي في الرياضيات المتعددة. هذه الأنشطة الجسمية لا ترجع فقط - إلى الصحة الجسمية، بل تتفجر - أيضاً - من الشجاعة والثقة بالنفس. وهما كذلك يولدان النمو الأخلاقي والارتقاء المثالي للفرد. وتنفوق الأداء الحركي، بسبب صيحات الإعجاب التي نراها ونسمعها

بين المشاهدين للمباريات الرياضية. وهذه التأثيرات النفسية، أرقى مستوى من النظام الجسمي البحث (بدون مهارات حركية).

ينمو الطفل من خلال جهد شخصي وارتباطه بعمل لهذا، فمونه يعتمد على العوامل النفسية، تمامًا مثلما يعتمد على العوامل الجسمية. ومن المهم للغاية، أن يكون الطفل قادرًا على ترديد الانطباعات التي يستقبلها. وكذلك قادرًا على الاحتفاظ بها واضحة ومميزة. ويحدث ذلك مادامت «الأنا» قامت ببناء نفسها وذكائها عبر قوة الانطباعات الحساسة التي تم استقبالها. وهي تتولد خلال هذا الجهد الداخلي الخفي الذي ينمي عقل الطفل. وفي التحليل الأخير: العقل هو ما يميز الإنسان عن الكائنات الأدنى. الإنسان هو من يمكنه إصدار الأحكام العقلية، ثم - من خلال فعل الإرادة - يقرر أسلوبه المتميز في التصرف. يتبنى الكبار اتجاهًا مؤداه أنهم يستطيعون انتظار نمو عقل الطفل، بمرور الوقت. ولا يحاولون مساعدته، بل يسعون إلى فرض عملياتهم العقلية - بتقدمها - على النمو العقلي للطفل. ويحدث ذلك - بشكل خاص - حين ترعجهم حركات الأطفال ونشاطهم. لكن - وكما رأينا الحركة لها أهمية بالغة بالنسبة للطفل. إنها التجسيد الوظيفي للطاقة الخلاقة التي تحمل الإنسان إلى اكتمال جنسه البشري. فخلال الحركة، يتصرف ويتعامل مع بيئته الخارجية. وهكذا، يؤدي مهمته الخاصة في العالم. الحركة ليست فقط انطباعًا «للأنا»، لكنها عامل حاسم في نمو الوعي. فهي المعاني الحقيقية الوحيدة التي تضع «الأنا» في علاقة واضحة محددة مع الواقع الخارجي. الحركة، أو النشاط الجسمي، عامل أساسي

في النمو العقلي، الذي يعتمد على ما يستقبله من انطباعات عن الخارج. وخلال الحركة، يتم اتصالنا بالواقع الخارجي، وعبر هذا الاتصال ندرك، حتى الأفكار المجردة. والنشاط الجسمي يصل الروح ويربطها بالعالم. لكن الروح تحتاج الفعل والتصرف على نحو حسي مضاعف، تحتاج اكتساب المفهومات والتعبير عن نفسها خارجيًا. الحركة، أو النشاط الجسمي، يمكن أن تكون معقدة تمامًا. عضلات الإنسان متعددة جدًا لدرجة لا تمكنه من استخدامها جميعًا. ويمكننا القول أن الإنسان يختزن دائمًا أعضاء لا يستخدمها. والاستخدام الذي يختاره الإنسان لعضلاته، يؤثر على شخصيته، ومثال ذلك: راقص الباليه الذي يوظف عضلات لا يستخدمها غيره ممن لا يمارسون هذا الرقص.

وعلى كل فرد أن يمارس التمرينات الضرورية التي تستلزمها صحة عضلاته ولياقته البدنية. وعندها، يصبح ممكنًا أن ينمي الناس عضلات معينة لأنشطة متخصصة. لكن - وبوجه عام - إذا لم يتم استخدام العضلات بكفاءة، فستتعطل طاقات الفرد الحيوية.

وإذا صارت العضلات - المفترض أنها تعمل بشكل طبيعي - معطلة وفي حالة سكون، فلن يصبح هناك خلل جسدي فقط، بل اكتئاب نفسي أيضًا. وهذا يفسر كيف يؤثر الفعل والحركة في طاقات الفرد الروحية.

إن المعرفة حول الاتصال المباشر والصلة القوية التي تمتد بين النشاط الجسمي والإرادة، تجعلنا نُقدّر أهمية الحافز الجسمي. إن كل الوظائف

الحوية المتنوعة للكائن الحي، ورغم اتصالها بالجهاز العصبي، تعتمد على الإرادة. فكل عضو في الفرد، له وظيفة معينة يؤديها في شكل محدد.

وتقوم الخلايا والأنسجة المختلفة، بأداء مهامها الخاصة. إنها تشبه الإخصائيين الذين يؤدون - بمهارة - أعمالهم المتخصصة، لكن لا حيلة لهم في أداء شيء خارج عن معرفتهم وتخصصهم. إن الفارق الأساسي بين هذه الخلايا والأنسجة وبين العضلات، تعود إلى حقيقة مؤاذاها، أن الخلايا التي تقدم للعضلات عملها الخاص بها، لا تتصرف تلقائيًا، بل تحتاج إلى توافر أنظمة، والتي بدونها لا يمكن للخلية أداء أي عمل. فهي تشبه الجنود الذين لا يعملون بدون أوامر الضباط الأعلى رتبة.

إن الخلايا لا تحتاج مرشدًا خارجيًا، حيث لها سائلها أو لعابها الخاص السري. وهي تأخذ الأوكسجين، وتصارع الجراثيم، وتعمل دون انقطاع أو كلل. إنها تصون صحة كل الكائنات، تمامًا مثلما يسهم جهد كل الافراد العاملين، في رفاهية المجتمع وصالحه. وتكيفها مع مهام محددة، شيء ضروري جدًا لتحقيق كل الوظائف العضوية.

وفي مقابل هذا النشاط المكتمل لهذه الخلايا والأنسجة، فإن عضلات الفرد لابد لها من الحرية والسرعة حتى تستجيب لكل أمر تصدره الإرادة. فخلال التمرينات الشاقة والتدريبات، لابد من طاعة فورية للرغبات الإرادية. وهنا فقط يمكن لمجموعات العضلات المتنوعة - التي تعمل معًا - أن تنفذ أمر الوظيفة كما ينبغي. وتنفيذ ما تطلبه الإرادة، قد يلزم جسم الشخص بأداء أفعال وإعادة تركيبها بقدر كبير

من التعقيد. ويمكننا مساعدة الطفل في محاولاته أن يضع إرادته داخل تصرف، حيث يتم ذلك من خلال إدراك الإرادة لنفسها أثناء الحركة. وهناك رغبة طبيعية لدى الطفل، أن يسيطر الاستخدام الإرادي لأعضائه المسئولة عن الحركة ويتحكم فيها. وإذا أخفق في فعل هذا، لن يتمكن من جني ثمار ذكائه. الإرادة - إذن - ليست مجرد أداة تنفيذ، بل هي جوهرية في إحداث النمو النفسي.

وفي مدارسنا وجدنا شيئاً مدهشاً ولم يكن متوقعاً. إنه حب الأطفال واجتهادهم وأداؤهم لكل المهام بكل رغبة وبكامل إرادتهم. إن الطفل الحر - تماماً - في البحث عن انطباعات خارجية حساسة يستمدّها من بيئته، يبدي حباً شديداً واجتهاداً متواصلًا في أداء تصرفاته وإنجاز عمله. إن روحه تبدو كن يتوقف - مؤقتًا - عن العمل، حين تمتد فيما بين وجوده ووعيه بذاته. فالطفل مكتشف وهو إنسان لم يتبلور بعد.. إنه كائن مدهش في البحث عن التكوين الملائم.

16 . ضحالة الفهم

حيثما لم يكن للكبار مفهوم واضح حول أهمية النشاط الجسمي للطفل، فسيثبطون من عزيمته، وبالتالي، يتسببون في الخلل الذي قد يصيب الطفل.

وحتى العلماء والتربويون، أخفقوا في ملاحظة الأهمية البالغة للحركة، في النمو البشري. وإذا كانت كلمة «حيوان» ترتبط - ببساطة - بمعنى النشاط، وإذا كان الفرق بين الحيوان والنبات أن الأخير يضرب بجذوره في عمق الأرض، بينما يستطيع الحيوان أن يتحرك، إذا كان ذلك كذلك، فلم نتمنى كبح نشاط الطفل وحركاته؟.

يردد الكبار - بلا تفكير - أن «الطفل نبات زهرة»، مما يعني «يجب أن يكون هادئاً». أو القول: «إن هذا الطفل ملاك» .. لكنه كائن لابد من أن يتحرك، هذه حقيقة، لكنها حقيقة خارج عالم يفسده الكبار.

ويجمع الكل على أهمية الأعضاء الحسية في النمو العقلي. فمن الواضح - مع شخص لا يسمع أو لا يبصر - أنه لن يصل إلى النضج العقلي

المكتمل حيث السمع والإبصار، بوابات العقل. إن الصمم وكف البصر، عوائقان يحولان دون اكتمال الصحة الجسمية. لكن - وفي المقابل - من الخطأ أن نعتقد في تحصيل الطفل لمستوى راقٍ من السلوك والثقافة، لمجرد امتلاكه حواس قوية تسمع وترى.

خلافًا لكل ذلك، ليس سهلاً تحقيق اتفاق حول فكرة أن النشاط الجسمي هو الأكثر أهمية في تكوّن أخلاق الفرد ونموه العقلي. لكن، إذا فشل الطفل - أثناء نموه - في استخدام أعضاء الحركة، فسيختلف نموه ويتأخر. كذلك لن يحقق هدفه بالسرعة التي ينجز بها، حال استخدام الرؤية والسمع، مثلاً.

ومن يُعان من السمّة المفرطة، يُقاس آلاماً أكثر عمقاً من كيف البصر أو الأصم أو الأبكم. فعلى الرغم من أن كف البصر أو الصمم يحرمهم من التواصل مع المحيط الخارجي، إلا أن حدة بقية الحواس تتمكّن - ولو جزئياً - من تعويض هذا النقص. بينما النشاط الحركي الجسمي - من ناحية أخرى - ملتصق تماماً بشخصية الفرد، ولا بديل عنه. ويؤذي نفسه من يخفق في مراعاة ذلك. إنه كمن يعطي ظهره للحياة ويلقي بنفسه في هاوية لا مخرج منها. ويصبح منفياً - بشكلٍ أبدي - مثل آدم وحواء بعد طردهما من الجنة. حيث شعرا بالخجل والأسف تجاه مشقة عدم المعرفة بعالم مجهول.

عندما نتحدث عن «العضلات»، نصورها لأنفسنا - غالباً - كنوع من الآلات. هذا المفهوم ينافي مفهومنا عن الروح التي تتحرر من المادة

ثم؛ بالتالي تتحرر من أي آليات والقول أن الحركة أو النشاط الجسمي، أكثر أهمية بالنسبة للنمو العقلي من الحواس العقلية ذاتها (كالإبصار والسمع)، سيدهش الناس أكثر مما سيفاجئهم. فعيوننا وآذاننا تؤدي وظيفتها طبقاً لقوانين فيزيقية وميكانيكية. العين تصف مثل «كاميرا مزودة بالحياة»، ولاشك أنها بناء مدهش. الأذن - أيضاً - لا تختلف كثيراً عن فرقة موسيقية تعزف بذبذبات أوتارها وطبولها.

لكن، عندما نتحدث عن الدور الذي تقوم به هذه الوسائط المذهلة في تنمية العقل، لا ننظر إليها كأجهزة آلية، ولكن كوسائل للبحث عن معرفة أو تحصيلها. وخلال هذه الدهشة، تتوسط الحياة «الأنا» لتصبحها إلى الالتحام والتواصل مع العالم، حتى تزدهر الحاجات النفسية ويتم إشباعها. إن الروح تنتعش من مناظر الطبيعة وجمالياتها المتنوعة، كشروق الشمس، تماماً مثلما تبتهج برؤية عمل فني، أو بسماع أصوات موسيقية. إنها الشخصية الفردية تلك التي تستمتع وتحكم من خلال هذه الحواس المتنوعة في انطباعاتها.

إذا لم يكن هناك «أنا» تستمتع وتأخذها البهجة بهذه المناظر والأصوات المتنوعة، فأى جدوى من هذه الأعضاء الحسية؟. الرؤية والسمع في ذاتها قليلا الأهمية، لأن لهما غرضاً أسمى. حيث تتكون شخصية الفرد وتتحدد ملامحها وتنمو خلال الرؤية والسمع.

والشيء ذاته يمكن قوله عن الحركة، والتي هي نشاط جسمي. إنها تتطلب أعضاء متنوعة، حتى وإن لم تكن في دفقة طبلية الأذن أو عدسة

العين. إن الهدف الأساسي من التربية، ومن الحياة ذاتها هو الابتكار الخلاق الإيجابي. والذي يجب أن يتحكم في آليات المشاعر وفي أدوات إحساس الطفل. بحيث لا تكون تصرفاته موجهة ومسترشدة بردود فعل فطرية يثيرها مجرد منبه حسي، بل - أيضًا - يخلقها العقل نفسه. وإذا لم يتمكن الفرد من تحقيق هذا الهدف، فسوف يخفق في تحقيق هذه الوحدة في الشخصية، وحينئذٍ، يتوقع منه أن يتحول إلى حيوان أدنى في المرتبة.

17. ذكاء الحب

إن كل عمل يتم إنجازه وفقاً لقوانين الطبيعة، ويخلق تناغماً بين الكائنات الحية، يحقق مشاعر من الحب. ويجب أن نقول أن هذه إشارة مؤكدة إلى صحة الإبداع وإلى الصالح العام.

إن الحب ليس السبب، لكنه التأثير. إنه أشبه بالنبات الذي يستقبل ضوءه من الشمس. إن قوة الحركة فطرية، وهي القوة الخلاقة للحياة. لكن - في عملية الخلق - يتولد الحب. هذا الحب يغمر وعي الطفل ويؤثر في إدراكه لذاته.

هذه الومضات التي لا تقاوم، والتي توحد الطفل مع الأشياء الخاصة به خلال المراحل الحساسة، هي - بحق - حب لبنيته. إنها ليست مجرد رد فعل عاطفي وجداني، لكنها رغبة عقلية، أو حب يجعل الطفل قادراً على السمع والرؤية.. وهكذا ينمو.

إن الرغبة الطبيعية التي يتوجب على الأطفال ملاحظتها، تسمى وفقاً لـ «دانتى» - «ذكاء الحب».

إنه الحب، الذي يمكن الطفل من الملاحظة القوية والحماس للشكل، مما يطبع بداخله ملامح بنيته. وهي التي - بالنسبة للكبار - ذات

مغزى حقيقي لكن لا يرقى إلى خيال وحيوية الطفل. ألا يجعلنا الحب حساسين لأشياء لا يلاحظها آخرون؟. ألا ييدي لنا تفاصيل ونوعيات خاصة لا يقدرها الآخرون؟. ولأنه في حالة حب مع بيئته، وليس على خلافٍ معها، يمكن لذكاء الطفل أن يرى ما لا يراه الكبار. إن حب الطفل لمحيطة الخارجي، يبدو للكبار كمثقة طبيعية ومرح الشباب. لكنهم لا يدركونه كطاقة روحية وأخلاقية وجمالية تصاحب الخلق والابتكار.

إن حب الطفل يأتي من بساطة الطبيعة. إنه يجب من أجل ضرورة استقبال انطباعات تمدّه بوسائل ومعاني النمو.

الكبير هو الموضوع المحدد للحب عند الطفل. فمن الكبير يتلقى المواد المساعدة التي يحتاجها، ويسأله - بجدية - عن الأشياء التي يتطلبها نموه الذاتي. بالنسبة للطفل: الكبير هو كائن يمثل المهابة والاحترام. فمن شفثيه - كما من الربيع - يرسم الكلمات التي عليه أن يتعلم بها الكلام. ومن خلال تصرفاته، يوضح الكبير للطفل كيف يكون سلوك الإنسان. ويعيش الطفل حياته الخاصة من خلال تقليده للكبار ممن تتوثق صلته بهم. فكلمات الكبير وتصرفاته تسحر الصغير وتفتنه وكأنها منوم مغناطيسي. والصغير قد يتأثر جدًا بالكبير لدرجة أنه يكاد ينقمصه تمامًا. ويمكننا أن نعيد ذكر قصة الطفل الذي وضع حذاءه على الفراش. إن تصرفاته اللاحقة تظهر طاعته الطبيعية. لكنها تظهر أيضًا - قوة الإيحاء.

إن ما يخبر الكبير به الصغير، يظل باقياً محفوراً في عقله، كما لو كان نقشاً على رخام. كما يمكننا إعادة ذكر رد فعل الطفلة الصغيرة التي استقبلت أمها الهدية (المنديل الصغير). وحيث يكون الأطفال شغوفين بأن يتعلموا، مشتعلين حباً، فعلى الكبير أن يتوخى الحذر فيما يحمله إليهم من كلمات.

الطفل مهياً لطاعة الكبير. لكن عندما يسأله الأخير أن يتخلى عن تلك الغرائز والمواهب الطبيعية التي تساعد نموه، لا يستطيع الصغير أن يلتزم بالطاعة. وعندما يطلب كبير مثل هذه التضحية من أجل اهتماماته هو الشخصية، فهو يشبه - هنا - من يحاول إيقاف بناء أسنان الطفل، عندما يكون في مرحلة التسنين. وليست نوبات الغضب المفاجئة التي تصيب الطفل، أكثر من مظهر للصراع الحيوي بين ومضاته الخلاقة، وحبه للكبير الذي يُخفق (يفشل) في تفهّم احتياجاته. وعندما يكون الصغير متمرّداً غير مطيع أو ثائراً غاضباً، دائماً ما يستدعي الكبير - إلى العقل - صراعاً، ويحاول إفساده كدفاع ضد بعض ما لا يعلمه من أنشطة حيوية ضرورية لنمو الطفل.

علينا أن نتذكر أن الطفل يحبنا ويرغب في إطاعتنا. الطفل يحب الكبير رغم كل شيء، وغالباً ما يُسمع العكس «كيف يجب الأبوان طفلهما؟!، أو «كيف يجب المعلمون تلاميذهم؟!» والأبعد من ذلك أن يقال: على الأطفال أن يتعلموا كيف يحبون آباءهم وأمهاتهم، ومعلميهم، وكل الناس، وحتى النباتات والحيوانات.

لكن، من يعلمهم كل هذا؟ من يستطيع أن يعلم أحدًا كيف يجب؟ هل هو الكبير الذي يستدعي كل مشاعره الطفلية وتصرفاته الصبانية الهوجاء، والذي يفكر - فقط - في حماية نفسه والدفاع عنها وعن وضعيته من الطفل؟ إن شخصًا كهذا لا يستطيع أن يصبح معلمًا للحب، مادام لا يملك هذه الحساسية التي نطلق عليها «ذكاء الحب».

لكن الحقيقة أن الطفل هو من يحب، هو من يريد أن يشعر بالكبير موجودًا بجانبه، وهو الذي يبتهج حين ينجح في جذب الانتباه إلى نفسه: «انظر إليّ - ابقَ معي»!

في المساء يذهب إلى فراشه، وينادي الصغير على الشخص الذي يحبه ولا يريد أن يراه وهو يمضي. وعندما نذهب إلى عشاء ونترك الطفل مع من يرعاه، يريد هو أن يذهب معنا، ليس من أجل أن يأكل، بل ببساطة - من أجل أن يبقى قريبًا منا ويتمكن من مشاهدتنا. لكن الكبار لا يُقدِّرون هذا الحب العميق من جانب الطفل. لكن، علينا أن نتذكر أن هذا الطفل الصغير الذي يحبنا الآن لهذا الحد، سوف يكبر ويختفي. من سيحبنا - آنذاك - مثلما يحبنا هذا الطفل الآن؟ من سينادينا حين يذهب لفراشه، قائلًا برقة «ابقَ معي!» بدلًا مما نقوله نحن: «طاب مساؤك»؟ من سيلمح أن يقف بجوارنا ونحن نأكل، فقط حتى يمكنه مشاهدتنا؟ إننا نحرم أنفسنا من هذا الحب ولن نجد مثله أبدًا! وسوف نرد - بندم - «لم يكن لدي الوقت! لم أستطع! أنا مشغول!» بينما - في أعماقنا - نفكر: «يجب أن نصلح الأطفال، أو سننتهي بأنفسنا إلى أن نصبح عبيدًا لهم». نحن

نتمنى تحرير أنفسنا من الطفل، حتى يمكننا فعل ما يسرنا، حتى نتحرر من الإزعاج ومن كل ما لا يلائمنا.

إنه لإزعاج مربك عندما يذهب طفل لإيقاظ أم وأب في الصباح. لكن، ماذا يقوده إلى الذهاب بحثًا عن والديه بمجرد يقظته، إذا لم يكن يحب؟. فعندما يستيقظ الطفل مبكرًا - في بداية إشراقة اليوم - يذهب إلى من لا يزالون نائمين، إلى والديه، وكأنه يقول لهم: «تعلمًا أن تحيا بقداسة! لقد أشرقت الشمس! إنه الصباح!». إن الطفل لا يذهب إلى والديه ليعلمهما، بل ليرى - مرة أخرى - من يجب.

ربما لم تزل الغرفة مظلمة، فالستائر مسدلة، وبالتالي، فلن يزج ضوء الصباح هؤلاء النائمين. يأتي الطفل ويلمس والديه، ثم يلومانه: «كم مرة أخبرناك ألا تأتي مبكرًا في الصباح وتوقظنا؟». فيرد الصغير: «أنا لا أوقظكما.. إنما جئت - فقط - لإعطائكما قبلة». ويردف الطفل في تأثر: «لم أكن راعبًا في إيقاظكما من النوم، أنا - فقط - أريد إيقاظ روحكما».

نعم، إن الحب عند الطفل غاية في الأهمية. والأبوان - رغم كل شيء - يشعران بالنعاس، ويريدان كائنًا آخر أن يوقظهما ويعيد لهما الحيوية والانتعاش والطاقة الحيوية التي لم يعودا يملكانها. إنها بحاجة لكائن يتصرف بشكل مختلف، ويستطيع أن يقول لهما كل صباح «إنهضًا لحياة أخرى، تعلمًا العيش بصورة أفضل!».!

نعم، أن تعيش بصورة أفضل! أن تشعر بأنفاس الحب! وبدون الأطفال - كي يساعدهم - سيفسد الناس.

إذا لم يسع الكبير لتجديد نفسه، ستتكون قشرة سميكة حول قلبه الذي سيحوّله حتماً إلى كائن بلا إحساس. نحن نذكر بالحكمة الأخيرة، حين يعود المسيح إلى مستحقي اللعنة، إلى أولئك الذين حين كانوا على الأرض لم يستخدموا أبداً ما أُتيح لهم لتجديد أنفسهم، ويلعنهم قائلاً:

«ارحلوا عني، أنتم ملعونون، حين مرضت لم تشفوني!».

وسوف يجيبون:

«لكن، أيها السيد، هل رأيناك - أبداً - مريضاً؟» «متى كنتم ترون من كان فقيراً أو مريضاً، كان أنا» ارحلوا عني، أنتم ملعونون، لأنني كنت في السجن ولم تأتوا لزيارتي».

«لكن، أيها السيد، متى كنت - أبداً - في سجن؟» «كنت في كل واحد كان في سجن».

إن الصفحات الدراماتيكية في «الإنجيل»⁽⁵⁾ تحمل شهادة على حقيقة أن الكبار يجب أن يجسدوا المسيح متخفياً في فقير، في الاحتياج وفي المعاناة. وإذا ما قدمنا هذه المشاعر وهذا الحس المرهف للأطفال، سنرى أن المسيح يظهر للناس - أيضاً - على هيئة طفل.

٥. هو الأسفار الأربعة الأولى من «العهد الجديد» التي تتحدث عن حياة المسيح وموته وقيامته.. مرجع المورد البعلبكي، ص ٣٩٥.

«أنا أحبيتك. أنا أتيت لإيقاظك في الصباح، وأنت رفضتني»!
«لكن متى، أيها السيد، هل أتيت إلى بيتي في الصباح لتوقظني،
وأنا رفضتك؟».

«حينما أتى إليك طفلك يناديك، كان أنا. حينما توسّل إليك ألا
تتركه، كان أنا!»

يا لنا من حمقى، لقد كان يسوع من أتى لإيقاظنا، وليعلمنا الحب!
لكننا ظننا أن ذلك كان مجرد عبث طفلي.. وهكذا فقدنا قلوبنا !.

ملحق الجزء الأول

بيئة مونتيسوري

مطبقة في فصل مونتيسوري في مركز بذور الأمل -
بعزة النخل - القاهرة

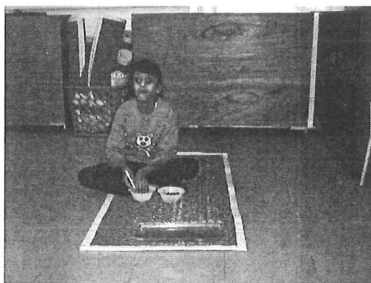
صورة رقم (1)



البيئة هي مركز البنية في طريقة مونتيسوري وأسلوبها. والحياة العملية هي واحدة من أربع مناطق عامة في بيئة الإعداد تلك. والأنشطة - هنا - تُبنى على اهتمامات الطفل الطبيعية، والطفل المعاق ذهنياً والمعاق جسدياً وتُساعده على تنمية عادات عمل حسنة: التركيز، وتوافق العين واليد، والتحكم في جسمه، وتدريبات غسل الإطارات، وغسل

المناضد، واستخدام الحركة الدائرية التي ستصبح - فيما بعد - أساسًا لتدريبات اليد، مثل الرسم والكتابة. وتدريبات على أعمال المطبخ تساعد على التحكم في الذات والسيطرة على البيئة.

صورة رقم (2)

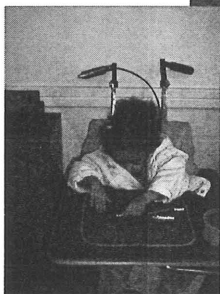
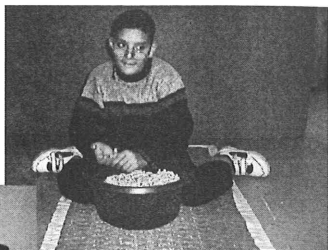


صورة رقم (3)



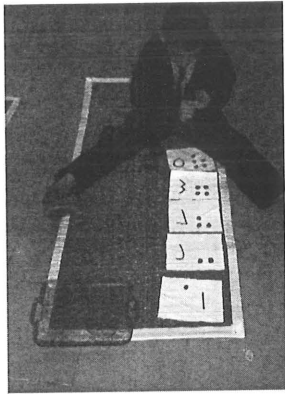
«المرحلة الحساسة»: مادام «لا شيء يأتي إلى الذكاء، فهو ليس الأول في الأحاسيس». تهيئ بيئة «مونتيسوري» مدى بعيداً من المواد الحساسة التي صُممت لمساعدة الطفل في تنمية قدراته على إصدار الأحكام، وأن يقارن ويميز قواعد مختلفة الأبعاد والأشكال، والأوزان، والألوان، ودرجات الحرارة. وأن يخزن انطباعات في «ذاكرته العضلية». وأن ينمي استخدام عضلات محددة ويحركها. كان هناك جرار يحملونها على أذرعهم، وأسطوانات يستمعون إليها، ومناضد ملونة لترتيبها في الحديقة، وكتل لبناء أبراج، ودوائر خشبية لوضعها بجانبهم.

صورة رقم (4)



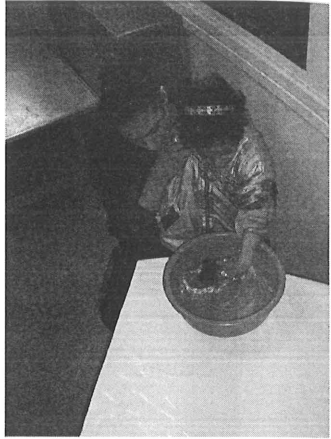
صورة رقم (5)

صورة رقم (6)



صورة رقم (7)



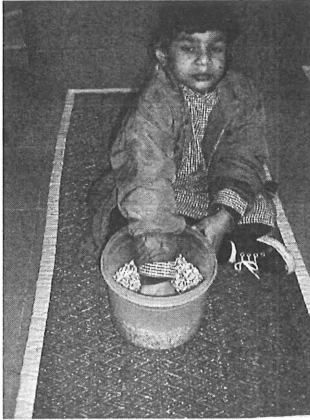


صورة رقم (8)

في مرحلة اللغة: ينسخ إطار الصورة المعدنية وهي تُعدّ عضلات اليد والذراع للرسم والكتابة.

العمل بالحروف المفردة من الألف باء المتحركة. ويمكن للطفل مضاهاة ذلك بالحروف المصنوعة من ورق الصنفرة، فينسخ الطفل شكلها على هذا الورق بأصابعه. وهكذا، يعزّز إدراكه البصري للحروف. وباستخدام الصور الصغيرة، سوف يُخرج صور الكلمات ويكوّنها من الحروف.

صورة رقم (9)



صورة رقم (10)

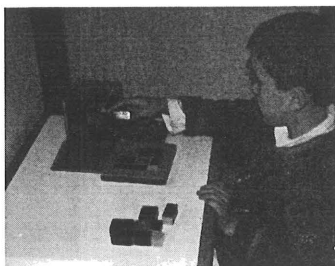
في مرحلة الحساب: الخامات
مثل القطع العددية من الخشب،
مما يجعل الطفل يكتسب الحس
الجسمي بالكم. ثم يرتبها بالترقيم الذي
يرمز لكل كمية. والصندوق المغزلي
يعطيهم الفرصة لتعزيز هذه المهارة،
وهي العد من صفر حتى 9 (وهو ما



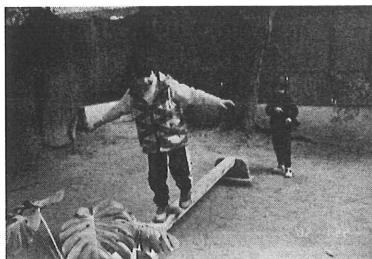
يعرف بعدّاد الأرقام). إن الخرز العشري يجعلهم يبنون كمية (100) وبطريقة مرئية، كما تفيدهم في معرفة قيمة المكان.

الصورة رقم (11، 12، 13، 14، 15) من مدرسة مونتييسوري في دجلة- بالقاهرة

صورة رقم (11)

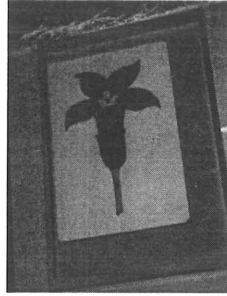


صورة رقم (12)



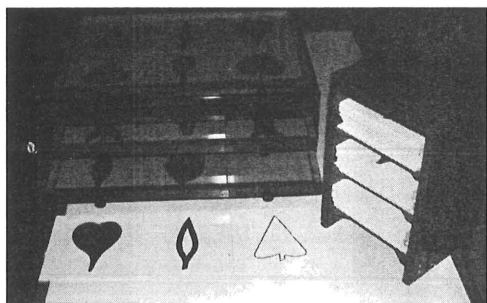
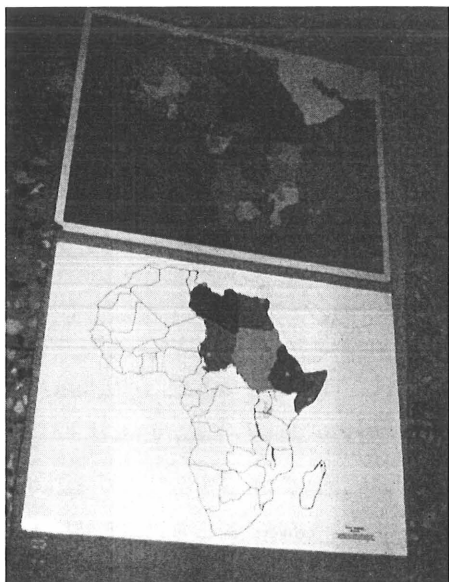
صورة رقم (13)

جزء من عملية تطبيع الطفل، هي مساعدته في الفهم، وأن يكون مستريحاً مع أشياء الطبيعة. فيعمل مع الأشياء التي تنمو مثل بصيالات النباتات، وجمع وتعرّف أوراق النباتات. مثل هؤلاء الأطفال في أحد عناصر البرنامج، وهو



جزء مهم في امتداد بيئة مونتيسوري.

وفي الموسيقى، فإن «الإكسيلفون» يعتبر من الأدوات الطبيعية، ضمن خامات مونتيسوري.



الجزء الثاني

18 . تربية الطفل

يجب أن نستيقظ على حقيقة غاية في الأهمية، هي أن للأطفال حياة نفسية. وأن لهذه الحياة مظاهر قد تفلت من الملاحظة. وأن هذه النماذج من النشاط قد يفسدها - لا شعورياً - تدخل الكبار.

فبيئة الكبر ليست بيئة مناسبة للأطفال. ثم إن محصلة المعوقات التي يقوي بها الكبر دفاعاته، يضاف إليها تضليل اتجاهات الصغار وتعريضهم للإيحاءات. إن التربية وعلم النفس - في مجال الطفولة - قد تمت دراستها بواسطة الكبار، لا من وجهة نظر الطفل. ترتب على ذلك: أن تكون نتائجهم متجسدة في رؤى راديكالية. فكما رأينا فعلاً - أن كل رد فعل غير معتاد يصدر عن طفل، يمدنا بمشكلة لا بد من حلها. وكل نوبة غضب طفلية هي التعبير الخارجي عن بعض الصراعات المتجذرة - بعمق - في داخل الصغير. بينما لا تُفسّر ببساطة - كالية دفاعية ضد البيئة المعادية، إنما يُنظر إليها كمشهد متميز

يبحث عن إظهار نفسه. إن نوبة الغضب الطفلية تشبه العاصفة التي تمنع روح الطفل من انبعاثها وإظهار ذاتها للعالم.

ومن الواضح أن كل هذه التمويهات تحجب الروح الحقيقية للطفل. إن المشاركة والمقاومة والتشوهات، تخفي جهودها، وتمنع الطفل من التنفيس عن شخصيته الحقيقية وإظهارها. وخلف هذا الخلل التجليات الظاهرية - لابد من وجود فرد، جنين روحي يستمر في نموه طبقاً لخطة محددة. فتحت هذه التجليات الظاهرة، طفل غير معروف ومتخفٍ، بينما يتوجب أن يكون حرّاً.

إن المهمة الأكثر إلحاحاً والأجدر بسرعة مواجهة المربين والتربويين لها، هي التوصل إلى معرفة هذا الطفل غير المعروف، ثم تحريره من كل الشراك والورطات.

إن الفارق الأساسي بين البحث النفسي التحليلي، وبين تلك الدراسة النفسية حول الطفل غير المعروف، يرجع مبدئياً إلى حقيقة أن سر «عتبة تحت الوعي» لدى الكبير، هي شيء يختزنه ويكبحه بداخله. بينما سر الطفل بالكاد يتخفى داخل بيئته. ولمساعدة الكبير، علينا أن نعينه في فك تشابك خبراته التكيفية المعقدة، والتي تكونت عبر تراكم زمني طويل. أما مساعدة الطفل، فتتمثل في توفير بيئة تلائمه وتمكنه من النمو وهو في كامل حريته. إن الطفل يمر بمرحلة «إدراك الذات»، ويكفيها أن تفتح له الباب. وفي حقيقة الأمر: فالكائن الذي يبنى نفسه بنفسه، والذي يعبر من «لا كائن» إلى «كائن»، ومن

الفعالية والقوة، إلى الفعل، لا يمكن أن يتحول في مثل تلك المرحلة، إلى إنسان معقد. ومادام الطفل يمتلك هذه الطاقة واسعة الامتداد؛ فليس هناك صعوبة في إبدائها وإظهارها.

وفي بيئة مفتوحة، مناسبة لمرحلته العمرية، ستنمو حياة الطفل النفسية - طبيعياً - وستبدي سرها الداخلي. وما لم يتحقق هذا المبدأ، فكل ما يليه ويعقبه من محاولات في التربية والتعليم، لن يؤدي إلا إلى حيرة لا نهاية لها.

وتستمد التربية الجديدة هدفها وغايتها الأولية من ضرورة اكتشاف الطفل وحرية. والمشكلة الأولى في هذه الدائرة من الاهتمام: هي كينونة الطفل الخاصة. أما الثانية: فهي تزويده بالعون الضروري كإنسان يتقدم في اتجاه النضج. هذا يعني أنه لابد من وجود بيئة مناسبة لنمو الطفل. أما المعوقات، فيجب إزاحتها إلى أقصى درجة، وعن المحيط الخارجي، فيجب أن يوفر الوسائل الضرورية لإنجاز تدريبات الأنشطة التي تنمي طاقات الطفل. ولأن الكبار - أيضاً - جزء من بيئة الطفل؛ فعليهم تحقيق التوافق الذاتي مع احتياجات الطفل. وإلا تحولوا إلى معوقات أمام استقلال الطفل في ممارسة نشاطاته، أو أن ينفذوا - من أجله - أنشطة تستلزم وسائل لن يحتاجها الصغير إلا في مرحلة نضجه.

إن الخاصية الأبرز لنظامنا التربوي، هي التأكيد على ما تحتله البيئة من مكانة جوهرية أساسية في عملية التربية.

ودور المعلم في مدارسنا، موضوع جدير بالاهتمام والمناقشة. إنه يزيل المعوقات - بواسطة اتجاهه الإيجابي - من طريق الأطفال. وهي معوقات قد يتسبب فيها المعلم إما عن طريق نشاطه أو مسؤوليته. بهذا؛ يمكن للأطفال أن يصبحوا نشطاء، بأنفسهم. أما المعلم، فيكون راضيًا حين يراهم يعملون ويتصرفون بأنفسهم، ويجرزون تقدمًا. ودون أن ينسب شيئًا إلى نفسه، يمكنه أن يتوحد مع أفكار «يوحنا المعمدان»: «هو يجب أن يزيد، لكن أنا يجب أن أنقص».

خاصية أخرى - أبعد من ذلك - يتميز بها نظامنا في التعليم، وهي احترام شخصية الطفل، مما يحقق نقطة لم يتم الوصول إليها من قبل.

هذه المبادئ الثلاثة مفصلة في مؤسسات اجتماعية تعرف بـ «بيوت الأطفال»، وهو اسم يتضمن «الأسرة».

هذا النظام الجديد في التربية تمت مناقشته بتوسع، وبشكل خاص فيما يتعلق بالأدوار المتبادلة بين الطفل والكبير. فالمعلم بلا منضدة، بلا مسؤولية أو سلطة، وغالبًا بدون عملية تدريس. أما الطفل، فهو مركز النشاط، وهو حر في التحرك كيفما يشاء، وفي اختيار الأماكن التي تستحوذ على اهتمامه .. وينظر البعض إلى هذا كمثالية أو «يوتوبيا»، والبعض الآخر - ببساطة - يراه مبالغة.

ومن ناحية أخرى: استقبلت هذه التجديدات بدرجة عالية من القبول؛ فالأشياء متصلة بطبيعة جسم الطفل. والحجرات زاهية ومضيئة. والنوافذ منخفضة مملوءة بالزهور. وقطع الأثاث صغيرة

ومصممة كما في المنازل الحديثة. والمناضد صغيرة، وكذلك المقاعد. والستائر جميلة، والدواليب صغيرة يمكن فتحها بسهولة. وفيها يجد الأطفال كميات كبيرة من أشياء متنوعة، مما يمكنهم استخدامها جميعاً، وبسهولة كل هذه الأشياء تم إحضارها كتجسيدات عملية تسهم في نمو الطفل. وأنا أعتقد أن الكم الأعظم من «بيوت الأطفال»، يحفظ للأطفال هذه الخاصية الظاهرة للبهجة والافتقار كاحد الملامح المبدئية لهم.

والآن - وبعد دراسات مضنية وخبرات كثيرة في مثل هذه الأمور - يبدو مفيداً أن نعيدها ثانية، وبشكل خاص أثناء نشأة الأطفال.

ومن الخطأ أن نتخيل أن الملاحظة الحقيقية للأطفال، تفقد إلى نتائج مروعة مؤداها أن لدى الأطفال طبيعة خفية، وهذا الحدس يقودنا - بعد ذلك - إلى أن نتلبسنا فكرة المدرسة ذات النمط الخاص، والتعليم ذو النظام الخاص. فمن غير الممكن ملاحظة شيء لم تتم معرفته بعد. ومن غير الممكن - لأي شخص - خلال حدس بسيط أن يعزو للطفل طبيعته، ثم يحاول بعد ذلك أن يثبتها تجريبياً. فما هو غير معروف، يجب أن يظهر نفسه ويعبر عنها خلال طاقاته الممكنة. وعندئذ لا يمكن لأحد أن يصبح ميّالاً لذلك، أكثر ممن شاهد أولاً. إنه يشبه بقية العالم التي يسترجعها بما هو جديد. وبالتالي: فالحقيقة غير المعروفة - حتى الآن - تجبره وبإصرار على أن تتبدى فيه، قبل أن تظهر بشكل مرئي نهائي، ومن ثم، يتم إدراكها وقبولها. فالشخص الذي يحاط بالضوء الجديد، ثم - أخيراً - يعانقه، يصبح مفتوناً متحمساً

له، ثم يكرّس حياته له. ويزداد حماسه لأنه يعتقد أنه خالق هذا النور، وعليه، يصبح حساسًا لما يتجلى منه. ومن الصعب علينا تقبُّل شيء جديد، والأكثر صعوبة أن نقنع أنفسنا بحقيقة اكتشافنا، حيث نغلق بواباتنا أمام كل جديد. وعندما نصنع هذا الاكتشاف، وندرك أنه حقيقة، سنصبح محبين مثل صاحب الحانوت الذي يبحث عن المجوهرات الثمينة. وعندما نجد واحدة ثمينة باهظ، فسنبيع كل شيء مما نملك حتى نستطيع شراءها.

إن نظرتنا العقلية للأشياء، يمكن مقارنتها بحجرة استقبال أرسقراطية. والحجرة مغلقة على غريباء. وللدخول إليها، يجب أن يُقدّم أحد آخر يعرفه لا بد أن يكون عارفًا به. أما الشخص الذي لا يتم تقديمه، فعليه إما أن يطرق الباب المغلق، أو أن يدخل متسللاً. وأخيراً، عندما يدخل، يثير ضجة ويختلقها. وحين ينظر «فولتا» إلى ارتعاشات الضفدع الميت بمنزج من شعور الدهشة والارتياح، يصر بعناد من خلال خبرته ومعرفته أن يستنتج وظيفة الكهرباء أحياناً يتسبب حادث عارض في فتح آفاق جديدة ولا نهائية للعقل البشري. والإنسان مكتشف بطبيعته، ويجرّز التقدم عن طريق اكتشاف الأشياء التي تبدو غير مهمة وضيئة القيمة في تفصيلاتها.

في الفيزياء وعلم الطب هناك مقاييس قاطعة للتماثل والمطابقة في الظواهر الجديدة. واكتشاف جديد في هذه الحقول المعرفية هو ما يوضح حقائق لم تكن معروفة، والتي قد لا تكون متوقعة. وهذه الحقائق تكون موضوعية ولا تعتمد على حدس الشخص. وهناك

خطوتان لتوضيح مثل هذه الحقيقة: يجب أن يتم عزلها عن بقية المتغيرات، وأن تتم دراستها تحت ظروف مختلفة. بعد ذلك يجب إعادة اختبارها وبحثها من جميع الجوانب، حتى يتم التأكد من أنها ليست وهماً، بل واقع مادي ملموس يمتلك قيمة حقيقية. وأول بيت للطفل هو مثال لاكتشاف أوّلي لأشياء تبدو غير ذات دلالة مهمة، لكنها حقيقية.

منشأ طريقتنا

لقد أخذ وصف الطريقة التالية في منشأ نظامنا التعليمي، من مذكرات قديمة وملحوظات سجلتها في حينها.

من أنتم؟

تم افتتاح أول مدرسة لنا في السادس من يناير 1907، وكانت لصغار الاطفال في المرحلة العمرية ما بين ثلاث إلى ست سنوات. حينها، لم يكن لدي نظام خاص للتعليم. لم يكن لدي شيء أكثر من خمسين طفلاً، فقراء معدمين، يبدو عليهم الخوف والجن، وكان كثير منهم ينتحبون. وغالبًا، جميعهم نتاج أسر تنسم بالجهل، ممن عهدوا إلي بأطفالهم.

كان الأطفال يعيشون في حجرة تقع داخل أحد المباني السكنية. وقد دُعيت لرعاية هذا المكان المأوى. حتى لا يتركوا الأطفال مهجورين فوق السلام، حيث يعيشون بالحوائط فتتسخ، أو يصبحون مصدرًا للإزعاج.

ولسبب غير معروف، شعرت بأن هناك عملاً عظيماً يمكن إنجازه،
ولابد من نجاحه وازدهاره. وكان يوم عيد الغُطاس، وكان موضوع
الغُطاس نوعاً من النبوءة أو الوحي الإلهي «كانت الأرض مغطاة
- تماماً - بالظلام، عندما ظهر النجم في الشرق، حيث كان سناه
وإشراقه مرشداً للناس جميعاً».

هؤلاء الذين حضروا الافتتاح الرسمي، كانت الدهشة تبدو عليهم
وهم يسألون أنفسهم: «لماذا تفعل الأنسة «مونتيسوري» كل هذا من
أجل إيواء الفقراء؟»

لقد بدأت عملي كمزارع بجانبه بذور طيبة، وقد مُنح حقلاً خصباً
ليحرثه، لكن اتضح أنه شيء آخر. وبصعوبة خدشت الجوال لأجد
ذهباً وليس حبوباً. الجوال - إذن - يخفي ثروة ثمينة. كنت مثل «علاء
الدين» والمصباح بين يديه، لا يعلم أنه مفتاح ثروات مخفية. لقد حمل
لي عملي مع هؤلاء الأطفال، سلسلة من المفاجآت.

لقد أنجزت كما من العمل - لا بأس به - مع أطفال ذوي احتياجات
خاصة، مستخدمة مواد وأشياء لتعليمهم، وأحرزت نتائج طيبة. وقد
افترضت أن هذه الوسائل التي أثبتت نجاحاً مع ضعاف العقول،
وحسّنت من طريقة تفكيرهم، يمكنها - أيضاً أن تستخدم بشكلٍ ما
مع الأطفال ذوي الذكاء. ومن هذه الخبرات؛ انبثقت مبادئ محددة
للصحة العقلية والنفسية. كما قدّمت - بإقناع - إمكانية استخدامها
بالنسبة للآخرين. لكن هذا لم يبدل حقيقة أن التأثيرات الأولى لهذه

الوسائل على الأطفال الأسوياء كانت مختلفة؛ مما أثار دهشتي، وغالبًا ما تركني أميل إلى الشك.

والمواد التي استخدمتها وقدمتها لهؤلاء الأطفال الأسوياء، كان لها تأثيرٌ مختلفٌ عليهم، مختلفٌ عن تأثيرها على ذوي الاحتياجات الخاصة. فعندما ينجذب طفلٌ سوي إلى شيءٍ ما، يعطيه كل اهتماماته وينكب عليه مستمرًا في عملٍ دون أخذ قسطٍ من الراحة تبدو عليه علامات التركيز الكامل. وعندما ينتهي الطفل من عمله ويتمه، يبدو عليه الرضا، والراحة، والسعادة. وهو الشعور الذي كنت أقرأه على وجوه راضية آمنة، وعيون ملأى ببريق سعادة إتمام عملٍ طوعي إرادي. إن الأشياء التي أعطيتها للأطفال، كانت تشبه مفتاح الساعة، مع اختلاف دال ذي مغزى. فالساعة - بعد ملئها - تستمر في العمل بنفسها (آليًا)، لكن، بعد إعطاء الشيء للطفل، فهو لا يستمر - فقط - في العمل به، لكن جهوده تجعله أقوى عقليًا وصحيًا مما قبل. وقد استغرق هذا الاستنتاج وقتًا حتى أقنع أنه وهم. وبعد كل تجربة جديدة تثبت أن هذا حقيقة، وليس وهماً، كنت أبقي لفترة طويلة في حالة من الإنكار، لكن مع البحث والترقب. وكما كان يحدث أن وبُحت المعلمة حين كانت تخبرني بما كان يفعله الأطفال: «لا تأتي لإخباري بمثل هذه الخيالات». ظللت أكرر هذا مرات متعددة. وأتذكر أنها دون أن تضايقني - كانت تجيب بخوف: «أنتِ محقة. فعندما أرى مثل هذه الأشياء، أعتقد أنه لا بد أن تكون الملائكة هي التي تلبست هؤلاء الأطفال».

وأخيراً، وذات يوم بينما كنت أتطلع لهؤلاء الأطفال باحترام بالغ وبحب، وضعت يدي على قلبي وسألت: «من أنتم؟» نحن أولئك الأطفال الصغار الذين - ربما - عانقهم المسيح وباركهم، والذين قال عنهم: «حيثما تستقبل هذا الطفل الصغير من أجلي، فأنت تستقبلني». ومرة أخرى: «حيثما لا تقبل مملكة الرب، فلن يدخلها طفل صغير».

هكذا جئت لألقاهم. لقد كانوا أطفالاً مرعوبين خائفين مخلوعي الفؤاد لدرجة أنني لم أستطع حملهم على الكلام. كانت وجوههم خالية من التعبيرات. وعيونهم جامدة كأنها لم تر شيئاً من قبل طيلة حياتهم. لقد كانوا - حقيقةً - فقراء، مهملين ملقى بهم في الظلام. بيوت محملة فارغة من أي شيء يثير عقولهم. ويستطيع أي شخص أن يرى أنهم ناقصو التغذية، وأنهم محتاجون غذاء وهواء وشمس. لقد كانوا أشبه ببراعم قُدر لها ألا تتفتح أبداً.

ما الظروف الخاصة التي أحدثت هذا الانتقال المذهل؟ ما الذي أعطاهم حياة جديدة تنشرت بأشعتها على كل العالم؟

لقد تم إزالة ما يعيق نموهم بشكل واضح، وقد تم إيجاد وسائل تحرر أرواحهم. لكن، من كان يتخيل ماهية تلك المعوقات، أو من كان قادراً على اقتراح ماهية الحاجات التي تجعل أرواح هؤلاء الأطفال، مزهرة ومتفتحة؟. وعلى فترات قصيرة، كان هناك شيء يبدو وكأنه مُقدَّر أن يُنتج تأثيراً معاكساً.

يمكننا أن نبدأ بخلفيات الأسر لهؤلاء الأطفال. فآبائهم ينتمون إلى أدنى الطبقات داخل المجتمع. الغالبية العظمى منهم يعانون من الجهل والامية. لم يكن لهم عمل منتظم، بل يبحثون عنه يومًا بيوم. وبالتالي، ليس لديهم الوقت أو الوسائل لتقديم رعاية ممكنة لأطفالهم.

ومن الواضح أنه لا مستقبل لأي رعاية تحت هذه الظروف. وحيث لا توجد معلمة مدربة لرعاية الأطفال - فهذا غير ممكن وغير متاح - فالمرأة الصغيرة العاملة، يتم استئجارها لرعايتهم. كانت قد بدأت دراسة تؤهلها للعمل كمعلمة، لكنها تركت هذه الدراسة. ونتيجة لذلك، لم يعد لديها، لا التعليم، ولا الأحكام المسبقة، التي يجب أن تتوافر لها. عامل آخر يجب أن يؤخذ في الحسبان، هو أن مدرستنا الأولى كانت مشروعًا خاصًا. وكان مكفولاً من قبل شركة ذات ملكية خاصة. لكنها خفّضت من دعمها كوسيلة غير مباشرة لخفض التكلفة للاحتفاظ بالمبنى. وكان الأطفال - ببساطة - يتربون معًا حتى نمنعهم من تخريب حوائط المبنى، وهكذا نخفّض من كلفة الإصلاحات. لم يكن عملاً اجتماعيًا حقيقيًا. لم يكن هناك أي تفكير حول أي شيء، مثل وجبات حرة للأطفال، أو رعاية طبية للمرضى. إن الدعم المقدم كان مقتصرًا على المقاعد ومكتب مؤثت مع بعض الأجهزة. هذا يفسر لماذا بدأنا نصنع - بأنفسنا - مناضدنا ومقاعدنا بدلًا من شراء مقاعد المدارس العادية. وإذا لم تكن هناك هذه الظروف المتنوعة، لم نكن بقادرين على عزل وتوضيح العوامل النفسية المتعددة والتي استخدمت في تربية وتعليم هؤلاء الأطفال.

بعد ذلك، وفي ظروف مشابهة، بدأنا حياتنا في عزلةٍ وسلام. فلأمدٍ طويل، لم يدر أحد ولم يلاحظ ما كنا نفعله. على أية حال، لا بد من تلخيص الأحداث الرئيسية لهذه المرحلة، ربما في ذلك ما يفيد. لم أتدخل - إطلاقاً - إلا فيما يبدو، وبشكلٍ علمي، أنه حدث ذو دلالة واضحة. وقد تجلّت مجموعة ملاحظات واكتشافات مهمة.

19 . ملاحظات واكتشافات

1 . تكرار التمرين

كان أول ما لاحظته - بشكل محدد - هو طفلة صغيرة في حوالي الثالثة من عمرها، منشغلة في إدخال وإخراج الأسطوانات في أوعيتها. هذه الأسطوانات مختلفة في أحجامها، ولها فتحات تطابق حجمها كي تدخل فيها، مثل سداة القنينة. كنت مندهشة لرؤية هذه الطفلة الصغيرة جدًا تعيد هذا التمرين مرارًا وتكرارًا بكل هذا الحماس والاهتمام. ولم تُبدِ أي مظهر لزيادة السرعة أو المهارة في إتمام المهمة. لقد كانت نوعًا من الحركة الدائمة المستمرة وطبقًا للعادة، بدأت حساب عدد المرات التي كررت فيها التمرين. بعدها، قررت أن أرى كيفية تركيزها في وظيفتها الغريبة هذه. فطلبت من المعلمة أن تجعل بقية الأطفال يغنون ويتحركون حولها. لكن ذلك - كله - لم يزعج الطفلة ولم يعطل عملها المستمر. بعدها، قرعت - بلطف - المقعد الذي كانت تجلس عليه، ثم جلست على رأس منضدة صغيرة مجاورة. وعندما صعدت إلى المقعد الذي تضع فوقه أشياءها، نقلتها ووضعتها فوق ركبتيها،

واستمرت في عمل المهمة ذاتها. ومن اللحظة التي بدأت فيها العد، أعادت هي التمرين اثنين وأربعين مرة. بعدها توقفت وكأنها استيقظت من حلم، وابتسمت في سعادة عيناها تلمعان وهي تتلفت حولها .. إنها - حتى - لم تلاحظ ما قمنا بفعله لإزعاجها. والان - وبدون سبب واضح - انتهت مهمتها .. لكن، ما الذي انتهى، ولماذا؟

لقد أعطانا هذا، أول استبصار بالعمق اللانهائي وغير المكتشف في عقل الطفل. هذه الطفلة الصغيرة كانت في عمر يكون الانتباه فيه متقلبا، والعقل - أثناءه - ينتقل من شيء لآخر دونما قدرة على التوقف. وهذا ما يؤكد أنها مستغرقة تماما فيما تفعل لدرجة أن «الأننا» الخاصة بها أصبحت غير حساسة لمثير خارجي. أما تركيزها فقد كان مصحوبا بحركة يديها المتناغمة، وكأنها توائم ما بين الأشياء المختلفة.

الوقائع المتشابهة تظل في حالة تكرار، والأطفال - في كل مرة يظهرون من أمثال هذه التجربة، إنهم يشبهون الأفراد في حالة نشاط متجدد. إنهم مملوون بالحياة، ويشبهون هؤلاء الذين يملكون خبرة أعطتهم بهجة بالغة.

ورغم أن مرحلة التركيز، التي جعلت الأطفال منصرفين عن العالم الخارجي لم تكن كثيرة الحدوث، فقد لاحظت سلوكا غريبا شائعا في كل تصرفاتهم. إنه ما أطلقت عليه مؤخرا «تكرار التمرين».

في يوم ما، حين شاهدت أيديهم الصغيرة القذرة أثناء العمل، فكرت في تعليم الأطفال شيئا مفيدا، كيف يغسلون أيديهم. لاحظت - بعد

ذلك - أن الأطفال يستمرون في غسل أيديهم، حتى بعد أن تصبح نظيفة. وعندما يغادرون المدرسة، يغسلونها مرة أخرى. وأخبرتني بعض الأمهات أنه في الصباح، كن يجدن أطفالهن في المغسلة يغسلون أيديهم. حتى أن بعضاً منهن كن يفتخرن بعرض الأيدي الصغيرة النظيفة لأطفالهن كي يتسولن بها في مناسبة ما! والأطفال يكررون التمرين مرة ومرة، دوغما سبب ظاهري. وهذه التكرارية حدثت في أنشطة أخرى، وكلما كان تعلم التمرين بمزيدٍ من العناية، وبكل تفصيلاته، أصبح موضوعاً لا نهائي التكرار.

2. الاختيار الحرُّ

حقيقة أخرى غاية في البساطة، تجلّت بوضوح: الأطفال يستخدمون الأشياء التي توزع عليهم - مبعثرة - ثم يعيدونها إلى مكانها المناسب. وقد أخبرتني المعلمة أنها متى جمعت هذه الأشياء؛ ينهض الأطفال من مقاعدهم ويقترّبون منها. وعندما ترسلهم من حيث أتوا، فهم - دائماً - يعودون إلى مقاعدهم. ومع ذلك، فقد استنتجت أن الأطفال كانوا غير مطيعين.

وكما شاهدتهم، أدركت أنهم يتمنون وضع الأشياء - مرة أخرى - في أماكنها. وتركهم يفعلونها، وكانت بداية جديدة لنوع من الحياة الخاصة بهم. لقد كانوا حريصين على وضع الأشياء في نظام متراسة بعضها فوق

بعض. وإذا ما سقط كوب للماء من يدي طفل، سارع الآخرون لجمع القطع المكسورة، وتنظيف الأرض.

ذات يوم، أسقطت المعلمة صندوقًا يحتوي - تقريبًا - على ثمانين مربعًا صغيرًا من ألوان مختلفة الدرجات. أذكر حيرتها وارتباكها حين تعسّر عليها عزل هذه الألوان المختلفة المتدرجة. لكن هنا في هذه اللحظة - أسرع الأطفال - وسط دهشتنا البالغة، بترتيبها بسرعة ووفقًا لنظامها المناسب. وفي هذا تبدو الحساسية الرائعة المدهشة التي فاقت قدراتنا نحن.

ذات يوم آخر، أتت المعلمة متأخرة قليلًا عن موعد المدرسة، وقد نسيت إغلاق الدولاب في اليوم السابق.. وجدت الأطفال قد فتحو بابَه كثيرٌ منهم كان واقفًا بجواره، بينما آخرون يحملون أشياء من داخله ويذهبون بها بعيدًا. واعتبرت المعلمة أن هذا نوعٌ من السرقة. واعتقدت أن هؤلاء الأطفال يقللون من احترام المدرسة والمعلمة. لذا، عليها أن تعاملهم بقسوة وأن تقدم مجموعة المبادئ الأخلاقية التي تفقدهم بها. ومن ناحية أخرى، فقد فسّرت أنا الحادث كإشارة تُعبّر عن معرفة الأطفال الجيدة بتلك الأشياء، لدرجة تجعلهم قادرين على صنع «اختيار شخصي حر». هذا هو مدلول الحالة.

لقد بدأ نشاطٌ جديد وممتع بالنسبة للأطفال. إنهم الآن قادرون على اختيار عملهم وما يشغلهم، طبقًا لأفضليّاتهم الخاصة بهم. ومن هذا الوقت - فصاعدًا - صنعنا دواليب منخفضة حتى يتمكن الأطفال من

أخذ المواد الموجودة بداخلها، مما يتوافق وحاجاتهم الداخلية. وهكذا أضيف مبدأ «اختيار حر» إلى مبدأ «تكرار التمرين».

إن الاختيار الحر الذي صنعه الأطفال، جعلنا قادرين على ملاحظة حاجاتهم النفسية وأهدافهم. وكان أول اكتشاف مثير، هو أن الأطفال لم يختاروا كل الأشياء المتنوعة التي قدمت لهم، لكن - فقط - أشياء معينة. وغالبًا ما ذهبوا لاختيار الأشياء نفسها، وبعض منها بتفضيل واضح .. أشياء أخرى تم تجاهلها تمامًا وبدأ يعلوها التراب.

سأريهم جميع الأشياء، وستبعثرها المعلمة معًا ثم تشرح استخدام كل منها. لكن الأطفال لن يلتقطوا بعضها - مرة أخرى - إلا وفقًا لما يريدونه فقط.

أدركت بعدها أن كل شيء يخص الطفل لا يجب - فقط - أن يكون وفقًا لنظام، بل يجب أن يكون «متناسبًا مع استخدام الطفل». وأن هذا الاهتمام والتركيز ينبثق - بشكل محدد - من تجاهل كل ما هو مشوّش أو زائد أو غير ضروري.

3 . الألعاب

رغم أن التلاميذ - في مدرستنا الأولى - تمكنوا من اللعب ببعض الألعاب الحقيقية الرائعة، إلا أنهم لم يهتموا كثيرًا بذلك؛ أدهشني ذلك مما قررت معه أن أساعدهم في اللعب بألعابهم. أنهم كيف يتناولون

الأطباق الرقيقة الصغيرة، ويوقدون النار في مطبخ العروسة، ويضعون
بجوارهم عروسًا جميلة. اهتم الأطفال واستمتعوا - لحظيًا - ثم انفضوا
عن ذلك إلى شأنهم. وحيث أنهم لم يختاروا هذه الألعاب؛ أدركت
أن اللعب في حياة الأطفال ربما يمثل أهمية ضئيلة تمثل مكانة
أدنى تعلوها أشياء أفضل بالنسبة لهم يفعلونها. يشعر الطفل أنه
يملك لحظة عظيمة يعمل فيها، أفضل من مجرد الارتباط المؤقت بهذه
الأشياء. إنه ينظر إلى اللعب كما ننظر نحن إلى لعبة الشطرنج أو
البريدج. فهذه متعة تستغرق ساعات الفراغ، لكنهم سيتألمون إذا ما
أجبرناهم على مواصلة الانشغال بها زمنًا ممتدًا. نحن ننسى ونتجاهل
البريدج عندما يكون لدينا عملٌ يجب إتمامه. وحيثما كان لدى الطفل
شيءٌ مهمٌ على الأرض، فلن يهتم باللعب.

لأن الطفل - حاليًا - يمر من مرحلة أدنى إلى مرحلة أخرى أعلى،
فكل لحظة تمر به، لحظة ثمينة. ولأن الطفل حاليًا ينمو، فهو
ينجذب لكل شيء يسهم في نموه، ولا يعير اهتمامه لما لا قيمة له.

4. الثواب والعقاب

دخلت المدرسة - ذات مرة - ورأيت طفلًا جالسًا في مقعدٍ يستغرق
فيه جسده بأكمله، وهو في وسط الحجرة، بلا شيء يفعله. كان يرتدي
على صدره إحدى الزينات التي تعطيها المعلمة مكافأة لحسن الخلق.
ومع ذلك، أخبرني المعلمة أن صديقنا الصغير كان معاقبًا. طفلٌ آخر

أخذ المكافأة، تسلمها ثم وضعها بنفسه على صدره. لكن وبعد قليل، أخذها ليعطيها لذلك الطفل المعاقب، وكأنها شيء بلا جدوى، بل هي عائق لمن يريد أن يعمل.

نظر الطفل القابع في المقعد، غير مبالي بالشارة المزيّنة، وحدثك يهدوء - في جوانب الحجرة، متناسيًا تمامًا أي شعور بالحنج. هذه الحادثة المفردة جعلتنا ندرك عبثية الثواب والعقاب ولا جدواهما. لكننا ذهبنا إلى ملاحظات أبعد من ذلك في تفصيلاً أكثر خطورة. فالخبرة الطويلة - وحدها - هي التي تؤكد حدسنا وإدراكنا الأول. فحتى المعلمة وصلت إلى حالة من الشعور بالحنج أن تثيب أو تعاقب الأطفال، فهم لا يبدون أي فرق تجاه أي معاملة. والمفاجأة الأكبر كانت رفضهم المتتابع للجائزة. وهذا الرفض علامة تشير إلى أن وعي الإحساس بالذات - لدى الأطفال - ليس له وجود واضح مؤكد.

في النهاية، تخلينا عن كل من عقاب الأطفال. أو إثابتهم.

5. الهدوء

دخلت إلى حجرة الدراسة - ذات يوم - وأنا أحمل بين ذراعيّ رضيعة عمرها أربعة شهور، كنت قد أخذتها من والدتها في فناء المدرسة. كانت الرضيعة مربوط حولها لفافات (قمط) كما هي العادة بين الناس في هذا الحي. كان وجهها ممتلئًا مشرقًا متوردًا. وظل هدوؤها مؤثرًا في بشكل كبير، وتمنيت أن يشاركني الأطفال مشاعري. قلت لهم: «إنها

لا تُحدث صوتاً». ثم أضفت - مداعبة - «لا أحد منكم يمكنه أن يفعل مثلها». فوجئت - تماماً - وأنا أرى الأطفال ينظرون إليّ بقوة رائعة. كانوا يبدون - بالنسبة لي - وكأنهم معلقون بشفتي، متحمسين لما كنت أقول. وواصلت: «لاحظوا كيف يبدو تنفسها رقيقاً. لا أحد منكم يستطيع أن يتنفس بهدوء مثلها». فجأة وبدون حركة، بدأ الأطفال يجلسون أنفاسهم. في هذه اللحظة، كان هناك هدوء مدهش. إن دقائق الساعة التي لم تكن تُسمع - عادةً - بدا صوتها عاليًا، بل مزعجًا. وبدا أن الرضيفة الصغيرة قد بعثت جواً من الهدوء داخل الحجرة، مما لم يوجد في الحياة اليومية من قبل.

لم يقم أحد بأي حركة. لقد كانوا يعمدون - من خلال الخبرة - إلى الهدوء وإعادة إنتاجه. وترك الأطفال أنفسهم للعمل. ولا يمكن القول أنهم يعملون بحماسة، حيث تتطلب شيئاً واقعياً ظاهراً بوضوح. لكن هنا، كان شيء آخر يزهر ويتفتح من الرغبة العميقة.. ظل جميع الأطفال يتنفسون بهدوء، قدر الإمكان، ويعطون انطباعاتاً هادئة ومقصوداً - مثل أولئك المستغرقين في التأمل. ثم، شيئاً فشيئاً ووسط هذا الهدوء المؤثر، استطعنا جميعاً أن نستمع إلى أصوات رقيقة مثل تلك التي تصدر عن سقوط قطرة ماء من أعلى، أو صوت طائر مغرد.

كان هذا هو منشأ طريقتنا في «تمرين الهدوء»

حدث معي - يومًا - أن تمكنت من استخدام هذا الهدوء لاختبار حدة سمع الأطفال. من مسافة قليلة بدأت في النداء عليهم، بالاسم همسًا. وعلى من يسمع اسمه أن يأتي إليّ سيرًا على قدميه دون أن يحدث صوتًا. واعتقدت أن هذا التمرين على الانتظار الصبور، سيكون محاولة من أجل الأطفال، لدرجة أنني أحضرت معي قطعًا من الحلوى والشيكولاتة لأكافئ بها الأطفال المستجيبين تمامًا لمحاولتي. لكنهم رفضوا الحلوى. كأنهم - فيما يبدو - كانوا يقولون: «لا تفسدي هذا التمرين الجميل. فعقولنا مازالت معجبة تيًا بنفسها.. لا تصرفي انتباهنا».

هكذا، توصلت إلى فهم مؤداه أن الأطفال ليسوا - فقط - حساسين للهدوء، لكن أيضًا، بالنسبة لصوت يناديهم حتى لو كان غير مسموع في هذا الصمت. إنهم يأتون سيرًا على أطراف أصابعهم ويتكلمون بحذر، ولا يستندون على أي شيء يمكن أن يُصدر صوتًا فيجعلهم مسموعين.

هكذا، أدركت أن كل تمرين يستغرق حركة، له أخطاء يمكن تصحيحها. مثلًا في هذه الحالة حين أوقفت الضوضاء عن طريق الهدوء. مما ساعد الطفل كثيرًا. وتكرار مثل هذا التمرين يمكن أن يقود الطفل إلى إتقان التصرفات الخارجية - بأكمل - مما لا يمكن تحقيقه عن طريق تعليمات لاحقة.

أصبح أطفالنا رشيقي الحركة متنبهين وحذرين. يسرون حول أشياء متنوعة دون أن يصطدموا بها. يحرون - بخفة - دون أن يحدثوا صوتاً. لقد كانوا مستمتعين ببلوغ أعلى درجات الاكتمال الذي أنجزوه بهذه التصرفات. وكانوا شغوفين باكتشاف قدراتهم الاحتمالية الممكنة، وتمرن أنفسهم في عالم غامض حيث حياتهم لم تزهر بعد.

بعد زمن طويل، أقنعت نفسي أن هناك سبباً جوهرياً وراء رفض الأطفال للحلوى. فلم يكن هذا الرفض - بالنسبة لي - شيئاً عادياً، حيث الأطفال يحبون الحلوى بشكل لا خلاف عليه. وقررت أن أجري اختباراً أبعد من ذلك. أحضرت معي إلى المدرسة، بعض الحلوى، لكن الأطفال رفضوها، ورفضوا أن يضعوها في جيوب ثيابهم - ولأنهم كانوا فقراء جداً، فقد تصورت أنهم - ربما يريدون أخذ الحلوى إلى بيوتهم. قلت لهم: «قطع الحلوى التي أعطيتها لكم، يمكنكم أخذها إلى البيت، لكنها لكم. فأخذوا الحلوى ولم يأكلوها، لكن وضعوها في جيوبهم. كانوا ممتنين لإعطائهم هدية، وعلى أية حال، وكما اكتشفوا من قبل، فهي تشبه هدية المعلمة لأحدهم حين زارته وهو مريض. وقتها، كان الولد الصغير مبتهجاً جداً لزيارتها وحضورها إلى بيته، لدرجة أنه فتح الصندوق الصغير وأخرج منه كمية كبيرة من قطع الحلوى - التي تلقاها - وأخذها إلى المدرسة وقدمها لمعلمته. ظلت الحلوى المغربية - هناك - لعدة أسابيع، ولم يمسهها الطفل. كان هذا الاتجاه سائداً وسط الأطفال، وجاء زائرون كثيرون لزيارة مدرستنا - مؤخراً - للتحقق من هذه الظاهرة التي قرأوا عنها في كتب كثيرة.

إنه نمو عضوي وطبيعي في داخل الأطفال. فلم يفكر أحد في تعليمهم العمل التكفيري (عقاب الذات)، أو الامتناع عن تناول الحلوى، أو عدم الواقعية كما قد يقال: «يجب ألا يلعب الأطفال وألا يتناولوا الحلوى». للملاءمة ذلك لهم، رفض الأطفال هذه المسرات الخارجية عديمة الجدوى، وكان تفتحهم أصبح يسمو إلى الحياة الروحية. وذات يوم، أحضر لهم شخصٌ مخبوزات تم إعدادها على هيئة أشكال هندسية. رغم أنهم أكلوها، إلا أنهم نظروا إلى بعض قائلين: «هنا دائرة! هنا مستطيل!» وتروى قصةٌ مسلية عن طفلٍ لوالدين فقيرين، كان يشاهد والدته في المطبخ. كانت تحمل قالبًا من الزبد، وقال الطفل: «إنه مستطيل!». قطعت الأم ركن القالب، فقال الطفل «الآن لديك مثلث!»، ثم أضاف: «إنه - في الحقيقة - شبه منحرف». ولم يقل أبدًا - ما كان متوقعًا مثل «أعطني بعضًا من الخبز والزبد».

6. الكرامة

قررت - يومًا - أن أقدم للأطفال درسًا فكاهيًا عن كيفية تنظيف أنوفهم. بعد أن أريتهم طرقًا مختلفة لاستخدام منديل اليد، وانتهيت بتوضيح كيف يمكن إتمام هذا الفعل، دون أن أبدوا - بقدر الإمكان - متطفلة عليهم. أخذت منديلي من جيبِي بطريقة يصعب عليهم رؤيتها ونظفت أنفي برقة قدر استطاعتي. تطلع إلى الأطفال - بانتشاء - لكنهم فشلوا في أن يضحكوا. تعجبت لماذا؟ لكن - بصعوبة - أنهيت

إيضاحي، عندما هيأوا أنفسهم ودخلوا في تصفيق استحساني يشبه ما نراه من ترحيب حماسي لأداء مسرحي. لم أسمع - قط - هذه الأيدي الرقيقة تصنع مثل هذه الضوضاء، ولم يكن لديّ أدنى فكرة أن مثل هؤلاء الأطفال الصغار سيصنفون بمثل هذا الحماس. ويبدو أنني - ربما - لمست نقطة حساسة في حياتهم الاجتماعية الصغيرة .. واجه الأطفال صعوبة في تنظيف أنوفهم. ومنذ تم تعنيفهم على هذا؛ أصبحوا حساسين تجاهه. فالصياح الذي سمعوه، ورشقهم بنعوت سيئة توجه إليهم، يؤذي مشاعرهم. وتضاف الإهانة إلى الظلم عندما يدفعهم ذلك - في النهاية - أن يأتوا إلى المدرسة وهم يربطون مناديلهم تتدلى من ثيابهم الخارجية حتى لا تُفقد منهم. لكن - حقيقةً - لم يعلمهم أحد كيف ينفخون أنوفهم لينظفوها. وعندما حاولت فعل ذلك، شعروا بتعويض عن المهانات السابقة، وكان تصفيقهم يعني أنني لم أعاملهم - فقط بنوع من العدل والإنصاف، بل أنني جعلتهم قادرين على انتزاع ثباتٍ جديدٍ في المجتمع.

لقد علمتني الخبرة الطويلة، أن هذا هو التفسير المحتمل للحادثة. وأصبحت أقدر حقيقة أن الأطفال لديهم حس عميق بالكرامة الشخصية. والكبار - كقاعدة - ليس لديهم المفهوم الواضح حول الكيفية السيئة التي يجرحون بها الصغار ويقمعونهم، بكل سهولة.

في ذاك اليوم المحدد، وفي لحظة مغادرتي المدرسة، بدأ الأطفال يتصايحون: «شكرًا لك .. شكرًا لك على هذا الدرس». وعندما تركت المبنى، تبعوني في هدوء وبإصرار، حتى قلت لهم أخيرًا: «عندما

تعودون، سيروا على الرصيف، وتنبهوا ألا تصطدموا بركن الحائط». وعادوا أدراجهم ثم اختفوا خلف البوابة وكانهم يطيطون. لقد أثرت في هؤلاء الصغار الفقراء بسرعة ملحوظة.

وعندما جاء زائرون إلى المدرسة، تصرف الأطفال بكرامة وباحترام للذات. عرفوا كيف يستقبلون هؤلاء الزائرين بتأثيرٍ دافئ وأروهم كيف ينجزون أعمالهم ومهامهم بفرحة ورضا.

تم إبلاغنا - يومًا ما - أن شخصًا مهمًا أراد أن يُترك - بمفرده - مع الأطفال، حتى يتمكن من ملاحظتهم بنفسه. أخبرت المعلمة: «دعي الأمور تسير ببساطة كما هي». وعودةً إلى الأطفال، أضفت: «إن غدًا لديكم زائر. وأود أن يقتنع أنكم أفضل أطفال في العالم». وفيما بعد، سألت المعلمة كيف كانت الزيارة؟ أجابت: «لقد كانت ناجحة تمامًا». ثم استرسلت: «بعض الأطفال قدموا مقعدًا للزائر وقالوا بأدب: هَلَّا جلست من فضلك؟. وقال آخرون: مع السلامة. وعندما غادر المدرسة، أطلوا من النافذة منادين: شكرًا لزيارتك، عد ثانيةً، يومًا سعيديًا!». .. سألتها «لكن لماذا؟ هل حددت هذا كهدف ونقلته إليهم في تعليمات؟ لقد أخبرتك ألا تفعلي شيئًا غير عادي، وأن تترك الأطفال يتصرفون ببساطة كما يودون». أجابت المعلمة: «لكنني لم أخبر الأطفال أي شيء». ثم مضت تشرح أن الأطفال أتموا أعمالهم بمزيدٍ من اللطف والبهجة يفوق ما تعودناه منهم. لقد سار كل شيء بروعة بالغة أدهشت الزائر وأثارت تقديره.

لقد شككت - لفترة من الوقت - فيما أخبرتي به المعلمة. وخشيت أنها ربما قد أعطت الأطفال تعليمات خاصة، لذا، سألتها عن ذلك مرة أخرى. لكن - في النهاية - رأيت الحقيقة بعيني. الأطفال قد اكتسبوا حسًا بذاتهم وبكرامتهم. احترموا زائريهم، وكانوا فخورين أن يُظهروا لهم ما استطاعوا فعله. ألم أقل لهم: «أود أن يقتنع أنكم أفضل أطفال في العالم؟»، لكن، ومن المؤكد، أن نصيحتي ليست هي ما جعلتهم يتصرفون كما فعلوا. فعندما أخبرتهم: «سيأتي إليكم زائر»، كان الأمر يبدو لهم كضيف في حجرة الرسم. هؤلاء الأطفال المملانون بالسحر والكرامة، كانوا دائمًا مستعدين لاستقبال زائرين. لقد فقدوا جنبهم وخوفهم المعتاد. الآن لا توجد عوائق تحول بين أرواحهم وبين محيطهم الخارجي. إن حياتهم كانت تتفتح - طبيعيًا - مثل زهرة اللوتس التي تتفتح وتشر أوراقها البيضاء لاستقبال أشعة الشمس، كما ترسل في المقابل - رائحة عبيرها الفواح. لقد كان الشيء الأهم، أن الأطفال لم يجدوا أي عوائق في الطريق إلى نومهم. ليس لديهم ما يخفونه، ليس هناك ما يخيفهم، أو ما يتجنبونه. كل ما حدث كل شيء كان بمثل هذه البساطة. إن اعتزازهم بأنفسهم استطاع أن ينتقل إلى حضورهم وتكيفهم الكامل مع بيئتهم.

كان الأطفال متنبئين، نشطاء، لكنهم رابطو الجأش. يُشعرون دفنًا روحيًا يخطف قلوب الكبار الذين يتواصلون معهم. أشخاص كثيرون بدأوا في زيارتهم ليعيشوا تلك الخبرة بأنفسهم. وقد تم استقبالهم بحب مؤثر.

لقد كان مثيراً أن نرى ردود الفعل تصدر عن تلك الزيارات. سيدات أنيقات يتحلين بالمجوهرات كما لو كنّ ذاهبات لحفل استقبال استحوذ عليهن الإعجاب بالأطفال. كما كن مسرورات بالطريقة التي عبر بها الأطفال عن دهشتهم.

مسحوا بأيديهم على ملابس السيدات الجميلة، ربتوا - بلطف على أيديهن الناعمة المعطرة. اقترب أحدهم من سيدة في ثوب الحداد ووضع رأسه الصغير عليها، ثم أخذ إحدى يديها واحتضنها بين كفيه الصغيرتين. لاحظت بعدها - وبمزيد من العاطفة الجياشة - أن أحدًا لم يعطها مثل هذه الراحة، كما فعل هؤلاء الأطفال الصغار.

يومًا ما اصطحبت ابنة رئيس الوزراء، سفير جمهورية «الأرجنتين» في زيارة إلى «بيت الأطفال». وقد نُصِّحَ السفير بعدم إعطاء أية ملاحظة عن زيارته المرتقبة، حتى يكون شاهد عيان على حالة الأطفال التي كان قد سمع عنها. عندما وصلوا إلى المدرسة، أخبروا أنها مغلقة، فقد كان اليوم عطلة. ثم جاء إليهم بعض الأطفال الذين كانوا في الفناء، وشرح أحدهم بطبيعية تامة «ليس هناك أي فرق أن هذا اليوم عطلة. نحن هنا جميعًا بداخل المبنى، والحارس لديه المفتاح». ثم جرى الأطفال ينادون رفاقهم بالاسم. كان باب حجرة الدراسة مفتوحًا، وكلهم جالسون يعملون. وكانت حالتهم الرائعة هي إجابة السؤال وبرهانه.

امتت أمهات الأطفال كثيراً لما كان يحدث ثم اتين لإخباري عما يحدث في داخل دائرة الأسرة: «هؤلاء الأطفال، صغار الثالثة أو الرابعة، يخبروننا بأشياء تنسب في المضايقة (إذا لم يكونوا هم أطفالنا). يقولون لنا مثلاً: يداك قذرتان، عليك غسلهما. أو: يجب عليك تنظيف البقع من ملابسك. وعندما سمعناهم يقولون لنا مثل هذه الأشياء، فنحن لا نضجر منهم. فتحذيراتهم تأتي إلينا، كما الحلم». حقيقةً أصبح هؤلاء الفقراء أنظف كثيراً وأكثر ترتيباً. لقد اختفت القدر الفخارية المكسورة من أعتاب النوافذ. وبدأ زجاج النوافذ يُنظف ويُلمع، والنباتات المزهرة بدأت تثمر في النوافذ المواجهة للفناء.

7 . الفوضى

رغم الحرية السهلة في سلوكهم، يدي الأطفال بشكل عام انطباعاً عن كونهم فوضويين بشكل غير عادي. يعملون بسرعة، يعتمد كل منهم البقاء في مكان حدده لنفسه، يسارعون إلى الأشياء التي يعملون بها وكانهم ينتزعونها أو يستبدلونها. يغادرون حجرة الدراسة فينظرون إلى الفناء ثم يعودون. ينفذون دعوة المعلمة بسرعة مذهشة. وقالت لي: «إنهم يفعلون - بالضبط - ما أخبرهم به، لدرجة أنني بدأت أشعر بمسئولية عن كل كلمة أقولها».

في واقع الأمر، كانوا يبادرون بالفعل قبل أن تتم المعلمة طلبها. على سبيل المثال: إذا أرادتهم أن يبدأوا تمرين الهدوء، يتوقف الأطفال عن

الحركة قبل أن تتمكن من إنهاء الطلب. وعلى أية حال، فهذا المظهر الجدير بالثقة، لا يحول بين تصرفهم بطريقتهم الخاصة، فيرتبون يومهم كيفما يريدون. سيأخذون الأشياء التي يرغبونها لعملهم، ثم يرتبون المدرسة. فإذا ما تأخرت المعلمة في الحضور، أو تركت الأطفال بمفردهم، سيذهب كل شيء إلى مكانه، وبالضبط. إن ما كان يفتن الزائرين - بشكل خاص - هو قدرة هؤلاء الصغار على الجمع بين النظام والفوضى، في آنٍ معاً.

ما مصدر الفوضى التامة الكامنة فيهم، حتى في فترات الهدوء المقصودة؟ وما مصدر الطاعة التي غالباً ما تستبق تنفيذ الأوامر الموجهة إليهم؟.

ويمكن تلئس الجو العام للسلام الذي يسود حجرة الدراسة حال انشغال الأطفال في عملهم. لا أحد يمكن أن يعكر صفوه، كما لا يمكن لأحد الحصول عليه بوسائل وطرق خارجية.

8 . الكتابة والقراءة

أتت إليّ - يوماً ما - اثنتان أو ثلاثة من الأمهات طلباً لتعليم الأطفال كيفية القراءة والكتابة. وكانت السيدات أنفسهن أميات. وكان هذا الطلب بناءً على رغبة جميع أمهات أطفال المدرسة. وعندما أدركت أن مثل هذا المشروع كان شيئاً أكبر مما في ذهني، استمرت السيدات في الإلحاح والاستعطاف.

وكان هذا مؤشراً لبداية من المفاجآت العديدة كل ما قمت بتعليمه لهؤلاء الصغار ذوي السنوات الأربع أو الخمس، هو بعض حروف الهجاء (الألف باء). وقد أعطيتها للمعلمة مجزأة على بطاقات. بعضها كان مصنوعاً من ورق السنفرة، حتى يستطيع الأطفال المرور على الحروف بأصابعهم، ويلمسوها ويشعروا بأشكالها. وضعت هذه البطاقات على لوح خشبي مُعد لهذا الغرض، وجمعت الأحرف متشابهة الأشكال - معاً - حتى يتبع الأطفال الملمس المتشابه، وهم يمشون بأصابعهم على هذه الحروف. كانت المعلمة راضية عن هذا الترتيب، ولم تفعل أكثر من مساعدة الأطفال.

ولم نفهم لماذا يتحمس الأطفال بهذه الصورة الواضحة؟ إنهم يسيرون في موكب ويحملون حروف «الألف باء» كالرايات، ويطلقون صيحات الفرح. لكن لماذا؟.

ذات يوم، فاجأت طفلاً كان يسير بمفرده ويردد: «لعمل «صوفيا»، يجب أن تحصل على (S) و (F) و (I) و (A)». وبهذا ردد الأصوات صانعاً الكلمة. هكذا ارتبط بدراسة وتحليل كلمة اخترتها في عقله ثم بحث عن ارتباطها الصوتي. بشغف بالغ صنع اكتشافاً فهم به أن كل صوت من هذه الأصوات مرتبط ومتوافق مع حرف من حروف الأبجدية. وفي حقيقة الأمر، ما الهجاء الصوتي غير كونه تطابقاً بين صوت وإشارة؟ اللغة شيء أولي يمكن نطقه. إنها تكتب نسخاً حرفياً. تنقله الأصوات إلى إشارات مرئية. والتقدم في الكتابة يتأكد خلال النمو المتوازي بين المكتوب والمنطوق (اللغة المكتوبة والمنطوقة معاً).

في البداية، تتساقط اللغة المكتوبة من نطقها نسخة مطابقة، مثل القطرات المتفرقة التي - في نهاية الأمر - تجري معًا، لتكوّن تدفقًا متميزًا من الكلمات والجمل المكتوبة.

إن الكتابة مفتاحٌ لكسبٍ مزدوج. إنها تُمكن اليد من إتقان مهارة حيوية، مثلما في الكلام. ثم إنها تخلق معانٍ ثانية للتواصل حيث تعكس الكلمة المنطوقة في كل تفصيلاتها هكذا تعتمد الكتابة على العقل واليد.

ويجب أن تتدفق الكتابة - منطقيًا - كنتيجة طبيعية لنمو الهجائية التامة. وللكتابة المتوقعة والمحتملة، لا بد أن تتمكن اليد من رسم إشارات وإشارات الأبجدية - كقاعدة - سهل رسمها مادامت لا تقدم إلا أصواتًا محددة. لكنني لم أعتقد في كل ذلك، إلا بعد أن علمَ الأطفال أنفسهم كيف يكتبون.

وكان هذا هو الحدث الأعظم الذي احتل مكانة واضحة في بيت الأطفال الأول. وكان أول طفل صنع هذا الاكتشاف مذهولاً لدرجة أنه صاح بصوت عالٍ: «لقد كتبت .. لقد كتبت !» .. جرى الأطفال نحوه لرؤية الكلمات التي نقشها على الأرض بقطعة من الطباشير. صاحوا وكانهم يندفعون نحو البحث عن مواد الكتابة: «أنا أيضًا .. أنا أيضًا !» .. صاح بعضهم وازدحموا حول السبورة. واتجه بعضهم للكتابة على الأرض كلهم بدأوا يكتبون.

نشاطهم اللامحدود كان أشبه بالسيل. لقد كتبوا في كل مكان، على الأبواب، والحوائط، وحتى على قوالب الخبز (التوست) قبل تقطيعها، في البيت. كان الأطفال في حوالي الرابعة، واكتشافهم الكتابة لم يكن متوقعًا على الإطلاق. قالت لي المعلمة: «كانت الساعة الثالثة تمامًا، حين بدأ - بالأمس - طفل صغير في الكتابة».

لقد كنا في غاية التأثر، وكنا شهودًا على معجزة. وقد تسلمنا - مبكرًا - كتبًا جميلة مزينة، لكن الآن عندما نعطيها للأطفال، يستقبلونها بفتور. إنهم يكوّنون صورًا جميلة، كانت حقيقية وكانت - فقط - هي ما ينصرفون إليه باهتمامهم، وتمتص طاقاتهم في انشغالهم بما يفتنهم. إنهم يريدون أن يكتبوا لا أن ينظروا إلى صور. ربما لم يكن الأطفال قد رأوا صورًا من قبل، ولفترة طويلة حاولنا جذب اهتمامهم إليها، لكن صار مستحيلًا أن نجعلهم يفهمون ماذا نعني بالقراءة. لهذا، تركنا الكتب بجانبهم انتظارًا للوقت المناسب. كانوا نادرًا ما يهتمون بقراءة ما سبق كتابته. بل بدأ أنهم - تقريبًا - غير قادرين على قراءة الكلمات. وعاد بعض الأطفال ونظروا إليّ في ذهول عندما قرأت - بصوت عالٍ - الكلمات التي كتبوها، وكانهم يتساءلون: «كيف تعرفونها؟».

فقط بعد حوالي ستة أشهر بدأوا يفهمون ما هي القراءة. وفعلوا ذلك - فقط - من خلال القراءة والكتابة معًا. كانوا يشاهدون يدي وأنا أنقش الحروف على قطعة ورق بيضاء ثم أدركوا أنني كنت أتواصل مع أفكارهم كما لو كنت أتكلم. وبمجرد أن أصبح ذلك واضحًا لهم، بدأوا يأخذون قطع الورق التي كتبت عليها شيئًا، ويحملونها إلى

ركن ويجاولون قراءتها. كانوا يفعلون ذلك - عقليًا - دون نطق الكلمات. ويمكن لأي أحد أن يقول أنهم فهموا الكتابة، حين تملأ الابتسامات فجأة - وجوههم، وحين يقفزون بفرح، كما لو أن ربيعًا متخفيًا بداخلهم قد ظهر وانتشر فجأة.

كل جملة كتبها تكونت من «أمر» أستطيع إعطاءه بكلمة منطوقة: «افتح النافذة»، «اقترّب مني»، وما إلى ذلك .. هكذا بدأوا يقرأون. لقد حققوا تقدمًا حقيقيًا نحو نقطة الهدف، عندما تمكنوا من قراءة جمل طويلة مكونة من أوامر مركبة. لكن بدا أن الكتابة قد فهمها الأطفال ببساطة كطريقة أخرى للتعبير ذاته، تشكيل آخر من الكلام، يشبه الكلام نفسه، يتم مروره مباشرة من شخصٍ لآخر.

بالفعل، عندما حضر زائرون، ظل كثيرٌ من الأطفال هادئين. إنهم نفس الأطفال الذين كانوا - غالبًا - يبالغون في تحية الضيوف والترحيب بهم. لقد تحركوا في اتجاه السبورة وكتبوا: «من فضلكم اجلسوا»، «شكرًا لزيارتكم»، وإلى ما يشبه ذلك من عبارات.

كنا نتحدث - يومًا - عن كارثة مروعة حدثت في «سيسلي»: فقد دمر زلزال مدينة ميسينا تدميرًا كاملاً أودي بحياة الآلاف. اتجه طفل - في حوالي الخامسة - نحو السبورة وكتب: «أنا أشعر بالأسف... شاهدناه ونحن نتوقع أنه يعبر عن أسفه لما حدث. لكنه واصل الكتابة: «أنا أشعر بالأسف لأنني صغير». وكانت هذه ملاحظة غريبة فعلاً.

لكن صديقنا الصغير استمر مواصلاً: «إذا كنت كبيراً، كنت سأذهب لتقديم المساعدة».

لقد كتب بقليل من السهولة ما نفس به عن حسن نواياه. إنه ابنٌ لسيدة تساعده وتدعمه ببيع الأعشاب الطبية في الشوارع.

وكانت في انتظارنا مفاجأة أبعد من ذلك. فبينما نعد مادة لتعليم الأبجدية الرومانية للأطفال، نحقق محاولة أخرى مع الكتب، وبدأ الأطفال يقرأون كل مطبوعة يجدونها في المدرسة. وكان هناك أشياء حقيقية من الصعب فك رموزها، مثل لوحة التقويم التي طبعت عليها الكلمات بالنمط القوطي (لغة القوطيين الجرمانية الشرقية التي تكتب بحروف طباعة بارزة قديمة). في هذه الأثناء، جاء آباء الأطفال ليقولوا أن أطفالهم يقفون في الشوارع لقراءة إشارات المحلات، مما جعل التمشية مع أطفالهم مستحيلة.. ما حدث هو أن الأطفال كانوا أكثر شغفاً باستخراج حروف الأبجدية من قراءة الكلمات. لقد رأوا نوعاً مختلفاً من الكتابة، وتعلموا قراءتها من معنى الكلمة. كان تقدماً حديسياً كذلك الذي استخدمه الكبار في حل شفرات كتابة ما قبل التاريخ المنحوتة على حجر. إن المعنى الذي وجدوه في الرموز، هو إثبات أنهم حلوا شفراتها.

إذا تعجّلنا في شرح الكتابة المطبوعة، سنطفيئ شغف الأطفال وشوقهم للاستبصار الداخلي. فالإلحاح المستمر على قراءتهم للكلمات من كتب، سيكون له تأثير سلبي. ومواصلة هذه الممارسة الأقل

أهمية، سوف تضعف طاقات عقولهم الممتلئة قوة ونشاطاً. نتيجة ذلك، تظل الكتب لفترات طويلة حبيسة الدولاب. وبعد فترة بدأ الأطفال يتواصلون مع هذه الكتب. وبدأت في سلوك مليء بالإثارة. أتى طفل - ذات يوم - إلى المدرسة في غاية الاستثارة. كان يخفي في يده قطعة من الورق المجدد، وأسرّ إلى أحد زملائه: «خمن ماذا في هذه الورقة؟». «لا يوجد بها شيء، إنها مجرد قطعة ورق ممزقة». «لا، إنها قصة» «قصة بها؟». وجذب هذا حشداً من الأطفال الفضوليين. التقط الطفل صفحة من كتاب ملقى في كومة مهملات، وبدأ في قراءتها، بدأ يقرأ قصة!

حينها، فهموا معنى الكتاب، وأصبحت الكتب أشياء تحظى بطلب ملح ومستمر. ومع ذلك، عندما يجدون شيئاً ممتعاً للقراءة، ينزعون تلك الصفحة ويأخذونها بعيداً.. يا لهذه الكتب المسكينة! إن اكتشاف قيمتها كان - حقيقةً - شيئاً مربكاً ومحيراً. لقد تم استبدال النظام الآمن للمدرسة. وكان علينا أن نراقب ونفتش عن هذه الأيدي الصغيرة التي أصبحت مدمرة، من خلال حبها للقراءة. وحتى عندما تعلموا القراءة من كتب، وتعلموا احترامها، فقد تعلم الأطفال - ببعض مساعدة منا - الهجاء والكتابة بشكل تام يمكن أن يقارنوا به مع من هم في الصف الثالث في المدارس البريطانية.

9. التأثيرات الجسمية

خلال كل ذلك الوقت، لم يتم فعل شيء لتحسين صحة الأطفال. لكن الآن، لا يمكن لأحد وهو يرى الأطفال في إشرافهم وتفتحهم وحيويتهم ومحياهم الباسم، أن يدرك ما كانوا عليه من نقص في التغذية. فالأطفال المصابون بالانيميا كانت الحاجة إلى طعام بادية عليهم، وكذلك حاجتهم إلى رعاية طبية. والآن - جسمانياً يبدو وكأنه تمت رعايتهم بتعريضهم للهواء النقي المنعش ولاشعة الشمس الشافية.

حقيقة، إذا كانت التأثيرات النفسية تدخل كعامل مؤثر في التغيرات الكيميائية للخلايا الحوية، فهكذا يمكن أن تتدنى حيوية الفرد. وبالتالي يمكن أن يحدث العكس: فخبرة المحفزات النفسية، يمكنها زيادة معدل النشاط الكيميائي للخلايا الحوية، وهكذا تسهم في تحسين حيوية الفرد الجسمية. وأثبت هذا، عملنا مع هؤلاء الأطفال. واليوم، وبعد أن حظيت هذه الحقيقة بقبول عام، فإن خبراتنا لن تضيف جديداً، لكنها - في حينها - أحدثت ضجة.

تكلم الناس عن «معجزات» وأذاعوا عن هؤلاء الأطفال المدهشين المنتشرين في توهج. تكلمت عنهم الصحافة بتعبيرات ملأى بالحرارة والإعجاب. كتب وحتى روايات كتبت عنهم. ورغم أن المؤلفين قدموا وصفاً دقيقاً لما رأوه، فقد بدوا وكأنهم يصفون عالماً مختلفاً. تحدث

الناس عن اكتشاف الروح الإنسانية. إنهم اقتبسوا - حتى محادثات
الأطفال وحواراتهم وفي «إنجلترا» كان اسم الكتاب الذي تحدث
عنهم «الأطفال الجدد». وجاء أناسٌ كثيرٌ - خاصة من أميركا - ليتأكدوا
من صحة ما قرأوه.

20. الطريقة

هذا السرد المختصر للأحداث والانطباعات ترك مشكلة «الطريقة» مفتوحة. ما الطريقة التي استُخدمت للحصول على هذه النتائج ؟ هذا سؤال مهم أخذه في الاعتبار.

لم تكن هناك طريقة يمكن رؤيتها. ما كان يُرى هو «الطفل». روح الطفل المتحررة من المعوقات كانت تُرى وهي تتصرف طبقاً لطبيعتها الخاصة. إن خصائص الطفولة التي فرزناها تتصل - بمنتهى البساطة - بحياة الطفل، مثلما تتصل الألوان بالطائر، والأرجح بالزهور. لم يكونوا - على الإطلاق - نتيجة «طريقة تربية». مع الأخذ في الاعتبار أنه يجب توضيح ما يمكن للتربية أن تتدخل به في هذه القدرات الطبيعية. وذلك عن طريق حمايتها وتوجيهها إلى طريق يساعد طبيعة الأطفال على النمو.

ونحن نرى شيئاً موازياً لذلك في تعهد الزهور بالرعاية والجهد. بالرعاية المناسبة، يستطيع البستاني أن يملأ الجو بعبيرها الفواح، وبألوانها، وببقية نوعياتها الطبيعية.

وفي «بيت الأطفال»، يمكننا ملاحظة السمات النفسية الطبيعية. إنها لا تظهر مثل السمات الفسيولوجية للنباتات. حياة الطفل النفسية سلسلة لدرجة أن تجلياتها الطبيعية يمكنها التخفي - تمامًا - في بيئة غير محبة أو مفضلة، ويتم استبدالها وتغييرها بواسطة آخرين. وفي تطوير أي نظام للتربية، يتوجب علينا - بناءً على ذلك - خلق بيئة مواتية لتشجيع إزهار موهبة الطفل الطبيعية. كل هذا يتطلب إزالة المعوقات. وهذا يصبح أساسًا ونقطة انطلاق كل التربية المستقبلية.

لهذا؛ فما يجب عمله أولاً: هو اكتشاف الطبيعة الحقيقية للطفل، وبعدها مساعدته في نموه الطبيعي.

إذا فحصنا الظروف الخاصة التي تناسبت وإزهار السمات الطبيعية لهؤلاء الأطفال، سنذكر بعض الأشياء ذات الشأن الخاص. أولها كانت البيئة المبهجة التي وضع فيها الأطفال وتركوا - بكل استحسان - إلى ملاذهم ووسائلهم الخاصة بهم. ثم النظافة - حجرة دراسة بيضاء مزودة بمناضدها الجديدة الصغيرة، ومقاعد الصغرة، وأخرى صُنعت لهم خصيصًا، والمساحة الخضراء في فناء المدرسة تدفئها الشمس وتجذب هؤلاء الأطفال الفقراء القادمين من بيوتٍ بائسة. الظرف الثاني المحبب هو الشخصية المحايدة للكبار. فأبائهم كانوا أميين، ومعلمتهم امرأة عاملة عادية بدون طموح وبلا أفكار مسبقة. هذا أدى إلى نوعٍ من الهدوء العقلي.

وبالتالي، تم إدراك ضرورة أن تكون المعلمة هادئة، لكنه هدوء عادة يمثل جزءًا من شخصيتها، وبالتالي، فهي أقل توترًا وعصبية. لكن هنا يبرز سؤال الهدوء الأعمق، الفراغ، أو فلنقل: حالة لا تثقل كاهل الوضوح الداخلي. هذا الهدوء يتكون داخل التواضع الروحي والنقاء العقلي، وهو في غاية الأهمية لفهم الطفل. وبالتالي: يجب أن يتوافر في المعلمة.

ظرف آخر مهم كان الحقيقة التي يتوجب بمقتضاها، توفير وإعطاء مواد معينة للأطفال تمكنهم من العمل. وهي أشياء تتوافق مع حسهم وأفكارهم، وتمكنهم من تحليل بيئتهم وجعلها سهلة ميسرة. هذه المواد أو الأشياء أو الخامات، تعلمهم - أيضًا - كيف يركزون بطريقة لا تستدعي أي تعليمات صوتية.

من هنا يمكننا رؤية الظروف الخاصة المحيطة بالأطفال، وكيف كانت بيئة مناسبة، ومعلمة متواضعة، وأشياء مادية توافق حاجاتهم.

والآن، يمكننا وصف بعض الطرق التي يستجيب من خلالها الأطفال، لهذه المؤثرات الخارجية. الأكثر دهشة، وهو ما يشبه العصا السحرية التي تفتح البوابة إلى التعبير السوي عن موهبة الطفل الطبيعية، هو نشاط يركز على بعض المهام التي تتطلب حركة اليدين بتوجيه من العقل. هذا يعطي انبثاقًا لأنشطة أبعد وأكثر تجذرًا في داخلية الطفل مثل «تكرار التمرين» و«الاختيار الحر». وهذه تظهر الطفل الحقيقي. نحن نراه مفعماً بالحياة مبتهّجًا ولا يعرف التعب في

كده. فنشاطاته تشبه النشاطات النفسية التي تتربط - بقوة - مع حياته ونموه. وقد أصبح الاختيار - حالياً - مبدأً إرشادياً. إنه يستجيب - بحماس - للاختبارات المتنوعة مثلما حدث في اختبار «الهدوء». إنه يتجاوب مع دروس محددة تحث على عدم تجاوز الكرامة والعدل. إنه يستنير - بشغف - بالوسائل التي تمكنه من تنمية عقله. لكنه يتحول عن أشياء أخرى مثل الجوائز، والألعاب، والحلوى. إنه - أبعد من كل ذلك - يبدي لنا أن لديه حاجة للنظام والانضباط كمرآة لحياته الداخلية. إنه لم يزل طفلاً، غضاً، مرحاً، مخلصاً، وحيّاً. إنه يتصايح فرحاً ويصفق بيديه. إنه يسارع إلى تحية الآخرين بصوت عالٍ. إنه كريّم في شكره ويبدي امتنانه بندائه على من يحسن إليه ويجريه من خلفه. إنه صديق للجميع، معجب بما يراه، ويكيف نفسه مع كل شيء.

ونستطيع أن نرسم قائمة بما يفضّله وبطرقٍ يظهر لنا بها نفسه. كما يمكننا إضافة ما يرفضه كمضيعة للوقت:

1. ما يفضّله :

- تكرار التمرين .
- الاختيار الحر .
- التحكم في الخطأ .
- تحليل الحركات .
- تمرين الهدوء .
- السلوك الحسن في التواصل الاجتماعي .
- النظام في البيئة .
- الاهتمام بالنظافة الشخصية .

- تدريب الحواس .
- الكتابة منفصلة عن القراءة .
- الكتابة قبل القراءة .
- القراءة بدون كتب .
- الالتزام في النشاط الحر .

2. ما يرفضه :

- الثواب والعقاب .
- كتاب لتعليم التهجى .
- دروس في جمع مشترك^(٦) .
- البرامج والأخبارات .
- الألعاب والحلوى .
- طاولة المعلمة .

بالطبع يمكننا أن نجد في هذه القوائم، إطاراً عاماً لنظام في التربية. والأطفال أنفسهم قد أمّدونا بقواعد أساسية، وعملية، وإيجابية، في إنشاء نظام تربوي وجهته - مبدئياً - اختياراتهم. كما منعت حيوتهم الطبيعية، حدوث أخطاء.

هذه المبادئ ظلت محتفظاً بها وسليمة طوال الجهود اللاحقة في نظامنا التربوي. إنها تذكرنا بجنين «الفقاريات». ففيها يمكن رؤية خط مبهم وهو ما سوف يصبح العمود الفقري. داخل الخط يمكن رؤية

٦. هذا لا يعني أن «بيت الأطفال» لا يوجد فيه دروس جماعية، لكنها ليست الوحيدة، أو حتى الوسائل الرئيسية للتعليمات. فالدروس المشتركة تستخدم - ببساطة - كمدخل للمشكلات والأنشطة الخاصة.

عينات نموذجية دقيقة سوف تنمو في فترات متفرقة. والجنين نفسه ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، يتقدم الرأس، ثم الصدر، والبطن. ونظامنا التربوي شبيه بذلك. فإطاره العام ذو وحدة خطية تتحدد بعدد من الملامح الفردية التي تنمو مثل العمود الفقري. والكل قُسم إلى ثلاث مناطق مختلفة: البيئة، والمعلمة، والأشياء المختلفة التي يستخدمها الأطفال.

ومن المثير أن نحاول ترسيم تطور هذا الإطار المبتكر خطوة بخطوة. هكذا نستطيع تصوّر كيفية نمو الاستبصار الأولي داخل مفهوم غاية في الأهمية عن الاجتماع الإنساني. إن التناهي الناجح لهذه الطريقة الخاصة في التربية يمكن وصفها كعلم تطوري، الجديد فيه يأتي من حياة تتفتح - باحترام - لبيئتها. والبيئة ذاتها تتجاوز كونها مجرد شيء خاص. فرغم أنها تُعدّ بواسطة الكبار، إلا أنها - في الحقيقة - استجابة نشطة وحيوية للنماذج الجديدة التي تظهر في حياة الطفل النامي.

إن السرعة غير العادية التي تم بها تبني هذا النظام لتربية الأطفال بين كل شعب وكل حالة اجتماعية، قد زودتنا بمادة تجريبية وفيرة. وهذا جعلنا قادرين على تحديد السمات واللامح الشائعة والاتجاهات العالمية. وهكذا توصلنا إلى القوانين الطبيعية التي يجب أن تؤسس عليها تربية الأطفال.

بالنسبة للمدارس الأولى التي نمت من «بيت الأطفال الأصلي»، فقد احتفظت - بشكل خاص - بمواصلة التجريب انتظاراً لردود أفعال الأطفال. ظلت كذلك قبل أن نتبنى بقية الأشكال التنفيذية للعمل.

هناك مثالٌ مدهش على ذلك، يتمثل في أحد بيوت الأطفال في «روما». ظروف نشأتها كانت أكثر غرابة من مدرستنا الأولى. فقد شيدت لرعاية أطفال أيتام كانوا يعيشون في قلب واحدة من أخطر كوارث التاريخ، الزلزال في «ميسينا». وقد وجد ستون منهم - وحدهم - بين الركام. لم يعرف أحد أسماءهم أو حالاتهم الاجتماعية. لقد جعلتهم الصدمة المربعة، متشابهين، مكتئبين، صامتين، لا يختلف أيٌّ منهم عن الآخر. كان يصعب عليهم المشي أو النوم. وفي المساء يُسمع صراخهم ونحيبهم. وقد اهتمت ملكة «إيطاليا» بهؤلاء التعساء، ووضعت من أجلهم مكاناً مبهجاً. وكان بيتهم الجديد يتكون من قطع أثاث براقّة وجذابة وتناسب حجمهم. كان هناك حجرات صغيرة لها أبواب جميلة. مناضد صغيرة دائرية طليت بألوان زاهية، وبعضها مناضد أعلى ومستطيلة، ومقاعد، وأخرى ذات مسندين. النوافذ معلق عليها ستائر ملونة. وكان للصغار مكاتبهم الصغيرة، وشوكهم، وملاعقهم، وأطباقهم، وحتى قطع الصابون وفوط بالحجم المناسب لأيديهم الصغيرة. وعلى الحوائط، كانت هناك صور معلقة، وآنية للزهور يكون بها الأطفال ما يشبه الحديقة. وأحواض عميقة، أحواض للسماك. في هذا المحيط الخارجي، كانت الراهبات بزّين الرمادي وغطاء الرأس الطويل، يتحركن حول الأطفال في هدوءٍ وسلام.

علمت الراهبات هؤلاء الأطفال كيفية السلوك بالشكل المناسب، وكان سلوكهم يتحسن يوماً بعد الآخر. وكان من بين الراهبات، كثيرات تنتمين إلى الطبقة الأرستقراطية. وهذا انعكس على شكل تصرفاتهن، مما علمنه للأطفال الذين لديهم هذه الرغبة. لقد تعلموا كيف يسلكون مثل الأمراء على موائد طعامهم. وعندما كان يمكنهم خدمة الموائد، تصرفوا كاساتذة في هذا الفن .. ورغم أنهم فقدوا شهيتهم الطبيعية للطعام، فقد ابتهجوا بالمعرفة الجديدة التي حصلوها، وبالروعة التي تواصلوا من خلالها بأنشطتهم المتنوعة. وتدرجياً، عادت إليهم شهيتهم، وقدرتهم على الاستغراق في النوم، بسهولة. إن التغيير الذي طرأ على هؤلاء الأطفال، أوجد تأثيراً ملحوظاً. حيث أمكن رؤيتهم يجررون ويقفزون أو يحملون شيئاً في الحديقة. أو يحضرون بعض قطع الأثاث ويذهبون بها تحت الأشجار، يرتبونها دون أن يكسروها أو أن يصطدموا بأشياء أخرى. ودائماً تبدو البهجة على وجوههم الملهلة.

بعد ذلك كان مصطلح «التحول» قد تم توظيفه لأول مرة. ولاحظ أحد أشهر الكتاب الإيطاليين - آنذاك - هذه التحولات، قائلاً: «ليس هناك إعجاز للتحول أكثر من شخص يعاني من الاكتئاب ثم يجد من يحمله إلى خطة حياة طموح».

وبالرغم من ظاهر المفهوم الموحى بالتناقض، فقد ترك تأثيراً عميقاً في عقول كثيرة. «فالتحول» قد يبدو متناقضاً مع براءة الطفولة، إلا أن هذا المصطلح يؤكد على الخاصية الروحية للظاهرة التي كانت بادية

للجميع. فالأطفال خبروا التجديد الروحي الذي حررهم من الحزن والفقد. وقدّم لهم ميلادًا جديدًا للفرح.

وإذا اعتبرنا الإثم والحزن نوعًا من الانسحاب أو الانسلاخ من حالة أكثر اكتمالاً، فالشفاء من هذه الحالة يصبح تحولاً. وينقلب الإثم والحزن إلى بهجة وفرح.

لقد تحوّل الأطفال تمامًا. وعبروا من الحزن إلى السعادة. وتحرروا من أشياء عدة، من العيوب الكامنة في أعماقهم. لكنّ هناك شيئًا أكثر، فسمات محددة كانت شائعة، قد اختفت. فهيئة الأطفال المبهرة، أكدت أن الناس لديهم القدرة، بل يجب أن يتجددوا تمامًا. ويمكن أن نرى هذا التجدد في استحضار الفرد لطاقاته الخلاقة. وأطفال مدارسنا يأتون - غالبًا - كحالات ميئوس منها. وإذا لم يظهر ذلك، لما أمكن حقيقة - تصنيف ما هو خير أو شر في داخلهم، مادامت هناك فكرة مسبقة عنهم في عقول الكبار. وتقاس خيرية الطفل من خلال تكيّفه مع أحوال حياة الكبير بكل تقلباتها. لكن بسبب هذا الرأي الخاطئ عن الطفل، تظل سماته الطبيعية متخفية تمامًا. فالكبار لا يدركون غالبًا - ما هو خير للطفل، أو بداخله، كطبيعة تنوي أن يكون عليها هذا «الإنسان الصغير».

21. أطفال مدلون

يعيش أبناء الأثرياء كطبقة أخرى من الأطفال في ظروف اجتماعية غير عادية. ويمكن للمرء أن يتخيل مدى سهولة تربيتهم، مقارنة بما وجدناه في مدرستنا الأولى، أو مع الأيتام في «ميسينا». لكن كيف يمكنهم أن «يتحولوا؟». إن الأطفال من عائلات ثرية، يحاطون بكل ما يوفره لهم المجتمع من ترف. لكن يكفي أن نستشهد بخبرات المعلمات في «أوربا» و«أميركا»، حين أخبرني بانطباعهن الأول، ووصفن لي الصعوبات التي لاقينها حتى يُطلن هذا الرأي.

أطفال من هذا النوع لا يجذبهم رواق الحديقة، أو جمال الزهور، أو المحيط الخارجي الرائع. ولا يجدوا شغفا بالأشياء التي تذهل أطفالاً أفقر. ونتيجة لذلك، ارتبكت المعلمة وتحيرت حين لم يأخذوا الأشياء التي يُفترض أن تشبع حاجاتهم.

إذا كان الأطفال فقراء، فسيندفعون في الحال تجاه الأشياء التي تُقدم لهم. لكن، إذا كانوا أغنياء، ويمتلكون - بالفعل - ألعاباً متطورة، فمن النادر أن يستجيبوا في الحال لمحاولات استثارة اهتمامهم. وقد كتبت لي معلمة أمريكية (الآنسة. ج) من واشنطن: «الأطفال

ينزعون الأشياء من أيدي الآخرين. وإذا حاولت أن أجعل أحداً منهم يرى شيئاً، فإن الباقيين يرمون ما بأيديهم ويشيرون الضوضاء من حولي. وعندما أنتهي من شرح شيء، فكلهم يتقاتلون عليه. والأطفال لا يبدون اهتماماً حقيقياً بالخامات والمواد المتنوعة. فهم ينتقلون من شيء لآخر دون التريث أمام أي منها. كان من بينهم طفل لم يستطع البقاء في مكان واحد، وبالتالي، لم يتمكن من الجلوس بما يكفي لتحريك يديه وتناول أي من الأشياء التي قدمت له. في معظم الحالات، حركة الأطفال كانت بلا هدف: إنهم - ببساطة - يجرّون داخل الحجرة غير مباليين بما قد يحدث من ضرر أو تدمير شيء. يجرّون إلى المنضدة، يلقون بالمناضد ويعبثون بالأشياء التي أعدت من أجلهم. أحياناً ما يبدأون العمل في مساحة ما يلبثون أن يغادروها، ويأخذون شيئاً آخر ويتركونه دونما أي سبب.

وكتبت الآنسة «ر» من «باريس»: «يجب أن أعترف أن خبراتي كانت غير مشجعة تماماً. فالأطفال لا يركزون في عمل أو مهمة أكثر من دقائق معدودة. ليس لديهم روح المبادرة، ولا المثابرة. أحياناً، يتبعون بعضهم البعض كقطيع الأغنام. عندما يأخذ طفل شيئاً، يريد الباقيون أخذ الشيء ذاته. أحياناً وببساطة، يدورون على الأرض ويقرعون المقاعد».

والوصف التالي جاء من مدرسة أطفال أغنياء في «روما»: «تلتزم المديرية بالنظام، لكن الأطفال فوضويون في العمل، ويرفضون الإرشاد والتوجيه».

لكن - فيما بعد - تحولوا إلى الأفضل: الأنسة (ج) واصلت بتجربتها في واشنطن: «خلال أيام معدودات بدأ هؤلاء الاطفال الفوضويون يأخذون شكلاً محدداً. بدا كما لو أن الأطفال يجدون اتجاهًا لأنفسهم. بدأوا يهتمون بالأشياء التي كانوا ينظرون إليها كالألعاب سخيفة. ونتيجة هذا الاهتمام الجديد، بدأوا يتصرفون ككائنات مستقلة. والشئ الذي يمتص كل اهتمام طفل، لا ينال أدنى اهتمام بالنسبة لآخر. كان للأطفال اهتماماتهم المنفصلة».

«أخيراً انتهت الحرب بنصر عندما يجد طفل شيئاً، شيئاً محدداً يثير انتباهه ويستحوذ على اهتمامه. ذات مرة حاولت تحريك اهتمام طفل - تقريباً - بكل الأشياء المختلفة التي تُستخدم في المدرسة، لكن دون أي مؤشر اهتمام منه. بعد ذلك ومصادفة، أريته قرصين أحدهما أحمر والآخر أزرق، مُستدعية انتباهه إلى الألوان المختلفة. فوراً مدّ يديه - بشوق - انتظاراً لها. وفي درس واحد تعلم خمسة ألوان. وخلال الأيام التالية، أخذ كل شيء، كل الأشياء المتنوعة التي تجاهلها قبلاً. ثم - بالتدريج - أصبح مهتماً بها جميعاً».

«طفل كان في البداية على قدر ضئيل من إبداء الاهتمام، هرب من هذه الحالة (الاختيار) باهتمامه بوحدة من أعقد الأشياء في تنظيمها، تسمى «الأطوال». وظل - طوال أسبوع - مستمراً في لعبها. وتعلم كيف يعبّ ويصنع إضافات بسيطة. بعدها، بدأ في العودة للمواد الأبسط، وأصبح مهتماً بكل الأشياء المختلفة داخل النظام».

«بمجرد أن يجد الأطفال شيئاً يجذب اهتمامهم، يفقدون تذبذبهم ويتعلمون التركيز».

قدمت نفس المعلمة، الوصف التالي لاستنهاض شخصية طفلة: «كان هناك أختان: واحدة في الثالثة والأخرى في الخامسة من العمر. طفلة الثالثة لم يكن لديها تفرد في شخصيتها. كانت نسخة من أختها الأكبر في كل شيء. إذا كان للطفلة الأكبر قلم أزرق، تظل الأصغر غير سعيدة حتى تحصل على قلم أزرق. إذا أكلت الأكبر خبزاً وزبداً، فالأصغر لن تأكل شيئاً سوى الخبز والزبد، وهكذا. لم يكن للطفلة اهتمام بأي شيء - على الإطلاق في المدرسة: إنها - فقط - تتبع أختها في كل شيء، تحاكيها في كل ما تفعل. ومع هذا، بدأت - ذات يوم - في الاهتمام بأكواب حمراء. وبنت برّجاً وأعدت التمرين عدة مرات أخرى، ناسيةً أختها تماماً. وقد أربك هذا أختها الأكبر، لدرجة أنها نادتها لتسألها: لماذا تبينين برّجاً بينما أنا أتمم الدائرة؟. اكتشفت الطفلة الصغيرة - في ذلك اليوم - شخصيتها هي وأدركتها. وبدأت تنمو ولم تعد مجرد انعكاس مبسط لأختها».

رصدت الآنسة «ر» طفلة في الرابعة من عمرها تمكنت من حمل كوب من الماء دون أن تسكبه. وبعد نجاحها في تمرينات أخرى مما أصبحت شغوفة بها، بدأت - من جديد - تحمل أكواباً من الماء دون أي صعوبة وبدأت تتقن إحضار الماء لزملائها في المدرسة ممن يرسمون بالألوان المائية. فعلت ذلك دون أن تسكب قطرة ماء واحدة.

حقيقة أخرى تضمنها تقريرٌ وصلنا من معلمة أسترالية، وهي ممتعة ومهمة للغاية. كان لدى الأنسة (ب) طفلة صغيرة لا تستطيع الكلام، لكنها ببساطة تتمم بأصوات مختلفة. وقلق والداها لدرجة جعلتها يستشيران طبيباً خشية أن تكون متخلقة النمو.. هذه الطفلة الصغيرة استحوذ يوماً - على اهتمامها قنوات صلبة، شغلت فيها جُل وقتها وهي تأخذ الأسطوانات الخشبية من قنواتها (ثقوبها) لتعيدها وتخرجها. وهكذا عدة مرات. وفي غمرة سرورها بما أنجزت، جرت إلى المعلمة قائلة: تعالي وانظري !.

وتضيف الأنسة (ر) في تقرير آخر أرسلته لي: «بعد عطلات الكريسماس، حدث تغيير عظيم داخل حجرة الدراسة. كان واضحاً أن النظام قد استقر من تلقاء نفسه دونما أي تدخل من جانبي. الأطفال مشغولون بأعمالهم كي ينجزوها، وليس عملاً بلا هدف كما كان في السابق. ويذهبون إلى حجرتهم لإحضار الأشياء التي كانت - قبلاً - تثير مللهم. لقد خُلِقَ مناخٌ للعمل داخل الفصل. فالأطفال الذين كانوا يختارون أشياءهم وسط ضجيج وجلبة، أصبحوا الآن يُظهرون حاجتهم إلى نوع من النظام الداخلي. إنهم يركزون جهودهم في أداء مهامهم ويغمرهم الرضا الحقيقي في تخطي العقبات. هذه الجهود الثمينة أبرزت نتيجة فورية ظهرت على خصائصهم الشخصية. لقد صاروا سادة أنفسهم».

مثالٌ أدهش الأنسة «ر»: كان طفلٌ عمره حوالي أربعة أعوام ونصف العام له خيالٌ نامٍ واضحٌ تماماً. فحينما يُعطى شيئاً، لا يلاحظ

شكله، لكنه - وفورًا يُشخصه كما يُشخص نفسه بالضبط. يتكلم في الحال ويصبح من الصعب توجيه انتباهه إلى الشيء ذاته. وعندما يندهش عقله كثيرًا، يصبح أخرق في تصرفاته. ولا يتمكن - حتى - من تثبيت زر واحد. ومرة واحدة يحدث له شيء عجيب: «إنني أصاب بالذهول من التغيير الذي يطرأ عليه. إنه ينفذ التمرين، واحدًا بعد الآخر، وهكذا يتمكن من تهدئة نفسه».

هذه الخبرات للمعلمات اللاتي افتتحن مدارس قبل أن نحدد طريقة يمكن تكرارها دائمًا، كانت خبرات متشابهة. أحداث متشابهة وصعاب متشابهة - ولو بدرجات متفاوتة - لأطفالٍ كلهم تقريبًا سعداء أذكاء محبوبون من آبائهم ويحظون منهم برعاية بالغة. كانت هناك صعوبات روحية في التواصل مع الأشياء الملائمة والتي تفسر لماذا يلفت يسوع المسيح النظر إلى الملجأ برقة شديدة: «بُورك الفقراء في الروح القدس بورك من هم مهمومون!».

لكن، جميعهم يتم استدعاؤهم، وإذا ما تجاوزوا الصعاب، يمكنهم إجابة الاستدعاء. فظاهرة «التحول» - إذن - ترتبط بالطفولة. إنه سؤال السرعة، والوقت، وغالبًا ما يكون التغير لحظيًا ويأتي دائمًا من المصدر ذاته. ولا يمكنني الاستشهاد بمثالٍ مفرد عن التحول وكيف يتم، دونما مهمة مثيرة تتركز فيها نشاطات الطفل. وهناك تحولات عميقة ومتنوعة حدثت بهذه الطريقة. أطفالٌ عصبيون متوترون، أصبحوا هادئين. المكتئبون استعادوا أرواحهم. كلهم تقدموا - معًا

مرورًا بعملٍ ملزم ومنظم. وحققوا تقدمًا ظهر خلال ما يتبدى من طاقة داخلية وجدت وسائل التعبير.

هذه المكاسب التي تحققت لها خاصية سريعة التفجر تمكن من التكهّن بالنمو اللاحق للطفل. ربما نقارنها بظهور أول تسنين للطفل، أو بخطواته الأولى. فالسنة الأولى ستتبعها أخريات، والكلمة الأولى يتبعها الكلام، وبعد خطوه الأول، يبدأ الطفل المشي.

وقد أظهر انتشار مدارسنا، عالمية تحولات الطفل. فقد تم استبدال خصائص أخرى بالخصائص الطفلية. وخطأً أولي في تدريب الطفل، يمكنه أن يصبح مصورًا لانحرافات لا تخص في حياته النفسية.

التطبيع

ما يمكن اعتباره ملاحظة محددة بشكل خاص في تحولات الطفل تلك، هو البراء النفسي، والعودة إلى ما هو سوي وطبيعي. والطفل السوي - حقيقةً - هو إنسان ذكي لديه القدرة على تجاوز نفسه ليعيش في سلام. وهو من يُفضّل العمل الملتزم، على الكسل الذي لا جدوى منه. وعندما نرى طفلًا في هذا الإشراق، فيمكننا أن نطلق على تحوله «التطبيع». لأن حقيقة الإنسان تبقى متخفية داخل نفسه. وهذه الطبيعة التي تعطي له مفهومًا، لابد من إدراكها والسماح لها بالنمو.

لكن هذا التفسير لا يغير مظهر الطفل المتحول الكبير، وربما يمكنه التحول بالطريقة ذاتها، لكن التغير يصبح عسيراً، بمعنى أنه يتم إدراكه كعودة إلى طبيعة البشر الأساسية.

والسمات النفسية السوية، تزدهر - بسهولة - لدى الطفل. بعد ذلك، كل تلك السمات التي تنحرف عن السواء، تختفي بمجرد العودة للصحة. وتنتهي كل الأعراض المرضية.

إذا لاحظنا الطفل في هذه الإشرافة؛ فسوف ندرك - دائماً - تكرار الحدوث التلقائي الذي يتبع السواء، حتى في وسط بيئة قاسية مزعجة. ورغم ما قد يبدو من ارتداد وتراجع مؤشرات النمو الطبيعي - لأنها لا تُدرك أو يُقدّم لها العون - فإنها تظل وتعود كمبادئ حيوية تشق طريقها خلال معوقات. إنها الرغبة في النجاح والتجاوز.

يمكننا القول أن طاقات الطفل السوية، تبدو كصوت السيد المسيح، تعلمنا درساً في التسامح، ليس سبع مرات «بل سبع وسبعين مرة». فمن أعماق طبيعة، يكرر الطفل الأعذار للكبير، ويناضل من أجل الازدهار، رغم قمع الأخير. إنه يرتبط بحالة كفاح ضد القوى التي تحجب نوه الطبيعي.

22. الإعداد الروحي للمعلم

لكل ما سبق، يخطئ المعلم الذي يعتقد أنه يستطيع إعداد نفسه لأداء مهمته - فقط - من خلال الدراسة. إن الشيء الأول المطلوب في المعلم، هو كونه مطبوعاً - تماماً - على ممارسة واجباته وميالا - بشكلٍ تام - لإنجازها.

فالطريقة التي نلاحظ بها الطفل، مهمة للغاية. ولا يكفي تحصيل معرفة نظرية تقريبية عن التربية.

نحن نُصرّ على حقيقة مؤداها أن المعلم يجب أن يهيئ نفسه وبعدها - داخلياً - بالدراسة الذاتية المنظمة. وذلك حتى يتمكن من اقتلاع معظم الشوائب المتجذرة في أعماقه. وهي - في الحقيقة - مما يعترض سبيل علاقاته مع الأطفال. ولاكتشاف هذه المشاعر الكامنة في «عتبة تحت الوعي»، يتطلب ذلك نوعاً من المؤسساتية؛ إذ يجب أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون.

هذا يتساوى مع القول أن المعلم يجب أن يكون خبيراً ومطلعاً. عليه أن يبدأ بدراسة ما يكتنفه من شوائب، وما بداخله من ميول شريرة،

أكثر مما يشغل اهتمامه بـ «ميلو الطفل» وبكيفية «تصحيح أخطاء الطفل» أو «آثار الإثم المتأصل». أولاً أن تزيل الغمّة عن عينك حتى يمكنك أن تحرك الكلام من عين الطفل.

والإعداد الداخلي للمعلم شيء يختلف تماماً عن «الاكتمال» المنشود من التدين. المعلم الجيد ليس عليه أن يكون متحرراً داخلياً من الضعف والأخطاء. لكنه - حقيقة - من ينشد اكتمال حياته الداخلية بملاحظة وإدراك عيوبه وشوائبه المتعددة التي تمنعه من فهم الطفل. علينا أن نتعلم، وعلينا أن نرغب في ميلو الإرشاد، إذا أردنا أن نصبح معلمين فاعلين.

كما يوضح الطبيب لمريضه الابتلاء الذي يوجعه، نفعل المثل عندما نُظهر العيوب في معلمي المستقبل، والتي تعيق عملهم. على سبيل المثال: نحن نخبرهم: «الغضب شرٌ عظيم لأنه قد يتحكم فينا ويحجبنا عن فهم الطفل». وكما أن الخطيئة لا تأتي مفردة، بل تعقبها سلسلة من الخطايا كذلك الغضب يجلب شراً آخر، وهو الغرور. وأنه قد يتخفى تحت هيئة طيبة.

ونحن نستطيع أن نقهر ميلونا الشريرة بطريقتين: داخلية وخارجية. الطريقة الأولى أن نناضل ضد عيوبنا وتشوهاتنا المعروفة. الطريقة الثانية أن نكبح المظاهر الخارجية لميلونا الشريرة. فالالتزام الخارجي بقبول معايير للسلوك، شيء مهم لأنه يجعلنا متنبهين لأخطائنا.. فاحترام رأي الآخر يجعل الفرد قادراً على قهر الغرور. والظروف المعتدلة تقلل

من البخل. ورد الفعل المبالغ فيه، يثير غضب الآخر. والحاجة إلى العمل من أجل الحياة، تقهر الأحكام المسبقة. والتحويلات الاجتماعية تهدد بفقد السلوك. والمشقة في السعي للترف، تقلل من التبذير. والحاجة إلى حفظ الكرامة، تحول بين الفرد والحسد كل هذه العوامل الخارجية يمكنها أن تحدث تأثيرات فورية ومفيدة، على حياتنا الداخلية. فالعلامات الاجتماعية تساعدنا على التوازن الأخلاقي.

نحن لا نظل خاضعين للضغوط الاجتماعية، فهي ليست ملزمة مثل طاعة الرب التي نسعى إليها آملين في الخلاص. فإذا ما استشعرنا الحاجة بقدر كافٍ من الاستعداد - إلى تصحيح الأخطاء التي ندركها في ذاتنا، فنحن لا نقبل بسهولة إذلال تصحيحها بواسطة الآخرين. إننا بذلك نرتكب خطأ، أكثر مما نمنعه. وعندما ينبغي علينا تعديل وسائلنا وتحسينها، فنحن - غريزيًا - نجاهد لحفظ ماء الوجه، ونتظاهر بأننا قد اخترنا الحتم الذي لا يمكن تجنبه. والدليل على ذلك يمكن رؤيته في الكذبة الصغيرة حين نقول: «لم أكن أريد ذلك بأي حال». نقولها حين نحقق في الحصول على شيء نبتغيه. هذا هو رد فعلنا الغريزي للتمكن من المقاومة، خارجيًا. فبدلاً من محاولة اكتمال ذاتنا داخليًا، نواصل المجاهدة والعراك الخارجي. هنا - وكما في بقية المعارك - نجد أننا في حاجة عاجلة إلى مساعدة الآخرين. وهم أنفسهم يعانون من العيوب والتشوّهات ذاتها، مما يجعلهم - غريزيًا - يساعدون بعضهم البعض، واجدين القوة في التوحد.

ونظل نخفي عيوبنا تحت مظهر نبيل لضغوط الواجبات، بينما - وفي الوقت ذاته - تظهر أسلحة الحرب الهجومية، والتي توصف كوسائل لحفظ السلام. والحقيقة أن المقاومة توجه لنقائضنا ولعيوبنا، وهي السبيل الأسر لتنظيم دفاعاتنا.

عندما يوجه النقد لأخطائنا، فما أسهل تبريرها. لكن الحقيقة أننا لا ندافع عن أنفسنا بل عن أخطائنا. ونخبئها تحت قناع ما نطلق عليه «الجمال»، «الضرورة»، «المصلحة العامة»، .. وهكذا. ثم، شيئاً فشيئاً، نقنع أنفسنا بحقيقة مؤداها أن ما يدركه وعينا من معرفة، هي المسئولة عن أخطائنا، وهذه الأخطاء اليومية، يتعذر تصحيحها.

إن المعلمين - وبشكل عام كل من يهتم بتربية الشباب - يجب أن يحرروا أنفسهم من هذه التركيبة التوافقية للأخطاء، التي تضعف من مكانتهم. عليهم أن يناضلوا لتخليص أنفسهم من عيبيهم الأساسي المركب من الغرور والغضب. وأن يستبصروا ذواتهم في حقيقتها المشرقة. الغضب هو العيب الأساسي، لكنه مُقنَّع بالغرور الذي يضي عليه وقاراً لا ريب فيه، لدرجة تستدعي الاحترام.

لكن الغضب شر يقاوم بتعزيز وتشجيع المحيطين بنا. ويقتضي التعقل والنظر في العواقب، أن نحتفظ بالغضب تحت السيطرة. والشخص الذي ينجح في هذا، يخجل من نفسه ومن غضبه.

ومع ذلك، عندما نتعامل مع الأطفال، فتلك قصة أخرى. إنهم لا يفهموننا، ولا يستطيعون حماية أنفسهم منا. ويقبلون أيّاً ما كان منا

حين نخبرهم به. إنهم لا يقبلون الإساءة وحسب، بل ينتابهم شعورٌ بالذنب حين نلومهم.

وعلى المعلم أن يفكر مليًا في مآزق الطفل. فالطفل لا يفهم - بعقله - الجور والظلم، لكنه يشعر بأن ثمة شيئًا خطأ. ويصبح - لذلك - مكتئبًا مشوَّهاً. فرد فعله اللا شعوري حيال تعمُّد الأذى أو عدم مراعاة شعوره من قبل الكبار، يوجد تعبيرًا في اللامبالاة، والكذب، والسلوك الخاطئ، الصراخ دومًا بسبب ظاهر، عدم القدرة على النوم، والخوف المرضي. كل هذه الأعراض تظهر على الطفل، حيث لا يمكنه الإمساك - عقليًا - بسبب اكتسابه.

وفي حالته الأولية، يفرز الغضب عوارض محددة للعنف الجسدي. لكنه - أيضًا - يجد تعبيرًا ويتبدى في إطار مآكر، ويهذب من الوسائل التي تخفي خصائصه الحقيقية. والغضب (في أبسط أشكاله) مع الطفل، هو إثارة تمرُّده ومقاومته. لكنه سرعان ما يختلط بالغرور الذي يتحول إلى نوع من الاستبداد، حين يتحداه الطفل. بمحاولاته الواهنة للتعبير عن نفسه.

والاستبداد يستعصي على النقاش. إنه يحيط الفرد بجدران لا تخترق تحت زعم إدراك المسؤولية. فالكبار يقهرون الأطفال عن طريق فضيلة المعرفة، معرفة الحق المطلق. والسؤال عن هذا الحق أو الصواب، يكون بمثابة اختراق أو هجوم على هيبة السلطة. وإذا كان المستبد - في المجتمع البدائي - يمثل الإله، فإن الكبير بالنسبة للطفل، هو الألوهية

ذاتها. إنه - ببساطة - فوق المناقشة. فالأهم من عدم الطاعة، أن يلزم الطفل نفسه بالصمت وبالتكيف مع أي شيء.

فإذا ما أبدى بعضًا من مقاومة، سيكون ذلك ردًا حقيقيًا وبشكل مباشر ومقصود، على تصرف الكبير. فضلًا عن كونه دفاعًا حيويًا يعبر عن سلامته النفسية، أو رد فعل لا شعوري تجاه الكبح الذي تعرض له.

فقط بمرور الوقت، يتعلم الطفل كيف يتصرف مباشرة حيال هذا الاستبداد. لكن - حينها - يكون الكبير قد تعلم كيف يتغلب على معارضة الطفل بالوسائل المهذبة. فيقنعه أن كل هذا التحكم والاستبداد إنما هو من أجل صالحه.

ويكنُ الطفل كل الاحترام لزملائه، بينما الكبار يدعون الحق في الحكم، بل والحق في الإزعاج. وهم بقناعاتهم واقتناعهم يوجهون الطفل، بل ويكبحون احتياجاته. وينظرون إلى اعتراضاته بحسبانها افتقارًا خطيرًا وغير محتمل، للالتزام والطاعة.

هنا، يتبنى الكبار اتجاه الحكام البدائيين الذين يغتصبون من رعاياهم كل الإجلال والرهبة دون أي وجه حق. فالأطفال الذين يعتقدون أنهم مدينون بكل شيء للكبار، يشبهون تلك الشعوب التي تعتقد أن كل شيء يمتلكونه هو هبة يمنُّ عليهم بها مليكهم. لكن، أليس الكبار مسئولين عن هذا الاتجاه؟ لقد تبنا نظام الخالق، وبغرورهم توهوا أنهم مسئولون عن كل شيء ينتهي إلى الطفل. فهم يجعلونه

صالحاً، وجديرًا بالشأن، وذكياً. وهم من يجعلونه يتواصل مع بيئته، ومع الناس، ومع الرب. ولجعل الصورة أكثر اكتمالاً، يرفضون الاعتراف بأنهم يمارسون أي استبداد بالطفل. والآن، هل يوجد مستبد اعترف - ولو لمرة واحدة - بأنه قمع رعاياه؟.

أما من سيصبح معلماً وفقاً لنظامنا، فعليه أن يختبر نفسه ويمتنع عن الاستبداد. عليه أن يخلص قلبه من الغرور والغضب. عليه أن يتعلم كيف يتواضع بنفسه ويتحلى بالرفق والإحسان. هذه الفضائل التي يجب أن يسعى إليها. وهذا الإعداد الداخلي سوف يمنحه التوازن ورباطة الجأش التي سيكون في حاجة إليها.

من ناحية أخرى، هذا لا يعني أننا يجب أن نتغيب - تماماً - عن إصدار أحكام على الطفل. أو يجب أن نوافقه على كل شيء يفعل. أو يجب أن نهمل نموه العقلي ومشاعره .. يجب ألا ينسى المعلم - أبداً - أنه معلم وأن مهمته هي إحدى سبل التربية.

لكننا نظل - دائماً - ملزمين بالتواضع واقتلاع الإحجاف الكامن في قلوبنا. علينا ألا نكبح تلك السمات التي يمكنها مساعدتنا في تعليمهم. بينما علينا أن نراجع تلك الخصائص الداخلية والتوجهات التي قد تعيق فهمنا للطفل.

23. الانحرافات

أظهرت الخبرة أن التطبيع يتسبب في اختفاء العديد من السمات الطفلية. ليست فقط السمات التي تعتبر عيوباً أو تشوهات، بل أيضاً تلك التي تعتبر - بوجه عام - فضائل وسمات محمودة. ومن بين السمات التي تختفي، ليست فقط - عدم الترابط - عدم الطاعة - البطء الجشع - الانانية - المشاكسة - عدم الاتزان، لكن أيضاً ما يُطلق عليه «التخيل الخلاق» - اللعب - التجاوب، وما إلى ذلك. وتتضمن أيضاً سمات تُدرس علمياً وترتبط بالطفولة، مثل: المحاكاة - الفضول - التحول - تذبذب الانتباه. واختفاء هذه الخصائص الطفلية تظهر أن حقيقة الطفل الطبيعية - حتى الآن - لم يتم فهمها.

ورغم عالمية هذه الحقيقة، فهي ليست جديدة بمعنى الكلمة؛ لأن الطبيعة الثنائية للإنسان، قد تم إدراكها منذ العصور المبكرة. فالأولى ذهبت له في لحظة خلقه. والثانية جاءت نتيجة خطيئته الأولى، معصية قانون الرب. وبسبب هذه السقطة، حُرم الإنسان من نعمة حالته الأولى، وترك لرحمة محيطه الخارجي ولأوهام عقله. وهذه العقيدة حول الخطيئة الأولى؛ يمكن أن تساعدنا في فهم ما يحدث للطفل.

ويمكن للمخلوق أن يضللنا بشيء بسيط جدًا. إنه شيء يتسلل دون أن يلاحظه تحت مظهر الحب والمساعدة. لكنه حقيقة يرجع إلى انعدام رؤية الكبير وأنانيته الشخصية التي قد تأخذ شكل التدخل الشيطاني المؤثر على حياة الطفل. وحال تتجدد ولادة الأطفال، فهم يحملون - بداخلهم - خطة محددة لنموهم الطبيعي.

وإذا ما عاد الطفل لطبيعته، فالحالة الطبيعية تتواصل وترتبط بعامل واحد محدد. إنه تركيزه على بعض النشاط الجسدي الذي يربطه بالحقيقة الخارجية. وبالتالي، يمكننا أن نخلص إلى وجود منبع وحيد لكل انحرافات. السبب هو البيئة المعادية التي يحاط بها في مرحلة تشكله، حينما ينبغي لطاقاته الكامنة أن تتطور خلال عملية «التجسيد» (فالطفل لا يمكن التحقق من كينونة خطته الأولية للنمو).

الشرود

هكذا، يمكن النظر إلى عملية التجسيد، كمرشد في تفسير السمات المنحرفة: فالطاقة النفسية يجب أن تتجسد في حركة تتمكن من تحقيق الوحدة الفيزيائية (الجسمية) للشخصية. فإذا لم تتحقق هذه الوحدة، سواء بسبب تعسف الكبير، أو لنقص دافعية الطفل في البيئة، سنلاحظ أن العاملين الرئيسيين - الطاقة النفسية والحركة - ينمو كل منهما منفصلًا عن الآخر و«يصبح الإنسان منحرفًا». ولأن لا شيء يُخلق أو يُدمر بطبيعته، فطاقات الطفل النفسية إما أن تنمو كما ينبغي، أو تذهب بعيدًا في الاتجاهات الخطأ. ومثل تلك الانحرافات

تحدث - غالبًا - عندما تُهدر هذه الطاقات فيما لا هدف منه. والعقل الذي ينبغي أن يبنى ذاته خلال النشاطات الجسمية الإرادية، يصبح مستغرقًا في أحلام اليقظة.

عندما يخفق العقل الشارد في إيجاد شيء يتوجب عليه فعله، يصبح مشبعًا بالخيالات والرموز. والأطفال المشوهون بذلك التشوش لا يبدون حراكًا، إنهم أحياء تجاوزًا حيث يعيشون بلا هدف. إنهم يبدأون شيئًا، كي يتركوه غير منتهٍ ولا مكتمل. ذلك أن طاقاتهم توجه نحو عدة أشياء دونما القدرة على البقاء داخل أي منها. ومع ذلك، فالكبار يعاقبون ولا يغفرون الخطأ أو التصرفات غير المنضبطة لهؤلاء الأطفال الفوضويين. والحقيقة أن استحسان وتشجيع خيالاتهم، تنطبع لديهم كيول إبداعية لعقل الطفل. وقد اخترع «فروبل» كثيرًا من ألعابه لتشجيع نمو خيال الطفل. إنه يتعلم رؤية الخيول، والقلاع أو القطارات، في الكتل الصغيرة المستطيلة وفي القوالب التي يرتبها بطرق متنوعة. إن خيال الطفل يستطيع إعطاء معنى رمزي لأي شيء مهما كان. لكن هذه الإبداعات التخيلية تظل سرابًا داخل عقله. فالعقدة تصبح حصانًا، والمقعد عرشًا، والحجر طائرة. فالأطفال تُعطى لهم ألعابٌ يمكنهم اللعب بها، لكنها تخلق الأوهام ولا تحمل الحقيقة أو تتصل بها. فالألعاب تهنيء الطفل لبيئة بلا هدف محدد، ونتيجة ذلك فهي لا تزودهم بأي تركيز عقلي، لكنها الأوهام فقط. والألعاب قد تستثير نشاط الطفل، مثل النفخ في الهواء على نحوٍ متقطع والذي يشير لها مكتومًا تحت رماد الهواء. لكن سرعان ما ينفد اللهب،

وتذهب اللعبة أدراج الرياح. ولا يجد الكبار أفضل من هذه اللعبة للطفل كمتنفس للنشاط الإرادي، ويعتقدون أنه بذلك يجد الطفل سعادته.

ومع ذلك، فالطفل سرعان ما يملُّ أعباءه ويكسرها - كإدانة متعمدة - بينما الكبار يعتقدون أن من الكرم والطف أن يغدقوا على الطفل بمثل هذه الألعاب. واللعب بها هو الحرية الوحيدة التي يضمنها العالم للطفل، والذي يجب - في مثل تلك المرحلة الثمينة - أن يضع أسسًا لحياة أرقى. وينظر إلى الأطفال «المنحرفين» على هذا النحو - في المدرسة بشكل خاص - ككائنات عالية الذكاء. وذلك على الرغم مما قد يكونون عليه من انضباط أقل، وانعدام الدقة، والفوضوية.

وفي البيئات المحيطة التي نهئها لهم، سرعان ما نرى هؤلاء الأطفال ينتزعون لأنفسهم بعض المهام. فنجوحهم إلى الخيال وحركاتهم البطيئة تختفي. ويهدوء، يواجهون الواقع ويبدأون في عملية اكتمال لذواتهم من خلال عملهم. إنهم يصبحون أطفالاً أسوياء. فتصرفاتهم التي بلا هدف، تصبح موجهة. أذرعهم وأرجلهم تصبح أدوات العقول، شغفاً بمعرفة ورسم واقع بيئتهم. والبحث عن المعرفة حل محل فضولهم اللامبالي. وباستبصار متقد، يصف المحللون النفسيون النمو فوق العادي للخيال والاهتمام المفرط باللعب باعتباره «شروداً نفسياً».

والشروود نوع من التحليق، وملاذ جذاب. فالتحليق من خلال اللعب أو داخل عالم من الخيال يحجب طاقة تم انحرافها عن السواء.

إنها تقدم دفاعًا عن الأنا (ينبع من عتبة تحت الوعي). هذه الأنا تشعر بمعاناة أو بخطر، فتخفي ذاتها وراء قناع.

الحواجز

يكشف المعلمون أن الأطفال شديدي الخيل، ليسوا الأفضل في دراساتهم كما يجب أن يكون متوقعًا. بدلًا من ذلك، ينجزون القليل، أو لا شيء مطلقًا. وعلى الرغم من هذه الحقيقة، فلا أحد يشك في أن عقول هؤلاء الأطفال منحرفة أو متحولة. بل يُعتقد أن القدرات الإبداعية العالية لا يمكن أن تتبدى في الأشياء العملية. وحتى حقيقة أن الطفل المنحرف لا يستطيع التحكم في أفكاره ولا أن ينمي قواه العقلية كما يجب، فالمؤشر الواضح هو أن مثل هذا الطفل، أقل ذكاءً. وهذا الضعف في القوى العقلية للطفل لا يحدث فقط عندما يُخلق عقله في عالم من الخيالات، لكن - أيضًا - حين لا يتم تشجيعه. فهو يبحث عن مهرب بالتقوقع داخل ذاته. وفي الأطفال العاديين، ينخفض متوسط معدل الذكاء، إذا ما تمت مقارنتهم بنظرائهم من بين الأسوياء؛ لأن طاقاتهم يُساء توجيهها. فهم يشبهون أطفالًا مكسوري العظام، تتطلب حالتهم رعاية خاصة، إذا ما أُريد لهم أن يعودوا أصحاء جسميًا. لكن، ورغم تلقيهم المعاملة الرقيقة التي يحتاجونها لتصحيح خللهم النفسي، ولتحسين نموهم العقلي، إلا أن الأطفال لا يكثرثون غالبًا - بذلك. والعقل المنحرف لا يمكن إرغامه بالقوة. وكل محاولة من هذا القبيل تستثير ردود فعل نفسية.

وهذا ليس شائع الإدراك فيما يتعلق بالدفاع النفسي، الذي يتبدى - ظاهرياً - في الخمول وفنور الهمة وعدم الطاعة. لكنه دفاع نفسي لا يمكن السيطرة عليه إرادياً. فهو - لا شعورياً - يعوق تلقي وفهم الأفكار التي تأتي من الخارج.

إنها ظاهرة يصفها المحللون النفسيون بحسبانها، «حاجزاً نفسياً». ويتوجب على المعلمة أن تتمكن من تحديد هذه المشكلة وإدراكها. إنه نوع من الحجاب. يُسدل فوق عقل الطفل فيذيه على نحو متزايد، مما يجعله أقل استجابة. وخلال هذا الميكانيزم الدفاعي، وبدون وعي، تقول الروح: «أنت تتكلم، لكني لا أستمع. ومازالت تكرر، لكن لا أسمعك. إنني لا أستطيع بناء عالمي الخاص، حيث أنشغل تماماً في إقامة حائط يقيك بعيداً عني».

إن الدفاع الممتد والمستمر في هذا النوع، يجعل الطفل يتصرف كما لو كان - بالفعل - فقد استخدام قدراته الطبيعية. ولم يعد هناك مجال لسؤال الإرادة والرغبة، حسنة كانت أو سيئة. والحقيقة أن المعلمات اللاتي يواجهن أطفالاً يعانون من هذه الحواجز النفسية، يعتقدون أن ذكاءهم دون المعدل الطبيعي، وأنهم عاجزون عن استيعاب أنماط مادية معينة مثل الحساب والهجاء.

وإذا أقام أطفالٌ أذكاء، حواجز نفسية ضد أنواع مختلفة من الدراسة - وربما ضد أي نوع من الدراسة أياً كانت - فقد يُعتبرون أغبياء. وإذا ما أعادوا الفصل المدرسي ذاته عدة مرات، يُنظر إليهم باعتبارهم

متأخرين عقليًا. لكن الحاجز النفسي ليس العائق الوحيد. فهو يحاط بدفاعات خارجية يعرفها المحللون النفسيون، مثل «الكراهية». وهناك - أولاً - كراهية موضوع محدد، ثم الدراسة في عمومها، ثم المدرسة، فالمعلمة، حتى يكره الطفل رفاقه. لم يعد هناك مكانٌ لحب أو مودة، حتى ينتهي الأمر بالطفل إلى الخوف من المدرسة، ويصبح منصرفاً عنها تمامًا.

ويحدث مرارًا وتكرارًا أن يحمل الأفراد - خلال حياتهم - حازرًا نفسيًا تم إقامته وتشبيده في مرحلة الطفولة. ومثال ذلك: ربما نجده في الكراهية التي يحملها كثيرون لمادة الرياضيات طوال حياتهم. إنهم لا يفهمونها، بل إن مجرد ذكرها، يسبب لهم عائقًا داخليًا يقلقهم ويثير نفورهم. والمثل يمكن حدوثه مع موضوعات ومواد دراسية أخرى. ذات مرة، عرفت سيدة شابة، وكانت غاية في الذكاء، لكنها ارتكبت أخطاء هجائية لا يمكن تصورها مع ما أعرفه عن عمرها وخلفتها الاجتماعية. ولم تُجد أية محاولة لتصحيح هذا الخطأ. بل إن الأخطاء تعددت مع التكرار ومحاولة التدريب على تصحيحها. حتى القراءة لم تسلم من الخطأ ذاته. لكن - ويا لدهشتي - فوجئت بها يومًا تكتب بشكل صحيح وجميل. إنه شيء لا مجال هنا للخوض في تفصيله. لكن الواضح أنها قد عرفت الطريق الصحيح للتعبير عن نفسها. على أية حال، إنها قوة سرية حملت تلك القدرة وكتبها، وإن كل ما ظهر في السابق، كان عاصفة من الأخطاء.

علاجات

السؤال الأكثر أهمية وخطورة، والأجدر بالطرح، سؤال عن حالتَي الانحراف: الشرود، والحواجز النفسية. الشرود في مدارسنا العادية - كما هو عند من سبق ذكرهم، والذي اتحد وتواصل مع اللعب أو التحليق في الخيال، أثبت سهولة علاجه. ويمكن معرفة سبب هذا الشرود عن طريق المقارنة. إذا ما تحاشى شخص مكاناً وفرّاً منه، وذلك لأنه لم يجد فيه احتياجاته. لكن دائماً يستطيع العودة إليه إذا تغيرت البيئة، ولم يعد موجوداً ما سبق الفرار منه وتجنبه.

إن التحول السريع لدى الأطفال الفوضويين المتسمين بالعنف، هو بحق أحد الأشياء التي تتكرر ملاحظتها في مدارسنا. ويبدو كما لو أنهم جاءوا للتوّ من أرض نائية بعيدة. لم يحدث التغيير فقط في عاداتهم غير المنضبطة، لكنه تغيير أعمق يؤثر ويتغلغل داخل هذا السلام والرضا الذي تم تحقيقه وإحرازه. في الحال تختفي الانحرافات. يجتاز الطفل تحولاً وانتقالاً طبيعياً، إذا لم يجره من انحرافاته، فستصاحبه وتلازمه خلال حياته. وكبار كثيرون ممن يبدو أنهم يمتلكون خيلاً خصباً، ليس لديهم - في الواقع - سوى مشاعر مبهجة تجاه ما يحيط بهم، ويحكمون من خلال انطباعاتهم الحسية. مثل هؤلاء الأفراد يُعرفون بنزعاتهم التخيلية. إنهم بلا ضابط أو نظام، لكنهم مهيأون للانهار بالسما، وبالإشراق، وبالألوان، وبالزهور،

والموسيقى، وبالمناظر الطبيعية. وينظرون للحياة بعين رومانسية
حالة.

لكنهم لا يعرفون بشكل كافٍ كنه الإشراقة التي انبهروا بها.
والانهار لا يكفي لحبٍ حقيقي. والنجوم التي أسرهم، لا تستحوذ
على انتباههم بما يكفيهم لإحراز أدنى معرفة عن علم الفلك. لديهم ميول
فنية، لكنهم لا ينتجون شيئاً، حيث تعوزهم المثابرة والدأب على تحقيق
أية مهارة فنية. إنهم لا يعرفون ما يجب أن يفعلوه بأيديهم. فلا هم
يحتفظون بها هادئة، ولا هم يدفعونها إلى عمل. إنهم يلمسون الأشياء
بعصية، ويكررون كسرهما. وينسون رعاية الزهور التي يعجبون بها. لا
يستطيعون ابتكار أي شيء جميل، ولا أن يجعلوا حياتهم سعيدة. لا
يعرفون كيفية اكتشاف الروح الشعرية الموجودة في العالم. يضيعون إذا
لم يساعدهم أحد، حيب يعتبرون أن إخفاقاتهم وضعفهم هي مؤشرات
الاكتمال. هذه العيوب والتشوهات - التي يمكن أن تتطور إلى علل
نفسية خطيرة - لها جذور في سنواتهم المبكرة. ففي الطفولة تسهل
الإصابة بالتشوش، ويسبب طريق الحواجز النفسية، انحرافات لا يتم
إدراكها في البداية، وتظل - ربما لفترة - غير محسوسة.

من ناحية أخرى، يصعب تجاوز الحواجز النفسية، حتى إذا وجدت
لدى أطفال صغار. فالجدار الداخلي الذي تم إقامته، يغلق الروح
ويغلفها، وكأنه خط دفاع ضد العالم. وراء هذه الحواجز المتعددة
تتكشف دراما متخفية، حيث تنفصل الروح - دائماً - عن كل ما هو
جميل - خارجياً - ويمثل مصدرًا للسعادة. فنقاء المعرفة، وأسرار العلم،

وسحر الموسيقى الرائع، كلها «أعداء» الإنسان الذي يعزل نفسه. إن طاقاته الطبيعية مُقيّدة لدرجة تحجب معها - وتعيق - كل شيء يكون موضوعاً للاهتمام والحب. وتشير الدراسات إلى القلق وكراهية العالم، بدلاً من إعداد طفل يحتل فيه مكاناً متميزاً.

إن «الحواجز» كلمة بالغة الإيحاء بالمعنى. فهي تجعلنا نفكر في المعاني المستخدمة لمحاربة الأمراض قبل وجود أي معرفة حقيقية عن الصحة. رجال ونساء يمنعون اتصالهم بالهواء الطلق، والماء، والشمس. ويقيمون خلف جدران تمنع عنهم الضوء. يغلقون نوافذهم ليل نهار، حتى لو كانت - بالفعل - أصغر من إمكانية دخول الهواء، وفتحاتها ليست مصدرًا لأي تهوية صحية. يلبسون أنفسهم بثياب ثقيلة، واحد فوق الآخر، تمامًا مثل رقائق البصل، فيمنعون الهواء من تخلل مسام جلدهم. وتغدو بيئتهم الفيزيائية حائط صد حقيقي ضد الحياة ذاتها.

لكن هناك مظاهر في المجتمع تجعلنا نمنع النظر في الحواجز. لماذا يعزل الناس أنفسهم بعضهم عن بعض؟ ولماذا يُغلق كل تجمع عائلي مع شعور أفرادهِ بالكراهية والنفور من التجمعات العائلية الأخرى؟ ولا تجد العائلة كل سعادتها داخل دائرتها الخاصة، بل تسعد بانفصالها عن الآخرين. فالجدران لا تقام لتحمي الحب. ودفاعات الأسرة مغلقة، شاهقة، وأقوى من جدران البيت. إنها حواجز حقيقية تُقسّم الناس إلى طوائف اجتماعية وقوميات مغلقة.

ولم تقهر الحواجز القومية لفصل الوحدة الواحدة، أو لتمييز مجموعة عن الأخرى كي تمنحها الحرية والحماية. فاستمرار هذا الانعزال يُقوّي الحواجز الممتدة - بالفعل - بين قوم وقوم، ويمنع التبادل بين الأشخاص والسلع.

لكن، لو قامت الحضارة وازدهرت من خلال التبادل الطبيعي للمواد وللأفكار، لن نجد انعدام الثقة بين البشر. وإلا سوف تعاني - حتى الشعوب - من هذه الحواجز النفسية، ولن تنتج سوى آلام المعاناة والعنف. وتتحول إلى نوع من الأسف المنظم، فتضغط على حياة الشعوب حتى تتقهقر خلف حواجز رعب دائم.

الارتباط

بعض الأطفال لهم طبيعة خجولة منكشّة على نفسها لدرجة تُضعف طاقاتهم النفسية. فلا يمكنهم منع أو مقاومة تدخّل الكبير. وبدلاً من المقاومة، يربطون أنفسهم ارتباطاً وثيقاً بشخص أكبر يميل إلى إحلال نشاطه هو محل نشاطهم. وهكذا، يصبحون معتمدين - بشكلٍ مبالغ فيه - على هذا الكبير. ويتسبب نقص طاقتهم الحيوية - رغم عدم وعيهم بذلك - في جعلهم ميالين إلى البكاء. يتذمرون من كل شيء. وبمجرد رؤيتهم شخصاً يعاني، يعمدون - بشكلٍ ملحوظ - إلى إظهار حساسيتهم وحنوهم. ودائماً مملون، رغم عدم إدراكهم. لهذا يلجأون دائماً - إلى آخرين (الكبار)، لأنهم لا يستطيعون الهروب من الضجر الذي يقهرهم. يرتبطون بآخر طوال الوقت، كما لو كانت حياتهم معتمدة

- تمامًا عليه. يسألون الكبير العون والمساعدة. يريدونه أن يلعب معهم، ويروي لهم الأقاصيص، ويغني لهم، ولا يتركهم أبدًا. ويتحول الكبير إلى عبدٍ لمثل هؤلاء الأطفال. ومع هذا، فكل من الصغير والكبير يظهران تفهمًا وتعاطفًا وحنوًا فيما بينهما، ويقعان في الشرك ذاته. وأطفال مثل هؤلاء، سرعان ما يسألون «لماذا» هذا الشيء؟، كما لو أنهم شغوفون إلى المعرفة. لكن، إذا لاحظناهم - عن قرب - نجدهم لا يصغون إلى الإجابات المقدمة لهم، بل يستمرون في طرح أسئلتهم وتكرارها. لكن ما يبدو - حقيقةً - هو وسائل للاحتفاظ بمن يحتاجون دعمه، إلى جوارهم وليس فضولًا للمعرفة وشغفًا بتحصيلها.

إنهم على أهبة الاستعداد أن يسلموا للكبير جميع نشاطاتهم، وأن يطيعوه طاعةً عمياء. فيجد من السهل إملاء إرادته على طفلٍ راغبٍ في الانقياد. لكن، هناك خطر داهم يسبب للطفل - بالتزامن - حالة من اللا مبالة - Apathy - وقد تؤخذ باعتبارها بطئًا أو تكاسلاً.

والكبير راضٍ عن مثل هذه الحالة، مادام لا يحول الطفل بينه وبين نشاطاته الخاصة. وذلك يؤكد مدى خطورة هذا النوع من الانحراف. هذا التكاسل والتراخي هو في واقع الأمر، مرضٌ روحي. ويجب أن يُقارن بهزال شخص مريض فعلاً. إنه العرض الظاهري لانخفاض الطاقات الحيوية المبدعة. وفي المسيحية، يُنظر إلى البطء والتراخي كخطيئة كبرى، وكان أحد الأشرار تمكن من حمل الموت إلى داخل الروح.

بدون الوعي بهذا وإدراكه، سيستبدل الكبير الطفل بنفسه، وسيعوق نمو الطفل النفسي. وذلك من خلال مساعدته غير المجدية وتدخُّله الذي يشبه التويم المغناطيسي للطفل.

التملكية

هناك ميلٌ طبيعي لدى الرضع الصغار والأطفال الأسوياء، إلى الاستفادة من استعداداتهم وملكاتهم الطبيعية. إنهم لا يشبهون بيئتهم، لكنهم يحبونها بعمق. يشبهون أناسًا جائعين يبحثون عن طعام. وهذه الرغبة الشديدة في شيء معين يشبع حاجات جسمية، ليست نتاجًا للتفكير أو لعرض الحجج والبراهين. فنحن - على سبيل المثال - لا نقول: «لقد مر وقت طويل منذ تناولت طعامًا. وإذا لم أكل، فلن أصبح قادرًا على استعادة قوتي، أو - حتى - البقاء على قيد الحياة. لهذا؛ يجب أن أبحث عن شيء يمكن تناوله».. لا، فالجوع هو نوع من الألم يحرك دافعتنا للبحث عن طعام. وللطفل جوع مقارن لبيئته. إنه يبحث عن أشياء تنعش روحه، ويجد هذا في نشاطه.

وكما في الرضّع حديثي الولادة «دعونا نحب هذا اللبن الروحي»، فالدافع ذاته، حبه لبيئته هو ما يحرك الإنسان. وليس صحيحًا أن نقول بحب الطفل الانفعالي لبيئته، لأن الانفعال شيءٌ عابر ومؤقت. لكن علينا أن نصفه بأنه اندفاع نحو «خبرة حيوية». لأن الدافع وراء حب الطفل لبيئته، يستحثه على نشاط متواصل غير منقطع. إن الشوق الذي يحرقه - لبيئته، يمكن أن يقارَن بالحرارة التي تتولد داخل جسم

بواسطة الأكسجين الموجود في الهواء. فالطفل النشط يترك انطباع من يعيش في بيئة مناسبة، تساعد في إدراكه لذاته. وإذا لم تنح للطفل مثل هذه البيئة، فلن تنمو حياته النفسية، وستظل ضعيفة، منحرفة، ومنفصلة عن العالم. ويصبح الطفل لغزاً مُحيرًا. فلا حول له ولا قوة، بدون مرجعية، مصدرًا للملل، موضوعًا للتقلبات، وغير اجتماعي.

وإذا لم يجد الطفل ما يستثير نشاطاته التي يجب أن تساهم في نموه، فسيرتبط - بمنتهى البساطة - بـ «أشياء» وتسيطر عليه الرغبة في تملكها. لأن أخذ شيء والاحتفاظ به، أمر سهل ويتطلب القليل من المعرفة والحب. مثل هذا الطفل سيقول: «أريدها» عندما يرى ساعة ذهبية، بينما لا يمكنه معرفة الوقت. ثم - فجأة - سيصبح طفل آخر: «لا، أنا أريدها»، وهم مستعدون للقتال من أجل الساعة، حتى لو كان في ذلك خرابها. وهذا هو طريق يبدأ فيه التنافس بين الأفراد، واحد ضد الآخر، ويدمرون الأشياء التي يرغبون في تملكها.

عمليًا، تبدأ كل الانحرافات الأخلاقية من هذه الخطوة الأولى التي يتمثل فيها قرار بين الحب والتملك. ومن سينفذ مثل هذا الاختيار، يتقدم في أحد طريقين منحرفين. وتصل طاقات الطفل الطبيعية إلى أن تصبح مثل أذرع الأخطبوط في اقتناص وتدمير الأشياء التي يرغبها «بتوحش». إن مشاعر التملك تجعله يتشبث - بعناد بالأشياء. ويدافع عنها كيفما يدافع عن حياته. والأطفال المتسمون بالقوة والنشاط، يحمون ما يملكون بالعراك والتقاتل مع الأطفال الآخرين الذين يريدون أخذها منهم. والأطفال من هذا النوع، وبسبب رغبتهم

المشتركة في الأشياء ذاتها، يتعاركون فيما بينهم. وهذا يتيح ظهور ردود الأفعال المؤلمة السيئة، والعراك التافه. هذا العنف والتنازع لا ينبغي أن يُستخفَّ به. فهناك عقدة ما، وظلمة حيثما ينبغي الإشراق. ويحدث ذلك لأن ثمة طاقات طبيعية، قد انخرفت. و«التملكية» تجد وظيفتها في بعض شرٍ داخلي، لا في موضوع خارجي.

وكجزء من تدريبهم الأخلاقي، يتم تشجيعهم وحثهم على ألا يرتبطوا ويتعلقوا - بشدة - بأشياء مادية. وأساس هذا البناء، احترام ملكية الآخرين. لكن، عندما يتم الوصول بالطفل إلى هذه النقطة، يكون قد تم - بالفعل - عبور الجسر الذي يفصل المرء عن عمق الحياة الداخلية. وهذا سبب شغفه الشديد وحبه للعمل - بنشاط وهمة - في الأشياء الخارجية. ثم يرتبط الطفل بشدة الرغبة، حتى يُعتقد أنها صارت جزءًا من طبيعته الخاصة.

أيضًا، يتركز اهتمام الأطفال النزاعين إلى الخجل، حول الأشياء المادية التافهة عديمة القيمة. ومع ذلك، فهؤلاء الأطفال يملكون الأشياء بطريقة مختلفة. فهم غالبًا لا يستمرون في الاحتفاظ بها، كما لا ينازعون الآخرين بسببها، أو يتنافسون عليها. كما أنهم يكدسون الأشياء ويخفونها. وينظرون إليهم كجماعين، لكنهم لا يجمعون الأشياء كي يصنّفوها إلى أنواع وفئات محددة. إنهم يجمعون أشياء متناقضة ومختلفة تمامًا، ولا يجدون لديهم ما يفعلونه بها. وليس الكبار من مرضى العقل - فقط - هم من يملأون جيوبهم بأشياء غير مصنفة وغير مفيدة، لكن الأطفال الجانحين أيضًا. وجميعهم يعانون من هوس غير منطقي

بالجميع والتملك. والأطفال ذوو الشخصية الخجولة الضعيفة ينشغلون في أنشطة مشابهة، لكن يُنظر إلى عاداتهم في جمع الأشياء، كوضع طبيعي وسوي تمامًا. وإذا ما حاول أحد أن يوقف هؤلاء الأطفال عن تلك الأشياء التي جمعوها، فسيدافعون عنها بكل ما يستطيعون.

وقد اهتم عالم النفس «آدلر» بتفسير عادة الجمع هذه. وقارنها بحب جمع المال وتخزينه لدى الكبار. وهي بذرة يمكن إدراكها في الطفولة المبكرة. فارتباط الإنسان وتعلقه بأشياء كثيرة، ثم ممانعته في التخلي عنها حتى إذا لم يكن لها أي استخدام - هو شيء مهلك يمكنه أن يفقد المرء توازنه الأساسي أو يعكس صفوه. والآباء يُسرُّون برؤية أطفالهم يدافعون عما يجوزتهم ويعتبرونه جزءًا من الطبيعة الإنسانية، وعنصرًا مهمًا في المجتمع. والإنسان العادي يستطيع إدراك وفهم الأطفال الممتلكين الجامعين للأشياء. فهم نوع من السهل تعرُّفه ولا يحتاج متخصصين.

الرغبة في القوة

خاصية أخرى منحرفة ترتبط «بالتملكية» هي «الرغبة في القوة». وأحد أنواع القوة يمكن إدراكه في غريزة تملك المرء للبيئة، وبذلك يحظى بتملك العالم الخارجي، رغم حب هذه البيئة. لكن هذه القوة تصبح منحرفة عندما ينتج عنها اشتها ما يملكه الغير، رغم كونها المخرج الطبيعي للنمو الجسمي.

ويجد الطفل المنحرف نفسه في حاضر الكبير وعلى شاكلته حيث يتم بأن يصبح كائنًا قويًا متميزًا، مع كل شيء يمكنه السيطرة عليه. مثل هذا الطفل يدرك أن قوته الخاصة تصبح عظيمة، إذا ما تمثل الكبير وتصرف مثله. ويبدأ في استثمار الكبير بحصوله على ما لا يستطيعه بمفرده وبجهوده هو فقط. وهذا فهمٌ مكتمل لما ينتج عن تصور الكبار أنه شيء عادي، رغم أنه من الصعب تصحيحه. وهذه في الحقيقة - خدعة تقليدية تكمن في جزء من الطفل. فلا شيء أكثر اعتيادية وطبيعية وعقلانية من أن الطفل الضعيف من لا حول له ولا قوة، حين يكتشف إمكانية استغلال قوة أخرى لا يملكها، يقدم على هذا الفعل (استخدام قوة الكبير في الحصول على ما يريد الطفل). فيبدأ في طلب ما يتصوره الكبير صوابًا. لكن رغباته - في الحقيقة - لا انتهاء لها. وفي تخيل الصغير، أن الكبير قادر على تحقيق آمنيات الطفل ورغباته، بلا حدود. ويجد مثل هذا التوجه، تحققًا تامًا في حكايات الجنية التي تتلبس روح الطفل. حيث يشعر - من خلال هذه القصص الخيالية - أن رغباته المهمة تُصور بشكلٍ مبهج. فالجنّيات يمكنهنَّ الحصول على أشياء ثمينة ومفضلة، بقوة تفوق القوى البشرية. وهناك جنّيات طبيبات وأخريات شريرات، جميلات وقبيحات. وهن موجودات بين الفقراء، تمامًا مثلما يُوجدنَ بين الأغنياء، في الغابات كما في الأماكن المسحورة. إنها «الإسقاط» في خيال طفل يعيش بين الكبار. فهناك جنّيات عجائز مثل جدته، وشابات جميلات مثل أمه. إحداهن ترتدي أسماً بالية وأخرى تلبس الحرير والذهب. تمامًا مثلما

هناك أمهات فقيرات، وأمّهات ثريات يرتدين خير الثياب، لكنهن جميعاً - يدلّن أطفالهن.

وكيفما كان الكبير - من طبقة راقية أو دنيا لا بد أن يكون كياناً قوياً، إذا ما قورن بطفل. والأخير مدفوعاً بأحلامه يبدأ في استثمار الكبير، الذي يشعر - ابتداءً - ببهجة في رؤية صغيره سعيداً. لكن هذه الامتيازات تؤدي في النهاية إلى الأسى والأسف. فالكبير سيعاون طفله في غسل يديه، ثم يدفع بعد ذلك ثمن هذه المساعدة، استسلاماً تاماً لطلبات الطفل. وبعد هذا النصر الصغير، يتطلع الطفل لانتصار ثان. وهكذا يستمر الصغير في طلب المزيد، والكبير - دائماً - يستسلم لتوسلاته. أخيراً، يتلاشى الوهم أن الكبير يُرضي رغبات الطفل، ويتحول إلى طعم مرير. وبما أن العالم المادي محدود، والخيال يمكن أن يصل إلى ما لا نهاية، يمكن - في النهاية الوصول إلى اصطدام بعنف المجاهدة. ويظهر الطفل نوبات الغضب التي تؤرق الكبير، الذي يدرك - فجأة - أنه ارتكب خطأ يجعله يردد : «لقد أفسدت طفلي تدليلاً».

وحتى الطفل المدعن المطيع، له وسائله الخاصة في الانتزاع. فهو يحرز انتصاراته عن طريق التأثير، والدموع، والتوسل، والنظرة النزاعة إلى الحزن، وحتى عن طريق سحره الطبيعي. ويستجيب الكبير لمثل هذا الطفل مادام يستطيع إعطائه ما يريد. ثم تأتي حالة المارّة التي تؤدي في النهاية إلى كل أنواع انحرافات سمات الطفل. ويشعر الكبير

حينئذٍ - أن أسلوبه هو مصدر تشوهات شخصية طفله. وينظر حوله عن سبل تصحيحها.

لكننا نعرف أن لا شيء يصلح من نوبات غضب الطفل. فلا النصح يجدي، ولا العقاب. إنها حالة أشبه بمن يهذي من ارتفاع حرارته، ويأتي من يخبره بأنه سيشفى، ثم يُضرب إذا لم تنخفض درجة حرارته. لا، فالكبير لم يُفسد طفله حين استسلم لرغباته، بل حين أعاق نموه وتسبب في أن يضل نموه الطبيعي طريقه الصحيح المستقيم.

عقدة النقص

يُظهر الكبار قلة الاحترام لهؤلاء الأطفال ممن يخفقون في الإدراك والفهم الواضح. فبدلاً من وضعه في مركز افتخاره وآماله في المستقبل، يحركه سرٌّ، للتصرف عكس ذلك. فهو يبدو مقتنعاً أن طفله كان «فارغاً» و«سيئاً»، وبالتالي، فهو يحتاج إلى تقويم وتصحيح وتعبئة جديدة. هذا التوجه المعتم يرر قلة احترامه للطفل. إنه يرى الطفل الضعيف قبل محاولته رؤية الطفل ذاته، ويعامله كما لو كان يتفضل عليه. إنه لا يرى شيئاً خطأ في البوح بأن سمات شخصية الطفل - في ظهورها بصحبة الكبار - ستكون مخجلة. وبداخل جدرانه الداخلية، تتخفى أنانيته واستبداده كسلطة أبوية لتسحق «أنا» الطفل وتصيبها بالاعتلال.

على سبيل المثال: إذا رأى الكبير طفله يحمل كوب ماء، يبدأ في الخوف من احتمال كسر الكوب. هنا يغلبه شعوره الجشع، فيرى

الكوب كأنه ثروة، ويسارع بأخذه منه. إن الكبير الذي يفعل هذا من الممكن أن يكون ثرياً ويتطلع لزيادة ثروته عدة مرات مضاعفة، آملاً أن يترك ابنه أكثر ثراءً منه. لكنه في تلك اللحظة ينتزع الكوب - وكأنه شيء ذو قيمة تفوق نشاط طفله - ويحْد في الحيلولة دون كسره. ويتساءل بداخل نفسه: «لماذا يضع هذا الطفل الكوب بهذه الطريقة بينما أضعه أنا بطريقة أخرى؟ ألا أستطيع ترتيب الأشياء كما أريد؟». بينما يسعد هذا الكبير - نفسه - بأي تضحية من أجل طفله. فهو يحلم بنجاح الطفل. ويتمنى أن يراه وقد صار رجلاً مشهوراً قوياً. لكنه في هذه اللحظة، يتم التسلط عليه من أب فاشيستي، يصرّ على أن طفله يستنفد طاقاته في الحفاظ على شيء لا يعنيه البتة. لكن في الحقيقة، لو أن خادماً كان قد أمسك الكوب بالطريقة ذاتها التي تناوله بها الطفل، لكان الأب قد ابتسم ببساطة. وإذا ما كسره ضيف، فسيؤكد - فوراً - أن الكوب كان غير ذي قيمة، وأن الحادث لا يعني شيئاً على الإطلاق.

لهذا، لابد للطفل أن يلاحظ أنه الوحيد غير الموثوق به، وأنه مصدر المتاعب والأذى. وهكذا، يرى نفسه ككائن أدنى، وأقل قيمة من الأشياء التي يُحظر عليه لمسها.

وهناك عدة حقائق أخرى يجب أخذها في الحسبان: فإذا كان على الطفل أن ينمي حياته الداخلية، فلا يجب فقط أن يُسمح له بلمس الأشياء المتنوعة والعمل بها، لكن لابد أن يفعل هذا بشكل منطقي ومتناغم. وكل هذا يشكل غاية الأهمية لنمو شخصيته. لكن الكبير لا

يتعمد الانتباه، فلا يعير اهتمامه لتصرفاته العادية التي تمثل جزءًا من حياته اليومية وجزءًا من وجوده. فعندما يستيقظ في الصباح، يعرف - بحكم العادة - أن عليه القيام بأعماله الاعتيادية التي لا تزيد عن كونها أبسط الأشياء في العالم. وتعاقب تصرفاته يتم - غالبًا - بشكل آلي، فلا شيء يمكن ملاحظته أكثر من الهواء الذي يتنفسه أو الدقات التي يختلج بها قلبه.

من ناحية أخرى، على الطفل أن ينمي عادات سلوكه، لكن، لا يُسمح له بوضع خطة مُفصَّلة للتصرف أو السلوك. فحينما يلعب الطفل، يقاطعه الكبير ظنًا منه أن هذا وقت التمشية. والطفل يرتدي ثيابه ثم يخلعها. أو ربما يؤدي الطفل مهمة، مثل ملء الدلو بقطع الحجارة الصغيرة، بينما تتحدث أمه مع صديقة لها. ثم يُقاطع الطفل أثناء انهماكه في عمله كي تريحه أمه للزائرة. هكذا يتم التدخل في بيئة الطفل وإفسادها. هذا الكائن القوي يدير حياة الطفل بدون - حتى - استشارة الطفل نفسه. وقلة الاعتبار هذه، تجعل الطفل يعتقد أن نشاطاته الخاصة به ليست ذات قيمة. وفي المقابل، عندما يخاطب الكبير كبيرًا آخر في حضور الطفل، فعليه أن يتصرف كالخادم. عليه ألا يقاطعه دون عبارة «إذا سمحت» أو «من فضلك». وفي الحال يشعر الطفل أنه مختلف عن بقية النوع الإنساني، أنه الأدنى بين الجميع. وكما أشرنا للتو، يعتمد تعاقب التصرفات على خطة مسبقة غاية في الأهمية بالنسبة لنمو الطفل. وذات يوم سيشرح الكبير للطفل أنه - الطفل - مسئول عن تصرفاته الخاصة. هذه المسؤولية تعتمد

بصورة تامة على فهم الصلة والارتباط بين تصرفاته المتنوعة وبين الحكم الصائب الذي يأخذ في الاعتبار ما تحمله من معانٍ. لكن الطفل وحده هو من يشعر بمغزى ودلالة كل تصرف. أما الأب - الذي يحزنه ذلك - فيخفق في إيقاظ حس المسؤولية والسيطرة على الذات لدى ابنه. لأنه - ببساطة - قد دمر إحساس طفله بالتواصل بين تصرفاته ونظرته الخاصة إلى كرامته وهويته. ويحمل الطفل بداخله - سرًا - شعورًا بمركب الدونية (عقدة النقص) والعجز. فحتى يتحمل المرء المسؤولية، عليه - أولاً - أن يقتنع بأنه سيد تصرفاته الخاصة، وأن تكون لديه الثقة بنفسه.

وأكثر المصادر خطورة لتثبيط المهمة هو نقل شعور للمرء بأنه غير قادر على فعل شيء. فإذا توجّب على شخص مشلول أن يعدو في سباق مع آخر يشير ضحيجًا، لما تمنى الأول أن يعدو، على الإطلاق. وشخص عادي لا يعنيه أن يلتقي ملاكمًا محترفًا داخل حلقة الملاكمة. لأن الشعور بعدم التنافس لانعدام التكافؤ يثبط الجهد، حتى قبل أن يوضع المرء في اختبار. وحين يُشعر الكبير طفله بضعفه وقلة حيلته، يثني رغبته عن الفعل، أي فعل. لكن الكبير لا يحمل - عمدًا - إعاقة لنشاطات الطفل، بل يظل يردد أمامه: «إنك غير قادر على هذا الفعل، ولا فائدة حتى من مجرد المحاولة». وإذا كان الكبير تعوزه الدربة واللياقة فسوف يقول: «أنت أبله، ماذا أنت فاعل؟ ألا تعرف أنك لا تستطيع فعل ذلك؟». مثل هذا السلوك لا يعيق الطفل في

عمله وحسب، بل يقطع عليه استمراره وتواصله مع ذلك العمل، لكن الأخطر هو أنه يُحَقَّر من شأن الطفل ويهين كرامته.

كل هذا يقود الطفل إلى الاعتقاد بأنه ليس فقط يأتي بتصرفات منعدمة القيمة، بل إنه - هو شخصيًا - لا حول له ولا قوة وأنه أحمق وغير كفؤ لأي شيء. هذا هو مصدر شخص أقوى منا، أن نفعل ما نريد، فعلى الأقل نستطيع إقناع أنفسنا أنه سيأتي - في المستقبل من هو أضعف منا، ولن يمنعنا من فعل ما نريد. لكن، إذا أقنع الكبير الطفل أن الضعف يتغلغل في نفسه، تنزل سحابة على عقله، ويخوض في حالة من الفتور والخوف. عندما يحدث هذا، يصاب نمو الطفل بعائق داخلي يُعرف بـ «عقدة النقص». ويمكن لمثل هذا العائق أن يترسخ بداخله كشعور بالضعف والنقص، مع احترام شديد للآخرين. وهذا يحفظ الطفل بعيدًا عن الارتباط بصراعات الحياة اليومية.

جُبْن، تردّد في اتخاذ القرارات، انسحاب قبل الصعوبات أو التعرض للنقد والتخطئة، دموع مألوفة ومتكررة، ومظهر يائس مصحوبٌ بحالة تدعو للآلم، كل هذا خلقتة عقدة الدونية والنقص. وفي المقابل، فواحدة من أهم ما يميز خصائص شخصية الطفل «السوي» هي ثقته بنفسه والثبات في التصرف والأداء.

في «سان لورنيزو»، عندما أخبر الطفل الصغير الزائرين، أن بوسع الأطفال فتح الفصل المدرسي والجلوس للعمل، حتى في غياب المعلمة (وقتها كان اليوم عطلة)، فقد أبدى توازن ومرونة الشخصية التي لا

تَدْعَى بل تظل تعرف إمكانياتها. عرف الطفل أنه كان يعمل ويأتي بالسلسلة المتعاقبة الضرورية من التصرفات لإتمام العمل. وذلك دونما أي شعور بأنه قد أتم فعلاً استثنائياً.

طفلٌ صغيرٌ آخر كان يستخدم حروفاً متحركة ليصنع كلمات متجاوزة. لم ينزعج إطلاقاً حين وقفت أمامه ملكة «إيطاليا» وسألته أن يتهجى «عاشت إيطاليا». عندما سمع الطفل ذلك، وضع الحروف التي استخدمها في مكانها المضبوط. فعل هذا بهدوء وكأنه موجود بمفرده. وربما اعتقد المرء - ساعتها - أو توقع منه أن يؤثر هذا العمل، على شرف الملكة، وأن ينفذ أمرها في التو. لكنه لم يستطع التخلي عن عاداته في سلوك العمل. فقبل أن يتمكن من تأليف كلمات جديدة، كان عليه أن يضع الحروف في أماكنها المناسبة. وعندما أتم هذا، بعدها تهجى الكلمات: «عاشت إيطاليا»، رغم أن هذا الصغير لم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره. لكن واقع الأمر أنه كان - بالفعل رجلاً صغيراً يتحكم في تصرفاته ومشاعره، آمناً في بيئته.

الخوف

الخوف هو أحد أشكال الانحراف الذي يُعتقد أنه مظهر طبيعي بين الأطفال. ويُفهم بحسبانه خللاً انفعالياً يتجذر - بعمق - داخل الطفل، ويعتمد - كليةً - على محيطه الخارجي. ومعنى آخر: الخوف مثل الخجل الذي يُنظر إليه كجزء من السمات الخاصة بالطفل. فبعض الأطفال نجولون لدرجة يبدون معها كالمغلغلين بتيارٍ من الخوف. وهناك آخرون،

لكنهم شجعان، نشطاء، وغالبًا شجعان في مواجهة الخطر، لكنهم - أحيانًا - يكونون موضوعًا للغموض وغياب المنطق، والإزعاج الذي لا مثيل له. مثل هذه التوجهات قد تُفسَّر باعتبارها نتائجًا لانطباعاتٍ مازالت حية، وحدثت في الماضي. وربما يخاف الأطفال من عبور الشارع، أو من وجود قطط تحت السرير، أو ربما يخافون من منظر الدجاجة. هذه المخاوف تشبه الخوف المرضي (الفوبيا - Phobias) التي يلاحظها الأطباء النفسيون في بعض الكبار. وهي توجد بشكلٍ خاص في الأطفال الذين يعتمدون على الكبار. والكبير يستطيع انتهاز فرصة جمل الصغير لتخويله من أشياء وهمية حتى يجبره على إطاعته. وهذا من أسوأ أنواع الدفاعات التي يوظفها الكبير ضد الطفل؛ لأن ذلك يفاقم خوف الطفل - الطبيعي - من الظلام، حيث يمزجه بخيالات مرعبة. وأي شيء يُمكن الطفل من التواصل بالواقع وبالخبرة وبفهم بيئته، يساعد في تحرره من حالة الخوف المزعجة. إن أحدًا من أهم ثمار مدارسنا الاعتيادية هو اختفاء هذه الأنواع من المخاوف التي تسكن عتبة تحت الوعي.

كان لأسرة أسبانية أربع فتيات، التحقت الصغرى بإحدى مدارسنا. وكلما حدث وهبت عاصفة أثناء الليل، كانت الوحيدة من بين البنات التي لا تخاف. وتأخذ أخواتها الأكبر إلى غرفة الوالدين، حيثما يجدن الحماية. وقد كانت دعمًا حقيقيًا لأخواتها الأكبر المصابات بهذا الخوف الغريب. وكلما خافت الأخوات من الظلام، سارعن إلى أختهن الصغرى لتزيل قلقهن.

وتختلف «حالة الخوف» عن تلك التي تظهر بالفطرة وبغريزة حماية الذات في مواجهة الخطر. فهذا النوع الأخير من الخوف، أقل انتشاراً بين الأطفال عنه بين الكبار. فالصغار أقل خبرة ممن هم أكبر منهم في ملاقات الأخطار. بل يمكن القول أن الطفل يواجه - بشكل طبيعي أي خطر، ويفعلها باستعداد أعظم من الكبار. وفي الحقيقة: الأطفال هم من يُعرضون أنفسهم - غالباً - لمثل هذه الأخطار. فهم يسيرون في الشارع أثناء عبور السيارات أو الحافلات. وفي القرية، يتسلق الأطفال أعالي الأشجار، ثم يقفزون منها إلى الأرض. ويقذفون بأنفسهم إلى البحر أو النهر، وغالباً ما يعلمون أنفسهم السباحة. وقد أظهروا - في حالات لا تعد ولا تحصى - بطولات عظيمة في الإنقاذ، أو - على الأقل - في محاولات إنقاذ رفاقهم. على سبيل المثال: اشتعلت النار في مستشفى بـ «كاليفورنيا» الموجود بها جناح للأطفال مكفوفي البصر. وبين الضحايا كان هناك عدد من الأطفال المبصرين. ورغم أنهم يعيشون في جزء آخر من المبنى، فقد اندفعوا لمساعدة الأطفال المكفوفين. وفي كل يوم - تقريباً - نقرأ في الصحف أو في المجلات عن أمثلة أخرى للبطولات الشابة الصغيرة.

والسؤال الذي ينبغي طرحه هو: هل سيعود الطفل إلى الحالة الطبيعية ولديه هذا الميل البطولي؟ ليس هناك أي من الأطفال في مدارسنا سار أية خطوات بطولية، رغم أنهم - في مناسبات مختلفة - قد عبّروا عن بعض الرغبات النبيلة. وكقاعدة: فإن أطفالنا يُنمّون نوعاً من «الحذر» الذي يجعلهم قادرين على تجنب الأخطار، وعلى سرعة

التعايش معها. فهم يستطيعون التعامل مع السكاكين، على المائدة وحتى في المطبخ. ويستخدمون أعواد الثقاب في إشعال النار، أو حتى الشرر الذي ينطلق من الألعاب النارية. يقفون - بمفردهم - قرب البرك التي يكونها الماء في أخاديد الشوارع، ويعبرون شوارع المدينة. تعلم أطفالنا كيف يتحكمون في أفعالهم ويتجنبون الاندفاع. كل هذا يمكنهم من العيش في حياة أكثر نبلاً وأكثر سلاماً. «التطبيع» - إذن - ليس القدرة على إلقاء النفس في قلب الخطر، بل السعي إلى الحذر والتعقل الذي يسمح للمرء بإدراك الخطر وتجنبه وكيفية التعامل معه إن وُجد. وهكذا يمكنه العيش في قلب الحياة دون خوف أو ذعر.

الكذب

يمكن للانحرافات النفسية أن تنتشر في كل الاتجاهات، مثل فروع النبات وافر النماء. لكنها - جميعاً - تخرج من الجذور العميقة ذاتها. وهي تبقى هناك، لأن سر «التطبيع» موجود. وخطأ شائع لدى التربويين، أن يعتبروا هذه الانحرافات كينوناتٍ منفصلةً مستقلةً كلاً منها عن الأخرى.

والكذب واحد من أخطر هذه العيوب والتشوهات. فالكذبة أو الخداع هو نوع من الغطاء ويُغلف الروح. حتى يمكن مقارنته بخزانة ثياب، مليئة بأشكال وهيئات مختلفة. وهناك أنواع عديدة متنوعة من الكذب، لكلٍ منها معناه ودلالته الخاصة. كذبٌ طبيعي سوي، وآخر مرضي. وفي القرن الأخير، اهتم الأطباء النفسيون بكذب

الرجال والنساء - على كره - كموضوع للهيستريا. وفي مثل هذا الكذب الفردي، يتزايد - نسبيًا - فيصبح الكلام في مجمله، نسجًا من خداع. وقد لوحظ، مع الانتباه إلى كذب الأطفال في محاكم الأحداث، إمكانية الكذب والخداع - لا شعوريًا - كجزء واضح في شخصية الأطفال الذين يتم استدعاؤهم كشهود. وقد تم تحريك هذا الجزء الكذاب حين أدرك الناس أن الطفل ذو «الروح الطاهرة الخالية من السوء»، يمكن أن يصبح ناطقًا بلسان الحقيقة، وذلك في حالة الصدق والإخلاص التي تطيح بكل ما هو زائف. وقد أظهرت دراسات لاحقة حول هذه الظاهرة، أن هؤلاء الأطفال كانوا - حقيقةً - يحاولون قول الحقيقة، وأن كذبهم كان راجعًا إلى تشوش عقلي مبالغ فيه بسبب انفعالهم الشديد.

مثل هذه البدائل لإحلال البهتان محل الحقيقة، سواء كانت مزمنة (متكررة الحدوث) أو منفردة (مرة واحدة)، تبرز من بين الأكاذيب المتعمدة التي يوظفها الطفل كدفاعات يخفي بها ما يريد. لكن، تظل هناك أكاذيب أخرى لا ترتبط بالدفاع عن الذات، ويرويها أطفال أسوياء في ظروف الحياة العادية. ويمجد الكذب وظيفته - أيضًا - في رغبة الطفل أن يحكي شيئًا خياليًا. والتجديد في هذه الحالة يضيف نكهة خاصة تجعل الآخرين يأخذون ما يروي الطفل مأخذ الحقيقة، رغم أن الحكي ليس هدفه الشخصي هو الخداع أو الكذب. ويمكن اعتباره شكلًا فنيًا كالذي يتقمصه الفنان وهو يؤدي دوره التمثيلي وذات مرة أخبرني عدد من الأطفال أن أهم قد أعطت شخصًا - دعتة

لتناول العشاء - بعض عصائر الخضروات التي أعدتها له بنفسها. ولم يكن المشروب صحياً فقط، بل طيب المذاق، لدرجة أن الضيف قال أنه لم يتذوق شيئاً كهذا من قبل. وكانت القصة مشوقة ومفصلة، حتى أنني سألت أم الأطفال أن تخبرني كيفية إعداد المشروب. لكنها أخبرتني أنها لم تصنع - قط - شيئاً كهذا .. هنا لدينا حالة من الإبداع الخالص في تعبير خيالي عبر كذبة بلا أي قصد سوى الحكي، ونسج قصة.

هذه الأكاذيب تختلف عن النوع الذي يُساق لأن الطفل كسول وغير مبالٍ باكتشاف الحقيقة.

ومع ذلك، أحياناً يكون الكذب نتاج ذهن حاذق. ذات مرة، عرفت طفلاً في الخامسة من عمره، تركته أمه لأمر طارئ في مدرسة داخلية. وكانت المسئولة المنوط بها رعاية المجموعة التي تشمل هذا الطفل، مناسبة جداً لهذه المهمة، وتعطي رعاية خاصة لهذا الطفل تحديداً. بعد فترة، بدأ يشكو منها لأمه قائلاً أنها كانت قاسية عليه بشدة. ذهبت أمه إلى المسئولة عن المدرسة للتقصي عن هذه المعلمة. ثم بدأت تقتنع بالرعاية والجهد الذي بُذل مع طفلها. وعندما سألتها السيدة لماذا كذب عليها؟ أجاب: «لم أستطع القول أن المسئولة هي السيئة». ولم يكن واضحاً أنه تنقصه الشجاعة لاتهام المسئولة، لكنه كان موضوعاً قوياً للإقناع. وأكثر من هذا يمكن أن يقال عن استخدام الأطفال البارع لإمكانية توافقهم مع بيئتهم.

وعودة إلى الأطفال المخادعين الضعفاء، إنهم يصنعون الكذب عفوَ اللحظة. مثل هذه الأكاذيب لا يتم التفكير فيها بعناية، لكنها نوعٌ من

الدفاع الشرطي. هؤلاء الأطفال سذج، وينكشفون فوراً. ويصارع المعلمون هذا النوع من الخداع، لكنهم ينسون ما يمثله الأطفال. إنهم يدافعون - بوضوح - ضد انقضااض الكبار وهجومهم. والأطفال المذنبون بهذا النوع من الكذب متهمون بأنهم ضعفاء، نجولون، مخفقون في التصرف كما ينبغي.

والخداع ظاهرة عقلية تظهر في مرحلة الطفولة، لكنها تصبح منظمة مع النضج. وهي تلعب دوراً مهماً في المجتمع الإنساني، فهي تبدو لا غنى عنها، نبيلة، وجميلة، مثل الرداء للجسم طفل في واحدة من مدارسنا، يسلم بهذه النظرية الفاسدة، ويظهر طبيعياً ومخلصاً. ومع ذلك، فالكذب ليس انحرافاً يختفي بمعجزة. هناك حاجة إلى إعادة البناء أكثر منها إلى الاهتداء أفكار واضحة، تواصل مع الحقيقة، تحرر الروح، اهتمام نشط بما هو طيب ونبييل، بيئة تشرق فيها روح الطفل.

تنغمر الحياة الاجتماعية في مناخ من الدعوات الفاسدة، ومحاولة تصميمها قد تودي بالمجتمع إلى الاضطراب. وأطفال كثيرون ممن تركوا «بيوت الأطفال» إلى مدارس أعلى، كان يُعتقد أنهم وقحون، عُصاة ومتمردون، ببساطة لأنهم كانوا أكثر صدقاً من الأطفال الآخرين، ولم يتعلموا كيفية توائهم مع البيئة الجديدة. ولم يدرك معلومهم هذه الحقيقة. إن الفوضى والادعاءات في أية مدرسة اعتيادية - مثلاً في المجتمع - تمر عبر الخداع، وهؤلاء المعلمون يعتبرون الصدق غير معروف حتى الآن - الذي يتسم به أطفال مدارسنا، كعامل يوقع الفوضى بين تربية الآخرين وتعليمهم.

من أهم إسهامات التحليل النفسي في تاريخ الروح الإنسانية، تفسير
تمويهات عتبة تحت الوعي. فخزي الكبار وليس حكي الاطفال الخيالي،
هو ما يصنع النسيج المرعب للحياة الإنسانية. إنهم يشبهون فراء
حيوان أو ريش طائر، يغطي ويزين ويحمي المبدأ الحيوي، وهو أن
الكذب يحجب - تمويهًا - حتى يمكن للمرء أن يعيش. ومادامت الروح
تعجز عن الارتباط بنضال آني، فستكيف نفسها مع محيطها الخارجي.
ومن أكثر التمويهات التي يمكن ملاحظتها: التظاهر الكاذب بالفضيلة
(الرياء)، الذي يعامل به الكبير، الطفل. فهو يضحي بحاجات الطفل
من أجل نفسه، لكنه يرفض إدراك الحقيقة، فهي لا تتحمل. إنه يخدع
نفسه بأنه يمارس حقه الطبيعي ويتصرف لصالح مستقبل الطفل.
وعندما يحمي الطفل نفسه، لا يلتفت إلى حقيقة ما يحدث، بل
يحكم على ما يفعله الطفل ليحمي نفسه، كعصيان وتمرد ونتيجة لميوله
الشريرة. وينمو صوت الحق والعدل داخل الكبير بصورة ضعيفة،
ليحل الادعاء الباطل محله، أن المرء يتصرف وفقًا للصواب وللواجب
وما إلى ذلك. ويتحجر القلب، يصبح كالجليد. ويتحطم أمامه
كل شيء. «أصبح قلبي صخرة، استأصلته وتأذت يدي». ويستخدم
«داني» خيالًا ذا مغزى: الجليد في أعماق جهنم، حيث يجد الكره مأواه
وملاذه. فالحب والكره حالتان للروح يمكن مقارنتهما بالماء في حالتيه،
السائلة والصلبة. إن الادعاءات التي تموه على حقيقة مشاعر الإنسان
هي كذبة روحية تساعد في تكييف نفسه مع الانحرافات المنظمة

للمجتمع. لكنها تدريجيًا تحول الحب إلى بُغض وضعينة. هذه هي
الكذبة المربعة المحبّاة في أعماق طبقات عتبة تحت الوعي.

24. الآثار على الصحة الجسمية

تحمل الانحرافات النفسية تنوعًا واسعًا في السمات المرتبطة بها. وربما لا تبدو بين بعضها صلة، إذا ما كان تأثيرها على وظائف الجسم. وقد درس الطب الحديث، وأسس حقيقة مؤداها أن كثيرًا من الخلل الجسمي له أصل نفسي. وحتى تشوهات محددة تبدو مرتبطة بالجسم، لها جذورها في المشكلات النفسية. بعض هذه الأعراض - مثل صعوبات الهضم - تنتشر وتشيع بين الأطفال. فالأقوياء منهم وشديدو النشاط لديهم شراهة تجعلهم دائمي الإحساس بالجوع الذي تصعب السيطرة عليه. هؤلاء الأطفال يأكلون أكثر من الضروري. هذه الشراهة تؤخذ - غالبًا - على أنها «شهية جيدة». ومع ذلك، ربما يمرضون ويحتاجون مساعدة طبية.

منذ العصور القديمة، والرغبة في طعام أكثر مما يحتاج الجسم - والتي تضر أكثر مما تنفع - اعتُبرت عيبًا ونقيصة. وربما يُنظر إلى هذه الرغبة بحسبانها تحللًا للإحساس السوي الذي يُعلي من منزلة الراغب في الأكل، لكنها - أيضًا - تعبير عن كمية الطعام المطلوبة. هذه الحساسية

تميز جميع الحيوانات التي تحافظ على ذواتها وتقيها بدافع فطري. وفي حقيقة الأمر، تم قبول هذه الفطرة بصورة مضاعفة. ومن أهم ما يتعلق بها، بيئة الحيوان التي ترشده إلى تجنب الأخطار. والفطرة لا تستميل الحيوان لأكل ما ينبغي وحسب، بل - أيضًا - للمقدار المناسب لهم. إنها - حقًا - إحدى الخصائص والسمات المميزة لكل نوع من الحيوانات. فهي إما تأكل كثيرًا أو قليلًا، وفقًا لفطرة كل حيوان وما ترشده إليه من نوع وكَم الطعام الملائم لاحتياجات بقائه.

الإنسان - فقط - هو المذنب برذيلة النهم. فهي تقوده - بلا بصيرة للأكل أكثر مما ينبغي، ولما هو ضار بصحته. لهذا؛ يمكننا القول أنه بظهور الانحرافات النفسية، يفقد الأفراد الحس الذي يحميهم ويؤكد حالتهم الصحية. وإثبات ذلك يوجد في الطفل المنحرف نفسيًا. فهو يبدأ مباشرة في إظهار نقص التوازن في عاداته الغذائية. فالطفل يجذبه منظر الطعام، الذي يحكم عليه - فقط - بحاسة التذوق الخارجية. وتضعف القوة الحيوية الداخلية، وحماية الذات، بل وتختفي تمامًا. ومن الأشياء اللافتة للملاحظة في مدارسنا الاعتيادية، حقيقة تؤكد أن الأطفال المتحررين من انحرافاتهم النفسية، والمستقرين في إطار السواء، يفقدون - تدريجيًا - الرغبة الملحة في الطعام. ويصبحون معتدلين في الأكل الصحيح وبكميات مناسبة. فعندما يحين وقت الطعام، يشغل الأطفال الصغار وقتهم في الإعباد المناسب لملاعتهم وشوكهم وسكاكينهم وأطباقهم وأكوابهم، في جهد لتذكر استخدام كل منها، أو في مساعدة رفاقهم الأصغر منهم. وأحيانًا ينغمسون في هذه

الأمر، حتى يبرد الطعام الموضوع أمامهم .. أطفال آخرون يبدو عليهم الحزن: فقد أملوا أن يتم اختيارهم لخدمة طاولات الطعام، لكنهم يرون أنفسهم - بدلاً من ذلك - قد طلب منهم مهام أسهل بكثير، إنها مجرد الأكل.

برهان آخر على العلاقة بين الطعام وحالة الشخص النفسية، يمكن ملاحظتها في الأطفال الكذابين. مثل هؤلاء الأطفال لديهم كراهية - غير متعمدة وملحوظة - للطعام. فبعضهم يرفض تناول أي شيء يؤكل، وأحياناً يتسبب رفضهم للطعام في خلق صعوبات ومشكلات داخل الأسرة أو المدرسة الداخلية. وتبدو هذه الظاهرة - تحديداً - في معاهد الفقراء، وبين ضعاف الأطفال ممن يُتوقع منهم الأكل - بشراسة - حيثما توافر لهم ويقدر ما يمكنهم. وأحياناً تسبب حالة الإعراض عن الطعام حالة جسدية تستعصى على العلاج. لكن كراهة الطعام تلك، يجب ألا تختلط بالخلل الجسدي الذي يسبب للطفل فقد شهيته للطعام. فالطفل قد يرفض الأكل بسبب حالته النفسية. وفي بعض الحالات، يرجع هذا إلى الميكانيزم الدفاعي. الكبير مثلاً، يحاول أن يجعل الطفل يأكل بسرعة وعلى عجل، لكن للطفل إيقاع خاص بالأكل، وبالتالي يرفض ما يريده الكبير. وهذه حقيقة يدركها - الآن - أطباء الأطفال. حيث لاحظوا أن الأطفال لا يأكلون كل ما يحتاجونه دفعة واحدة، بل يتوقفون عن الأكل لفترة، قد تكون دقائق، ثم يواصلون.

والشيء ذاته يلاحظ على الرضع قبل فطامهم. فهم ينسحبون من مصدر إشباعهم قبل أن يشبعوا، ويستريحون ثم يعودون للرضاعة

من جديد بنوع من البطء والإيقاع المتقطع. وعندما يرفض الطفل أن يأكل، يمكن إرجاع السبب إلى حاجز يقيمه الطفل ضد هؤلاء الذين سيرغمونه على الأكل بطريقة معاكسة لميوله الطبيعية. هنا وفوراً - لابد من إزاحة هذا النوع من الدفاع، بعد أن يذهب عنه سبب المشكلة. وغالباً يبدو الطفل - فطرياً - في حالة من نقص الشهية. فهو شاحب ولا يتعرض للهواء الطلق، أو الشمس، أو البحر الذي يستطيع هزيمة كرهه للطعام. ومزيد من الفحص الدقيق لحال الطفل، سنجد بجواره هذا الكبير الذي يرتبط به بشكلٍ مبالغ فيه لدرجة تجعل الكبير يتحكم فيه. وهناك سبيل واحد لعلاج مثل هذا الطفل، وهي زحزحة الشخص الذي يقمعه، وتهيئة بيئة يتحرر فيها الطفل نفسياً ويصبح نشطاً. بهذه الطريقة فقط يتمكن الطفل من التخلص والانطلاق بعيداً عن هذا الارتباط الذي يفسد روحه.

إن الارتباط بين حياة الفرد النفسية والظاهرة الجسدية، والذي يبدو بعيداً عنها، مثل تناول الطعام يمكن تداركها دائماً لقد قرأنا قديماً - عن «إيسو» الذي بسبب نهمه وشرهه، تخلى عن امتياز كاخ أكبر تجاه أخيه، وتصرف بحفاوة ضد اهتماماته المفضلة حقيقةً، يُصنّف النهم بين الرذائل باعتباره «مُظلمًا للعقل». ومن المثير أن نرى الأحكام والدقة أن «توما الإكويني» قد أشار إلى الرذيلة بين النهم والعقل. ثم أكد أن النهم يُفسد أحكام المرء، وبالتالي يُضعف معرفته بالحقائق العقلية. وعكس ذلك تماماً يوجد عند الطفل: إنه الخلل النفسي هو ما يُولد النهم.

وتربط المسيحية - بقوة - هذه الرذيلة باضطرابات الروح التي تضع الرذيلة وسط الخطايا التي تقود - بدورها - إلى موت الروح. ومعنى آخر: إنها تقود إلى انتهاك واحد من القوانين الغامضة في الكون. ومما يدعم نظريتنا حول تبدل توجيه الفطرة، أنها تؤثر في الميل إلى حماية الذات، وهو ما ثبت بالتحليل النفسي. لكن هذا العلم الحديث يفسر ذلك بصور مختلفة ويتحدث عن «موت الفطرة». وهي تُلَاحَظ في ميل الإنسان الطبيعي إلى مساعدة وتسهيل حلول الموت الطبيعي، بل واستعجال مجيئه، حتى إذا وصل إلى نقطة الانتحار. والإنسان يمكن أن ينجذب إلى اليأس مجسداً في هذه السموم مثل الكحوليات، والأفيون، والكوكايين. وبدلاً من التماسك والتشبث بالنجاة والخلاص من الخطيئة، يصبح الإنسان مفتوناً بالموت ويستدعيه لنفسه. لكن، ألا يشير كل هذا إلى دقة الهيئة التي يختفي بها الحس الحيوي الداخلي المفترض فيه حماية الفرد؟. إذا كان هذا الميل يرتبط بحتمية الموت، فلا بد أن يوجد في كل المخلوقات. لكن، مادامت هي ليست كذلك فيجب القول أن كل انحراف نفسي، يضع الإنسان على طريق الموت ويقوده إلى الدمار. وهذا الميل المرعب يمكن رؤيته - فعلاً - غير مدرك حسياً، ويشكل في مرحلة الطفولة المبكرة.

دائماً وراء الأمراض شيء نفسي، حيث ترتبط الحياة الجسمية والنفسية داخل الإنسان. لكن الشذوذ في تناول الطعام يفتح البوابات لكل أنواع العلل. وأحياناً يبدو الشخص كأنه مريض. لكنه في الواقع مجرد مرض توهمي مصدره نفسي.

والإسهام العظيم في فهمنا لهذه الحالات الشاذة، تم بواسطة التحليل النفسي؛ حيث يظهر لنا أن الشخص قد يجد في المرض نوعاً من الملاذ. ومثل هذا الهروب، ليس تظاهراً أو اختلافاً؛ فقد يظهر بالفعل - ارتفاع في درجة الحرارة وخلل وظيفي مما يبدو الأمر معه جدّ خطير. ومع ذلك ليس هناك مرض. أما الأعراض فترجع إلى اضطراب نفسي في عتبة تحت الوعي، ينجح في السيطرة على قوانين الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء). وخلال هذا النوع من المرض، تستطيع «الأنّا» أن تنسحب من الأوضاع غير المبهجة أو تتحلل من أي التزام. ويقاوم المرض كل أنواع العلاج، ولا يختفي إلا حين تتحرر «الأنّا» مما هربت منه. وكثير من العلل والحالات المرتبطة بها مثل العيوب الأخلاقية، تختفي حين يوضع الطفل في بيئة حرة تمكنه من التصرف والحياة بطريقة تعيده إلى السواء. وينظر كثير من أطباء الأطفال إلى مدارسنا - الآن - بحسبانها بيوتاً صحية. إنهم يرسلون أطفالاً مصابين بأمراض وظيفية وقد قاومت العلاج الاعتيادي، ثم يندهشون - بعد ذلك - لما يتحقق لدينا من «شفاء كامل».

الجزء الثالث

25. الصراع بين البالغ والطفل

يصل الصراع بين البالغ والطفل إلى ما لا نهاية. تمامًا مثل الأمواج التي تتكاثر وترداد عندما يُقذف حجرٌ على سطح البحيرة الهادئ. ويبدأ الاضطراب؛ فتننتشر الدوائر في كل الاتجاهات.

وبمجرد فحص تموج الماء، فسيعيد المرء إلى أصل الاضطراب. هكذا تمكن علماء النفس والفيزيقيون أن يشفوا الأمراض العقلية والجسمية، وأن يرجعوها إلى أصولها. لكن عليهم المضي طويلًا في بحثهم عن مصادر المرض العقلي. إنهم يشبهون مكتشفي النيل الأوائل، الذين سافروا لآلاف الأميال وتغلبوا على شلالات مذهلة قبل وصولهم إلى المياه الساكنة للبحيرات العظمى التي تغذي النهر. والعلوم التي تبحث وصولاً إلى أسباب ضعف وتهاوي الروح الإنسانية، يجب أن تمضي إلى ما وراء الأسباب المباشرة، مرورًا بما وراء المدرك الواعي، وصولاً إلى المصادر الأصلية - البحيرات الآمنة - وهي جسم وروح الطفل.

لكن إذا أردنا السفر في اتجاه معاكس، إذا كنا مهتمين بتاريخ الإنسانية كما تمت كتابته مجدداً منذ بداياته الأولى، يمكننا البدء من البحيرات الشفافة الرائقة في الطفولة المبكرة. ثم نتابع سير دراماتيكية الحياة ومفاجآتها وهي تحرر نفسها وتندفع بسرعة وانحدار، وتثبت من شلالٍ لآخر، متحررة تماماً إلا من شيءٍ واحد هو أن تتمكن من إيقاف صخب المياه وهياجها.

وإذا كان ما يصيب الكبار من أمراض جسدية وعقلية وعصبية، قد تم اكتشافه في الطفولة لكان قد تم علاجها. ففي حياة الطفل المبكرة نستطيع ملاحظة أعراضها الأولى. أكثر من ذلك، سيكون من المستحسن أن نتذكر أن كل شر خطير وواضح، يكون مصحوباً بأمراض لا حصر لها. ومن يشفى منها، أكثر ممن يموت بسببها. وإذا مثل الاعتلال انهياراً في قدرة واحدة ليقاوم هجوم الأمراض وانقضاضها، فإن بقية الانهيارات تكون متوقعة وقد يتعجل حدوثها.

هناك أشياء لا تحصي يمكن أن تتسبب في إلحاق الأذى بصحة المرء النفسية أو العقلية. وعندما يُختبر الماء لنرى مدى صلاحيته للشرب، فتكفي عينة صغيرة لفحصها. وإذا اعتمدت هذه النتيجة، فعلينا أن نخلص إلى كون بقية الماء تنطبق عليه النتيجة ذاتها. وشيء ما يشابه ذلك حين نرى هلاك عدد كبير من الأفراد من خلال أخطائهم، فعلينا أن نخلص إلى أن كل الجنس البشري يتأذى بسبب خطأ أساسي.

وهذا ليس مفهوماً جديداً. ففي زمن «موسى» كان معروفاً - بالفعل - أن الإنسان الأول ارتكب خطيئة وأن خطيئته قد سببت خراب الإنسانية جمعاء. ولهؤلاء الذين لا يفهمون طبيعتها الحقيقية، فالخطيئة الأصلية ربما تبدو ظالمة وغير معقولة، مادامت قد أُدينَت واستغرق في شجبتها كل سلالة «آدم» التي انحدرت منه. ونحن نرى اليوم أطفالاً أبرياء محكوماً عليهم أن يحملوا - داخل ذواتهم - نتيجة خطأ الأزمنة القاتل، مع احترام نموهم الطبيعي. ومصادر هذه الأخطاء موجودة في الصراعات الأساسية داخل الحياة الإنسانية وهم يحملون عواقب لم يتم التخلص منها بعد.

26. غريزة العمل

قبل إتمام الاكتشافات الجديدة، لم تكن القوانين التي تحدد نمو الأطفال النفسي، معروفة على الإطلاق. لكنها الآن - مثل دراسة «المراحل الحساسة» - صارت من أهم العلوم التي تتعامل مع الإنسان. يعتمد نشوء النمو وتوسعة التنمية وازدهارها، على الالتصاق المستمر في علاقة الطفل ببيئته. وسبب ذلك هو نمو شخصية الطفل، أو ما يسمى «الحرية»، حريته التي لا تتوافر إلا باعتماده على الكبير الذي يهيئ له مثل هذه البيئة. فالنمو لن يظهر له أي أثر إلا من خلال وسائل ملائمة في بيئة مناسبة، يجد فيها الطفل السبل المطلوبة لنمو وظائفه المميزة. وتوازياً مع ذلك، لابد من وجود فطام الرضّع. حيث يُعدُّ لهم الطعام من الحبوب التي تحل محل لبن الأم. ومعنى آخر: بعد وقت ليس بالبعيد، يعتمد الأطفال إشباعهم - الذي كان مصدره الأم - من منتجات بيئتهم.

ومن الخطأ أن نتحدث عن تقدم الطفل في تحقيق الحرية دون أن نشير في الوقت نفسه إلى نوع من البيئة التي تمكنه من

أن يصبح مستقلاً. وإعداد مثل هذا المحيط الخارجي يشبه التغذية المناسبة للأطفال والتي تتطلب دراسة متعمقة. ومع ذلك، فإن الإطار الأساسي للنظام التربوي الجديد الذي يأخذ على عاتقه حاجات الطفل النفسية، يتم رسمه بواسطة الأطفال أنفسهم. وهذا الإطار يكون واضحاً بشكلٍ يكفي لاتباعه ووضعه في برامج عملية تطبيقية.

الاكتشاف الأكثر أهمية هو أن الطفل يعود إلى الحالة الطبيعية من خلال العمل. وقد أجريت تجارب لا حصر لها على الأطفال من كل جنس عبر العالم. وأثبت أن العمل هو المرجعية التي نمتلكها في حقل علم النفس والتربية. فرغبة الطفل في العمل تمثل فطرة حيوية، حيث لا يمكنه تنظيم شخصيته بدون العمل. «يبنى الإنسان نفسه من خلال العمل». فلا بديل هنا عن العمل، فلا البيئة الجسدية القوية، ولا الثقة في النفس يمكن أن تحل محله. ومن ناحية أخرى، إذا أصبحت غريزة العمل منحرفة أو متحولة، فلا علاج لها. لا عن طريق الاحتذاء بآخرين، ولا عن طريق العقاب. فالإنسان يبنى نفسه بتنفيذ العمل اليدوي حيث يستخدم يديه كأدوات لشخصيته وكتعبير عن عقله وإرادته، مساعدةً له في السيطرة على بيئته. وغريزة الطفل وفطرته للعمل، دليل على أن العمل فطري إنساني وخاصة مميزة للجنس البشري.

إذن، لماذا يرفض الكبار العمل الذي ينظرون إليه كضرورة مزعجة وقاسية؟ بينما هو مصدر الرضا ومبدأ الصحة وإعادة التكوين (مثلاً هو للأطفال)؟. ربما يرجع ذلك إلى حقيقة مؤداها أن المجتمع قد فقد

الدافعية الملائمة للعمل. إن الفطرة العميقة للعمل تبقى متخفية كامنة بداخل الإنسان كسمة داخلية: ويتم انحرافها عن طريق الرغبة في التملك، وفي القوة، واللامبالاة، وشدة الارتباط. ووسط هذه الحالات، يعتمد العمل على مجرد ظروف خارجية أو يحدث بسبب النزاعات المشتركة بين أناس منحرفين. هكذا يصبح عملاً - بالقوة يعطي مقابلًا يتجسد في إحداث حواجز نفسية قوية. وهذا سبب ما يتسم به العمل من مشقة وُبغض.

لكن، عندما يكون العمل نتيجة ظروف محبة، وينساب - طبيعيًا - من ومضة داخلية، فمن المفترض أن تكون الشخصية مختلفة داخليًا، حتى في الكبار. وعندما يحدث هذا، يصبح العمل رائعًا لا يقاوم ولا عيب فيه، ويتجاوز به المرء انحرافه الشخصي. ويمكن أن نجد أمثلة على ذلك في كدح المخترع، واكتشافات المستكشفين، وفي لوحات الفنانين. وعندما يخوض الإنسان غمار مثل هذه الحرب، تتملكه قوة غير عادية ويكتسب خبرة متجددة - من فطرته الطبيعية - تمكنه من التعبير عن فرديته المتميزة. هذه الغريزة تشبه تيارًا قويًا متدفقًا يصعد من الأرض فينعش الإنسانية. هذا العمل هو مصدر التقدم الحقيقي في أي حضارة. ولدى الناس فطرة طبيعية (غريزة) للعمل، تكملها بيئة مناسبة لهذا العمل. فالعمل خاصية مميزة للإنسان، ويتصل التقدم الحضاري مباشرة بقدرته المتنوعة القادرة على ابتكار بيئة تجعل الحياة أكثر يسرًا ورفاهية.

وفي مثل تلك البيئة، يشق الناس طريقهم بأسلوب طبيعي في الحياة. ومع ذلك، فالبيئة الجديدة التي أبدعوها، لا يمكن تسميتها «صناعية». حيث أنها تسمو على، وتتجاوز الوجود المادي المحسوس. ولقد اعتاد الناس إحراز التقدم وفقًا لهذا الأمر الغامض الذي يصبح عنصرهم الحيوي.

وفي التاريخ الطبيعي، نلاحظ عملية تطور بطيئة، تتمثل في إنتاج أجناس جديدة. ومثال على ذلك نجده في انتقال الحيوانات من مجاورة البحر إلى سُكنى الأرض من خلال «البرمائيات». وشيء ما يشابه ذلك، فقد بدأ الإنسان حياة طبيعية، ثم ابتكر - تدريجيًا - بيئة مجاوزة للواقع. ولم يعد إنسان اليوم يحيا ببساطة ووفقًا للطبيعة، لكن، ومع ذلك فهو يفيد - تمامًا - من كل من قوى الطبيعة المرئية وغير المرئية.

لم ينتقل الإنسان - ببساطة - من بيئة حيوية لأخرى: لقد شيد لنفسه بيئته الجديدة التي يعتمد عليها اليوم، لدرجة لا يمكنه معها العيش بعيدًا عن إبداعه الرائع. لهذا، تعتمد حياة الإنسان على بقية الناس. فالطبيعة لا تساعد كما تفعل مع بقية المخلوقات؛ فالطائر يجد طعامًا جاهزًا للأكل، والمواد التي يبنى بها العش متوافرة، لكن الإنسان عليه أن يحصل من الآخرين على ما يحتاجه. فكلنا يعتمد على الآخر. وكل واحد منا يسهم بعمله في هذه البيئة التي يتحتم علينا جميعًا العيش فيها.

لكن، إذا اعتمد الإنسان على أناس آخرين، فهو - على الأقل المسئول عن وجوده، والقادر على تسييره كما يتمنى ويرضى. فهو

ليس موضوعًا آنيًا مباشرًا لتقلبات الطبيعة. إنه منعزل عنها ويعتمد - حصرياً - على تقلبات الإنسان، فتغدو حياته كلها في خطر إذا ما ضلَّ الأشخاص المحيطين به.

أفضل برهان على أن لدى الإنسان غريزة طبيعية للعمل، هو العلاقة الوثيقة بين العمل وتحقيق السواء الفردي. فالطبيعة تحثه على بناء شيء - بنفسه - يُعبر به عن وجوده الذاتي وعن مغزى الخلق. وليس معقولاً أن نفكر في كون الإنسان غير مشارك في تناغم العالم الذي تسهم فيه كل الكائنات الحية. كل منها وفقاً لغريزة الجنس الخاص بها. فالمرجان يُشيد جزراً بإعادة بناء تلال منحدره، ثم تتلاشى بفعل الأمواج الدائمة. والحشرات تحمل اللقاح من شجرة مثمرة إلى أخرى، وهكذا تفتح النباتات. النسور والضباع حيوانات تقتات على ما يلوّث الأرض. فهي تأكل الأجسام الميتة التي تبقى فوق الأرض، وهكذا كنها تقوم بتنظيفها. بعض الحيوانات يخلص العالم من المواد المتحللة (الفضلات)، وبعضها ينتج أشياء مهمة مثل عسل النحل، والشمع، والحرير، وما إلى ذلك

تحيط الكائنات الحية بالأرض، غالباً مثل الغلاف الجوي. والأشياء الحية تعتمد على بعضها لحماية الحياة على الأرض. حقاً، يُنظر اليوم إلى الحياة التي تغطي الأرض كدائرة حية.

ولا تحمي المخلوقات الحية نفسها وتحافظ على أنواعها منفردة، بل تعمل جميعها معاً في نوع من التناغم الأرضي. فالحيوانات تنتج أكثر مما تحتاجه لنفسها. لذلك، يمكن اعتبارهم عاملين في العالم وتابعين

لقوانين الطبيعة. والإنسان العامل المتفوق، يجب أن يُوضَعَ في هذه القوانين العامة. فهو ينتمي لنفسه بيئة - بسبب وفرة إنتاجها - يفيد منها الآخرون.

إن اكتمال عمل الإنسان، ليس في كونه يُقاس بحاجاته الشخصية، بل بغموض غريزته للعمل. وبسبب انحراف قاتل ينفصل الإنسان عن هدفه في الحياة. وإذا ما أصبح الطفل هو الإنسان المنشود، فلا بد أن يتحد نموه مع توجيه غريزته. والتربية السوية هي التي تقود إلى تكوين إنسان يجاوز واقعه ويتفوق عليه.

27. نوعان مختلفان من العمل

رغم أن الطفل والكبير قد جُبلَا على الحب بينهما، وعلى أن يعيشا - معًا - في تناغم، سرعان ما ينأى كل منهما عن الآخر، بسبب الفشل في فهم كلٍ للآخر. وسوء الفهم هذا، يحفر في جذور وجودهما.

هذا الصراع يتسبب في ظهور العديد من المشكلات. بعضها واضح ومرتبط بظروفهما وعلاقاتها الطبيعية. فالكبير لديه مهمة معقدة وشاقة كي ينجز في الحياة. ويصبح ذلك أكثر صعوبة بالنسبة له. فعليه أن يقطع أعماله ليرضي احتياجات الطفل بأن يكيف نفسه مع إيقاع الأخير وإطالته النفسية. ومن ناحية أخرى: فإن زيادة التعقيد والضغط في عالم الكبير لا تناسب الطفل. وفي تناقض مع الشخصية المتخصصة للحضارة نستدعي - بعقولنا - الحياة البسيطة السهلة الآمنة للشعوب البدائية، حيث استطاع الطفل أن يجد ملاذًا طبيعيًا. وفي مثل تلك المجتمعات ارتبط الطفل مع الكبار في عمل بسيط يتم إنجازه في يسر وسلام. والطفل محاط بالحيوانات الأليفة وأشياء أخرى يمكنه لمسها والاقتراب منها بحرية. كان باستطاعته أداء عمله دونما خوف من

اعتراض. وعندما يشعر بالتعب، فإنه - ببساطة - يستريح تحت ظلال شجرة وما يلبث أن ينام.

لكن الحضارة سحبت - تدريجيًا - البيئة الطبيعية من الطفل. فكل شيء رتيب، سريع، مُقيد. وليس تسارع إيقاع حياة الكبير، هو فقط الذي يمثل عائقًا أمام الطفل، لكن حلول الآلات رد مكانه السابق الآمن، وكأنه ريحٌ عاتية. ولم يعد الطفل مشغولًا بأنشطة طبيعية كما كان قبلًا. وانشغلت سبل رعايته الوفيرة بحمايته من أخطار الوجود، التي باتت متعددة وفي ازدياد، يحاط بها الطفل. إنه الآن يشبه المنفي داخل العالم، يائس ومُستعبد. لا أحد يفكر في خلق بيئة مناسبة له، أو يتفاعل مع حاجته للعمل والنشاط.

ومنذ أصبحت الحياة ذات شكلين أحدهما للطفل والآخر للكبير - توجَّب علينا أن نفتنّع بوجود نوعين متميزين من المشكلات الاجتماعية، ونوعين أساسيين مختلفين من العمل.

عمل الكبير

للكبير مهمته الخاصة كي ينجزها، وهي بناء وإنشاء بيئة تتجاوز الواقع. عليه استخدام ذكائه وجهوده الخارجية لعمل منتج. هذا العمل لا بد أن يكون - كقاعدة - اجتماعيًا ومثمرًا ماديًا في آنٍ معًا.

ولإنجاز عمله؛ على الإنسان أن يتبع قواعد النظام الاجتماعي. هذه القواعد يجب اتباعها - إراديًا - لتحقيق الهدف المشترك. لكن،

بالإضافة إلى هذه القوانين التي وضعتها الأعراف المحلية، والتي هي مصدر اختلاف الثقافات، هناك قوانين أخرى تنظم العمل متجذرة في الطبيعة ذاتها. ومثل هذه الأنواع من القوانين شائعة بين جميع الناس وعبر كل الأزمنة. وواحد من القوانين الموجودة بين جميع الكائنات الحية، هو تقسيم العمل. وهو متفق عليه بين الجميع مادام لا يمكنهم - جميعهم - إنتاج الشيء ذاته. هناك قانون طبيعي آخر، هو أن لكل فرد مرجعاً في عمله. إنه قانون الحد الأدنى من الجهد في سبيل الحصول على الحد الأقصى من المنتج مع أقل كلفة في الطاقة. وهذا القانون هو الأهم على الإطلاق. إنه لا يمثل الرغبة في العمل أقل ما يمكن، والإنتاج أكثر ما يمكن، مع الحد الأدنى من الجهد. لكنه مبدأ يعود إلى الآلات التي تؤدي عمل الإنسان.

كل هذه القوانين جيدة، حتى إذا لم تكن مُطبَّقة عالمياً. وحيث مصادر المواد الخام محدودة بالنسبة للإنسان، فإن رغبته في الثراء تولّد المنافسة. ويصبح الكفاح من أجل الحياة أشبه بهذا الذي يوجد بين الحيوانات المتوحشة نتيجة الصراع على البقاء.

وإضافةً إلى هذه الصراعات الطبيعية، هناك صراعات أخرى تسببها الانحرافات الشخصية للأفراد. ومن بين هذه الانحرافات، يمكن تصنيف التطلع للتملك دون ضمان لحماية الأفراد أو الأجناس. ولأن هذا التطلع ليس له أصل طبيعي، فهو بلا حدود. وحين يدخل هذا لبينة منظمة، يكون عائقاً للفرد وللعمل التعاوني. أما استثمار عمل الآخرين، فهو يأخذ مكاناً في التقسيم الطبيعي للعمل. ويصبح معياراً

مرشدًا ومقبولًا. وتحت قناع الحقوق تنشأ كنتائج - الانحرافات الإنسانية، وتصبح مبادئ اجتماعية. وهذه الطريقة ينتصر الخطأ، ويتم قبوله جزءًا من الحياة الإنسانية والأخلاقية. وتحت غمامة مأساوية، لا يتم إدراكه، كأي شيء بعد تغليفه، ويتم قبول كل شيء، وتتوالى الأمراض التي يتعذر تجنبها.

والطفل كائن طبيعي يعيش بين كبار كثير. ويجد نفسه في جو غريب عنه. فلا يجد شيئًا يفعلُه مع النشاطات الاجتماعية للكبار. ونشاطاته الخاصة به لا تجد ما تفعله مع إنتاج أشياء لا تفيد إلا المجتمع. وعلينا أن نقتنع تمامًا بحقيقة مؤداها أن الطفل - ببساطة - لا يستطيع المشاركة في أنشطة الكبار الاجتماعية. فإذا تمثلنا عمل الإنسان (مثل الحداد) الذي يضرب السندان بالمطرقة الثقيلة، فسيوضح - كليةً - أن الطفل لن يتمكن من الانشغال بمثل هذا. وإذا تمثلنا عملاً يتطلب مشقة عقلية مثل العلماء في استخدامهم للأجهزة الدقيقة في مشروع بحثي، فسيكون واضحًا تمامًا أن الطفل ليس لديه ما يسهم به في هذا. وحتى إذا فكرنا في وضع تشريعات لقوانين جديدة: الطفل لا يمكنه - مطلقًا - وضع نفسه ضمن هذه المهمة.

الطفل مغرب تمامًا عن هذا المجتمع المنظم الخاص بالكبار. وبالتأكيد، فإن «مملكته» ليست «في هذا العالم». إنه غريب في هذا العالم الصناعي، الذي على المرء فيه أن يتجاوز الطبيعة. ويبدو الطفل كما لو أنه جاء إلى العالم كائنًا غير اجتماعي. حيث لا يمكنه التوافق مع المجتمع، ولا الإسهام فيما ينتجه، ولا المشاركة في بنائه. بل إنه يفسد

النظام المتفق عليه اجتماعيًا. والطفل غير اجتماعي لأنه مصدر إزعاج حيثما وُجد الكبار، حتى لو كان بداخل بيته. والافتقار إلى التكيف مع بيئة الكبير، يتفاقم ويزداد لأن الطفل نشط بطبيعته، لكنه هنا، غير قادر على الإعلان عن نشاطه.

ولقد اعتاد الكبار قمع نشاط الطفل؛ حيث لا يريدونه مزعجًا، إنهم يحاولون جعله خاملاً. فيُرسل الطفل إلى الحضانة أو المدرسة. إنه يُحمل إلى هذه الأماكن، وكان الكبار يعيشون به إلى المنفى. فقد وصل إلى العمر الذي يمكنه من العيش في عالم الكبار، دون أن يسبب إزعاجًا للآخرين. بعدها - فقط - يصبح الطفل معترفًا به في المجتمع. ومن ثم، عليه إطاعة الكبار كشخص انتزعت منه حقوقه المدنية. ويصبح الكبير بالنسبة للطفل، ملكًا وسيدًا ومطاعًا طوال الوقت.

وعلى الطفل أن يبدأ من لا شيء ويصنع طريقه إلى صحة الكبار. وبالمقارنة بالطفل، فالكبير عظيم وقوي مثل الإله. ومنه يستمد الطفل ضرورات الحياة. فالكبير هو خالق الطفل، المتحكم، الحارس، والمستفيد. وليس هناك من يعتمد كليةً - على آخر، مثلما يعتمد الطفل على الكبير.

عمل الطفل

الطفل - أيضًا - عامل ومنتج. فرغم أنه لا يستطيع المشاركة في عمل الكبار، إلا أن لديه مهمته الصعبة والمهمة، إنها إنتاج الإنسان. فالطفل حديث الولادة لا حول له ولا قوة، ولا يقدر على الحركة. لكن هذا

الطفل الرقيق الضعيف سينمو ليصبح كبيراً، وإذا صار ذكياً وثرياً بجياة
نفسية سوية، وإشراقة روحية، فهذا يرجع إلى الطفل الذي كانه يوماً.
إنه تَشَكُّلٌ بطيء من الطفولة إلى الرجولة. والكبير ليس له دور في
هذا العمل. فالكبير أكثر ابتعاداً عن عالم الطفل، بينما لا يُستثنى
بالقدر نفسه - الطفل من حياة الكبير الاجتماعية. وعمل الطفل بعيداً
جداً عن عمل الكبير، بل يمكن القول أنه عكسه تماماً. إنه عمل لا
شعوري تحركه طاقة روحية في عملية نمو. إنه عمل خلاق يستدعي
الوصف النوراني المقدس لكيثونة الإنسان المبدع. لكن كيف كان
الإنسان مبدعاً؟ كيف يستقبل الذكاء والقوة التي تعلو كل المخلوقات
رغم أنه أتى من لا شيء؟ ويمكننا ملاحظة هذا الحدث الرائع - بكل
تفصيلاته - في كل طفل وفي أي طفل. ففي كل يوم تتفكر أعيننا في
هذا المشهد الرائع.

إن ما حدث في خلق الإنسان الأول، يعاد إنتاجه في كل الناس
حين يجيئوا إلى أرض المعاش. وعليه يمكننا أن نردد دائماً «الطفل هو
أب الإنسان». إن كل القوى التي بداخل الكبير، انبثقت من تلك
المجاهدة التي عاناها الطفل أثناء المهمة السرية التي أوكلت إليه. وما
يجعل الطفل عاملاً حقيقياً، هو أنه لا ينمو حتى يصبح رجلاً، عن
طريق الراحة والانعكاسات الشرطية، لكنه ينشغل بعمل نشط. إنه
يبدع في عمله الذي لا بد أن نتذكر أنه يستخدم معه البيئة الخارجية
ذاتها التي يستخدمها الكبير ويتنقل فيها. والطفل ينمو من خلال

التدريبات العملية. وتستلزم جهوده البناء، عملاً حقيقياً يشغل حيزه في بيئة خارجية.

ويجني الطفل الخبرة خلال التدريب والحركة. فهو ينسق بين حركاته ويسجل الانفعالات والانطباعات التي يخبرها أثناء تواصله مع العالم الخارجي. وهذه تساعد في تشكيل ذكائه. إنه يتعلم كيف يتكلم عن طريق الاستماع - باهتمام - وبذل هذه الجهود الصغيرة الممكنة له هو فقط، وبجهود مضنية ينجح في تعلم كيف يقف - منتصباً - ليجري بعد ذلك. وكي يتم نموه، يتبع الطفل جدولاً، تماماً مثل الدارس الدؤوب المجتهد وبالتحديد ذاته والانتظام الذي تتحرك به النجوم في مساراتها غير المرئية. وحقيقة، يمكننا أن نقيس طول الطفل في كل مرحلة من نموه، وسيصل إلى حدود متوقعة سلفاً. نحن نعلم - أيضاً - أنه سيصل إلى مستوى أول من الذكاء حين يبلغ الخامسة، وإلى مستوى آخر في الثامنة. وحيث يتبع الطفل الخطة الموضوعة له بواسطة الطبيعة، يمكننا أيضاً - توقّع ما سيصير إليه طوله، وسعة ذكائه حين يبلغ العاشرة. وبواسطة طرق ووسائل جهوده - خبراته - آلامه - تغلبه على المحاولات الصعبة - قدرته على مواصلة التدريب، يتم الطفل ببطء، نشاطاته. والكبير يمكنه المساعدة بتهيئة البيئة المناسبة، لكنه (الطفل) من يكمل كينونته. إنه يشبه الرجل الذي يثابر على الجري المتواصل حتى يبلغ هدفه. ومن هنا، يمكننا القول أن ما يتمتع به الكبير من اكتمال وتفوق، يعتمد على جهوده كطفلٍ كان.

ونحن الكبار نعتمد على الطفل - مع كل الاحترام لنشاطه الدؤوب
فنحن أبناؤه المعتمدون عليه؛ لأنّ الكبير سيّد في منطقة واحدة،
والطفل سيّد في منطقة أخرى. وكل منهما ملك يعتمد على ملك آخر.
لكنها حاكمان على ممالك مختلفة.

مقارنة بين النوعين من العمل

حيث أن عمل الطفل يتكون من تصرفات وأفعال عبر أشياء
حقيقية في العالم الخارجي، فهذه الأشياء يمكن أن تمثل موضوعاً
لدراسة خاصة. وبعد أن تمت دراستها وتقصى الأجواء والوظائف
الخاصة بالعمليات التي يؤديها الطفل، يمكن مقارنتها بمشيلاتها لدى
الكبار. فكل من الصغير والكبير عليه ما يقوم به فوراً، وبوعي،
وإرادياً. وهي أفعال تتم في بيئتها التي تتطلب كل منها اعتبارها مكاناً
مناسباً لعمل مناسب. وهنا تنتهي المقارنة، حيث لكل هدف مختلف
عليه تحقيقه والذي - غالباً - غير معروف. فالحياة كلها - حتى حياة
النباتات - تنمو في وجود بيئة خاصة بها. لكن الحياة ذاتها، طاقة
تميل إلى حفظ التوازن بين المخلوقات عن طريق تكامل البيئة، والتي
بدون هذه الطاقة لا يتم هذا التكامل. على سبيل المثال: الشعاب
المرجانية تستخلص كربونات الكالسيوم من مياه البحر، وبهذا تتمكن
من بناء غطائها الواقي. هذا هو الهدف المحدد من نشاطها. لكن، في
الخطّة العامة للخلق، فهم يبنون أيضاً مكونات جديدة. وحيث يتحقق
هذا الهدف الأسمى من نشاطهم المباشر، نستطيع أن نتعلم كثيراً

من الشباب المرجانية دونما طرح السؤال حول المكونات الجديدة. والشيء ذاته يمكن قوله عن جميع الكائنات الحية وخصوصاً الإنسان. وحقيقة أن كل كبير هو نتاج النشاط المبدع لطفل، تثبت أن الطفل له هدف محدد ومرئي وسام. مع ذلك، فقد تمكنا من دراسة الطفل بدءاً بكل جانب فيه، وعرفنا كل شيء عنه من خلايا جسمه وحتى أصغر تفصيلات العمليات التي لا تحصى، لكننا نظل لا نتوقع هدفه الأسمى، وهو «الرجل» الذي سوف يكونه.

علاوة على ذلك، يظل الهدفان البعيدان للفعل الواحد، يعملان ببساطة - على امتداد وجود البيئة.

وأحياناً، تستخدم الطبيعة وسائل بسيطة للإفصاح عن بعض أسرارها الغامضة. فعلى سبيل المثال: يمكننا ملاحظة جهود حقيقية لعمل منتج بين الحشرات. ودودة القز واحدة من هؤلاء، وخيوطها البراقة التي ينسجها الإنسان ويحولها إلى قماش فاخر (حرير). صورة أخرى هي شبكة العنكبوت المصنوعة من خيوط هشة والتي تحير في تحطيمها الإنسان!. بالإضافة إلى ذلك، فالحرير هو منتج دودة القز التي لم تزل - بعد - في حالة نضج، بينما الشبكة هي منتج عنكبوت ناضج كبير. وهذه المقارنة تساعدنا على إدراك أننا حين نتحدث عن عمل الطفل ونقارنه بمثيله عند الكبير، فنحن نتحدث عن نشاطين حقيقيين، لكنهما متميزان في النوع والهدف.

ومن المهم بالنسبة لنا أن نعرف طبيعة عمل الطفل. فعندما يعمل الطفل، فإنه لا يفعل ذلك ليحقق هدفاً أبعد. فهدفه من العمل هو العمل ذاته. وعندما يعيد التمرين ويصل نشاطه إلى نهاية، فهذه النهاية هي استقلال عن العناصر الخارجية. وكلما كانت ردود الأفعال الشخصية للطفل ذات معنى، لن يرتبط توقفه عن العمل بالسأم؛ حيث خصائصه الشخصية كطفل تجعله يترك عمله وهو مملوء حيوية و طاقة.

وهذا يلخص واحداً من الفروق الأساسية بين قوانين العمل الطبيعية للأطفال، ولل كبار. فالطفل لا يتبع قانون الحد الأدنى للجهد، لكن العكس تماماً. فهو يمتلك طاقة هائلة للعمل لا حد لها. ويوظف كل إمكانياته في إنجاز كل تفصيلة. فالجهد الخارجي - التصرف والشيء - في حالة متفردة الأهمية. وهناك علاقة مدهشة بين البيئة واكتمال حياة الطفل الداخلية. إن الإنسان الذي ينجز شيئاً سامياً، لا ينشغل مسبقاً بالأشياء الخارجية. إنه يستخدمها - فقط - في الوقت المناسب كي يكمل بها حياته الداخلية. وفي المقابل لهذا الإنسان، هناك من يقود حياة عادية، وينشغل - مسبقاً - بأشياء وأهداف خارجية يحققها بأي ثمن. أحياناً يفقد في سبيل هذه الأهداف، صحته أو حتى روحه.

فرق واضح آخر بين عمل الكبير ومثيله عند الطفل. إنها حقيقة مؤداها أن الطفل لا ينتظر كسباً أو مساعدة. فعلى الطفل أن ينجز عمله بنفسه، وعليه أن يتمه. ولا أحد يمكنه حمل الطفل على احتمال ما لا يستطيعه للتسريع بمعدل نموه. فهذا مستحيل بالنسبة للطفل

ولقوانين نموه الطبيعية. لأن أحد أهم وأخصّ سمات النمو، هو وجوب اتباع نوع من الجدول الذي لا يقبل التعديل أو التغيير. فالطبيعة صارمة وتُعاقب أدنى التصرفات التي لا تطيع، بالانحرافات الوظيفية. وهي تتمثل إما في عدم السواء أو الامراض المعروفة بكونها «إعاقة».

والطفل يمتلك قوة دافعة محرّكة تختلف عما لدى الكبير. فالكبير دائماً - يتصرف بدافع خارجي يستدعي جهداً شاقاً مرهقاً وتضحيات قاسية. لكن إذا كان على الإنسان أن ينفذ هذه المهمة، فيجب أن يستمد القوة والشجاعة لهذا الإنجاز، من الطفل الذي كانه.

ومن ناحية أخرى، فالطفل لا يسأم أو يملّ الكدح. إنه ينمو بالعمل، ونتيجة ذلك، يزيد العمل من طاقاته. الطفل لا يسأل الراحة من حمله الثقيل، لكنه - ببساطة - ينجز عمله مكتملاً، وبمفرده. إن حياته الخاصة تتكون في «عمل النمو»، حيث أنه إما يعمل أو يموت.

وإذا لم يفهم الكبار هذا السر، فلن يفهموا - أبداً - عمل الأطفال، أكثر مما فهموه في الماضي. إنهم يضعون العوائق في طريق عمل الطفل، ظناً منهم أن الراحة ستكون أعظم مساعدة لنمو الطفل المطلوب. ويفعل الكبير كل شيء من أجل الطفل، عدا أن يتركه يتصرف كما يريد وكما يجب وكما يجب. فالكبير شغوف باستخدام الجهد الأقل، وتوفير الوقت. وحيث الكبار أكثر خبرة وأسرع حركة، فهم يسعون لتنظيف الطفل، وتغيير ثيابه، وحمله بين أذرعهم أو في عربة الأطفال، وترتيب حجرة الطفل، دون أن يتركوه يساعد أو يفعل شيئاً.

وعندما تعطى الفرصة - أقل فرصة - للطفل، فسيصيح وفوراً: «أنا أريد أن أفعلها!». لكن، في مدارسنا - التي تتوافر بها بيئة تناسب حاجات الطفل - يقول الأطفال: «ساعدوني كي أفعلها بمفردى». وهذه الكلمات تنفس عن حاجات داخلية.

ما المغزى الحقيقي من وراء هذا؟. الكبير عليه مساعدة الطفل بالطريقة التي تمكن الأخير من التصرف بنفسه، وإنجاز عمله الخاص به في هذا العالم. وهذا لن يريج ويشبع - فقط - حاجة الطفل، لكنها الحقيقة التي تشير إلى وجوده محاطاً ببيئة حيوية فاعلة. مثل هذه البيئة ليست لمتعة الطفل ورفاهيته، لكنها معانٍ وسبل تمكن الطفل من اكتمال نشاطاته المتنوعة. هذه البيئة لا بد من إعدادها بواسطة الكبير الذي يعي ويفهم حاجات الطفل الداخلية وهكذا يختلف مفهومنا عن تربية الأطفال، فقط عن هؤلاء الذين يقومون - بأنفسهم - بكل شيء للأطفال، لكن أيضاً عن هؤلاء الذين يعتقدون بإمكانية ترك الطفل في بيئة سلبية تماماً.

لهذا؛ لا يكفي مجرد إعداد أشياء من أجل الأطفال، متوافقة في الحجم والشكل مع حاجاتهم: فالكبار أيضاً يجب أن يتدربوا لمساعدتهم.

28. الغرائز المرشدة

هناك شكلان للحياة في الطبيعة: شكلٌ ناضج والآخر مازال غير ناضج. هذان النوعان مختلفان تمامًا، بل حتى متناقضان في الاتجاه. حياة الكبار تتميز بالنضال والمكابدة. هذه الصراعات ربما لها وظيفتها في التكيف مع البيئة، كما أوجز «لا مارك». أو ربما لها مصدرها في التنافس والانتقاء الطبيعي، كما أوجز «داروين». والصراعات في النمط الأخير ليست فقط تفسر البقاء لأصلح الأجناس، لكنها تؤدي إلى الانتخاب (الانتقاء) الطبيعي خلال الإخضاع الجنسي.

ومن الممكن مقارنة تطور المجتمع بما يحدث بين الحيوانات المتطورة. فالإنسان يجب - فوراً أن يحمي حياته بجهوده، وأن يدافع عن وجوده ضد الأعداء. إنهم يواجهون عدداً من المشاق والمتاعب، تماماً مثلما يكيّفون أنفسهم مع بيئتهم. كما يميلون إلى الحب والإخضاع الجنسي. وقد استشف «داروين» سبب التطور، إنه الاكتمال التدريجي للكائنات الحية، وبقاء الأصلح أمام هذه القوى المتنافسة بين

الأنواع والأجناس الحية. وفي شكلٍ ماديٍ مشابهٍ تاريخيًا، يعزو تطور الإنسانية إلى مكونات البقاء بين الناس.

إن المصادر الوحيدة التي نمتلكها لكتابة التاريخ الإنساني هي النشاطات المختلفة للكبار. لكن ذلك ليس بالمثل في حالة الطبيعة. فهنا، المفتاح الحقيقي لفهم الحياة في جوانبها التي لا تحصى، ومظاهرها الرائعة، هو الكائنات الصغيرة النامية. فكل الكائنات الحية - في بداية خلقها - ضعيفة، فهي تناضل وتُستثار قبل أن تمتلك أي قدرة على التكيف. وليس هناك كائن حي يبدأ حياته كبيرًا.

إذن، لا بد من وجود نوع من الحياة الكامنة المتخفية في هيئة أخرى، ووسائل أخرى، ومثيرات مختلفة عن تلك التي تظهر في التفاعل بين الأفراد الناضجين ويبنّتهم. وحيث أن المفتاح الحقيقي للحياة يوجد في المخلوقات أثناء عملية نموهم، فلا بد من الوعي بالأهمية البالغة لدراساتهم. فخبرات الكبار هي - فقط - التي تشرح وتُفسر كيفية حدوث البقاء.

وقد ألقى علماء البيولوجيا الضوء على أكثر الأجزاء عجبًا وتعقيدًا في الطبيعة، من خلال دراساتهم حياة الرضيع وخلقهم. لقد أوضحوا أن جميع المخلوقات الحية ممتلئة وثرية بالعجائب المذهلة وبذروة الإمكانيات الكامنة. وفي كلمة واحدة: كل الطبيعة مفعمة بالروح الشعرية. لقد أكد علم الأحياء كيف تحمي الأنواع الحية نفسها من خلال ومضات تتصرف كمرشدين داخليين. وهي ما يمكن أن نُطلق عليه «الغرائز

المرشدة» حتى نميزها عن ردود الأفعال الغريزية المباشرة للكائن الحي تجاه بيئته.

وفقاً لعلم الأحياء، يمكن تقسيم كل الغرائز إلى مرتبتين أساسيتين وفقاً لأهدافهما المنفصلة. وهي تظهر حيثما كانت متعلقة بحفظ وبقاء الفرد أو النوع أو الجنس البشري. وفي كلتا المرتبتين لا بد من وجود ردود أفعال مؤقتة أو دائمة (الاتجاهات). على سبيل المثال: هناك صراعات عابرة بين فرد ومحيطه الخارجي. وهناك أخرى متعلقة بحفظ حياة الفرد واستمرارها.

مثلاً، فيما يختص بغريزة حفظ حياة الفرد، يكون الدفاع واضحاً ضد أي ما كان تهديداً أو عداءً. ومن ناحية أخرى فمن بين الغرائز المتعلقة بحفظ النوع، هناك رد فعل مؤقت يؤدي إلى صراع جنسي أو توحيد. هذه الغرائز الأيوزودية (العرضية) كانت أول ما درسه البيولوجيون، حيث كانت الأكثر عنفاً والأكثر ظهوراً. ومع ذلك، فقد وُجه الانتباه - لاحقاً - للغرائز المتصلة بالحفاظ على الفرد والنوع، والتي لها خصائص وسمات أكثر ثباتاً وديمومة. وقد تم تحديدها وتعريفها كغرائز مرشدة.

وتتصل الحياة ذاتها - بمعناها الكوني الواسع - بهذه الغرائز. وهي لا تكون ردود أفعال لبيئة، مثل الإحساس الداخلي المرفه، لكنها كالفكر الخالص الذي يُعبّر عن نوعية للعقل الداخلي. ويجب اعتبارها كالفكر العميق الملتصق بداخل الكائن الحس لمساعدته في عملياته التي يتطلبها العالم الخارجي. لهذا؛ فالغرائز المرشدة ليس لها الخصائص

العابرة للصراعات المؤقتة. لكنها مرسومة بعلامة توصلها المعرفة والحكمة التي تقود هذه الكائنات (الأفراد) في رحلتهم عبر الزمن، وتقود (الاجناس) نحو الأبدية.

والغرائز المرشدة سببٌ لدهشة خاصة في توجيه وحماية رضيع في بداياته المبكرة جداً في الحياة. فبينما لم يكتمل نضجها بعد، تساعد في اكتمال نموه. فهي ليست - بعد - ذات خصائص نوعية محددة، ولا قوية، ولا ثابتة، ولا تمتلك الأسلحة البيولوجية للنضال، ولا تمتلك حتى الأمل في نصر نهائي، مما يكفي بالبقاء. هنا، تعمل الغرائز المرشدة وتتصرف كأم أو كتربوي يتخفى ويكمن داخل سر الخلق. إنها تحمي المخلوق الضعيف الذي لا يمتلك القوة أو الوسائل للحماية نفسها.

وتتواصل إحدى تلك الغرائز المرشدة مع الأمومة وتتحد معها. لقد أوضحها «فيبر» وغيره من علماء «البيولوجي» كنوع من مفاتيح بقاء الأنواع والاجناس. غريزة أخرى تعود إلى نمو الفرد ذاته، ووصفها المدرسة الألمانية وعلى رأسها «فرايس» في بحثه عن «الفترات الحساسة».

ولا توجد غريزة الأمومة عند الإناث وحدها. رغم أنها خاصة نوعية وتلعب الدور الأعظم في حماية الصغير. لكنها توجد في كلا الأبوين وفي الوقت ذاته وفي كل أفراد المجموعة. ودراسة أخرى حول وجود هذه الغريزة - الأمومة - أوضحت أنها طاقة غامضة. وأنه ليس ضرورياً ارتباطها بوجود الأفراد، بل توجد لحماية النوع.

وهكذا، «غريزة الأمومة» هي التعريف العام للغريزة المرشدة التي تهتم بحفظ وحماية النوع. ولها خصائص محددة وشائعة بين جميع المخلوقات الحية. وهي تتطلب التضحية ببقية غرائز الكبير. ويمكن للحيوانات الضارية أن تظهر الرقة والوداعة وهي ليست صفات طبيعية بالنسبة لها. وكذلك طائر يمكنه الطيران لمسافات بعيدة بحثًا عن طعام أو لحماية نفسه من الخطر، سيمكث كي يحمي العش والصغار. إنه نوع من درء الخطر، لكنه ليس في الطيران. والحشرات التي يتأصل فيها عدم توقُّع التغيُّر، تبدو - في هذه الغريزة - خلافًا لذلك. فكثير من الأنواع سوف تعمل لبناء مكان آمن. وهذا الميل لا يوجد لديها في أوقات أخرى، لكن بمجرد اكتمال نموها. فهي - ببساطة - تكيف نفسها مع الطبيعة وكأنها بحثت عنها ثم وجدتها. ونشاطاتها البنائية توجّه - مباشرة - لإعداد الوقاية والملاذ لصغارها. ولكل نوع خطته الخاصة لكي يتبعها. فلا يوجد كائن حي يحصل - عشوائيًا - على أول غريزة أمومة، بل تتولد بداخله وتكيف نفسها وفقًا لخصائص وظروف كل نوع. إنها غريزة الأمومة ذاتها، التي تعطي التعليمات والتوجيهات لكل نوع حي.

والطريقة التي يبنى بها الطائر عشه، هي إحدى الوسائل التي تحدد النوع الذي ينتمي إليه. إن الحشرات بنّاءون مدهشون. على سبيل المثال: خلية النحل تبني أماكن حقيقية وبخطوط هندسية مكتملة الدقة. والنحل - جميعه - يعمل معًا لبناء هذا البيت للجيل القادم. مثال آخر على المثابرة - أقل إثارة لكنه غاية في الأهمية، ويمكن ملاحظته فهناك العنكبوت التي تشد خيوطها الشبكية الضخمة لتصطاد

عدوها بداخلها. لكنها - فجأة - تنسى أعداءها وحاجاتها الخاصة، وتتجه إلى نوع جديد من العمل. إنها تُظهر رقة خاصة وهي تنسج خيوطها. إنها حماية ضد الماء وتصنعها من طبقتين لمنع البرد والرطوبة عن بيب العنكبوت. وداخل هذا الكيس تضع أنثى العنكبوت بيضها، لكن الحقيقة الملحوظة، أن العنكبوت في غاية القوة لحماية هذا الكيس. حتى أنها قد تموت أثناء تمزيق هذا الكيس. هذا يؤكد مدى التصاقها بهذا الكيس حتى أنه يبدو جزءًا من جسمها. فاهتمامها - لذلك - ينصبُّ على حماية الكيس وليس البيض، أو العنكب الصغيرة التي تخرج منه أخيرًا. إنها تبدو وكأنها - حتى - لا تلاحظ وجودهم. إن الغريزة تقود هذه الأم إلى فعل شيء لهذا النوع، دون أن يمثل الكائن الحي موضوعًا مباشرًا يأخذ اهتمامها. هكذا يمكن أن تكون الغريزة بدون موضوع يثيرها، وهي تتصرف - هنا - وتؤدي مهمتها استجابة لأمرٍ داخلي بأن تفعل ما هو ضروري وأن تحب هذا الأمر.

هناك - أيضًا - الفراشات التي تتغذى - طوال حياتها - على رحيق الزهور دون أن تحتاج أي طعام آخر. لكن عندما يحين وقت وضعها لبيضها، لا تتركها أبدًا فوق الزهور. إنها تُوجَّه وتُرشد بواسطة غريزة أخرى. فالغريزة نحو الطعام التي توجه - مباشرةً - لصالح الفرد، قد حلت محلها غريزة أخرى. والفراشات تحولت تجاه نوع مختلف من الطعام، نوع لا يستخدم لها هي، لكنه ضروري لليرقة التي تنبثق منها الفراشة في آخر الأمر. هكذا تحمل الغرائز - بداخلهم - أوامر طبيعة غريبة عنهم، لكنها لصالح النوع. ولا تضع أنثى حشرة البق

أو أي حشرة أخرى مشابهة ييضها على القمة، لكن على جانبي أسفل الأوراق. حيث اليرقة التي ستشق البيضة وحيث التغذية على الأوراق، تكون آمنة ومحمية. وغرائز مشابهة توجد في عدد كبير من الحشرات، حيث لا تتغذى - أبدًا - على النباتات التي تختارها لـ «قوت» نسلها. إنها تعرف - غريزيًا - ما يناسب صغارها، وتتوقع الأخطار التي قد تأتي من المطر والشمس.

إن المخلوقات المنوط بها حفظ النوع، تغير ميولها ورغباتها وتحولها - بنفسها - وكان هناك قوانين تدير حياتها وتحكمها. إنها تسير وفق تلك الغرائز لفترة من الزمن المتوقع لحدث طبيعي عظيم، إنه معجزة الخلق. ثم تعاود - بعد ذلك - نشاطاتها الاعتيادية، وتشكل ما يمكن وصفه بمذهب أو بشعيرة في حاضر تلك المعجزة.

وحقيقةً، تُعتبر معجزات الطبيعة الخارقة الأكثر إثارة للدهشة، هي القوة التي يولد بها الطفل حيث الولادة، رغم افتقارهم الكامل لأي خبرة. فكيف يكتفون أنفسهم ويحمونها من العالم الخارجي؟. إنهم يستطيعون ذلك بمساعدة الغرائز الأبوية التي تسود مراحلهم الحساسة. هذه الغرائز تقودهم - بنجاح - لتخطي الصعاب، وتقدم من حين لآخر بدوافع لا تُقاوم.

ولا تمنح الطبيعة الحماية ذاتها للكبار، لكنها تقدمها لحديثي الولادة. إن لها قواعدها الخاصة، وهي ترقب - بعناية - وترى أنها تُطاع تمامًا.

أما الكبار، فعليهم - ببساطة - أن يتعاونوا داخل الحدود التي شيدتها الغرائز المرشدة لحماية وحفظ النوع.

ومن الواضح كما نرى في حالة الأسماك والحشرات - أن الغرائز المرشدة للكبار ولحديثي الولادة، تتصرف بتميز وباستقلال تام. وعندما يحدث هذا، لا يجتمع الآباء وذريتهم - معاً - وبتناسق وتناغم، الغريزة المرشدة للأم، والمرحلة الحساسة لذريتها التي تبادلها الحب ويصبح هذا الحب هو ما يصل بين الأم وطفلها. وتبنى علاقة الأمومة وتمتد إلى كل المجتمع المنظم الذي يرعى الجيل الجديد. وهذا يحدث - على سبيل المثال - بين الحشرات التي تعيش في تجمعات، مثل النحل، والنمل، وما إلى ذلك.

إن الحب والتضحية لا يحفظان النوع. لكن الأهم من ذلك هو تلك الغرائز المرشدة المؤثرة بتجذرها في عظمة الخلق والحياة وحفظ وبقاء كل نوع حي. فالحب والمشاعر الرقيقة التي تحملها المخلوقات لنسلها، تسهل المهمة التي وضعتها الطبيعة. وتجعل من تنفيذ أوامرها وطاعتها التامة عملاً محبباً ومرغوباً.

وعلينا الآن أن نسأل أنفسنا: إلى أي مدى يتناسب الإنسان مع هذه القوانين التي تضعها الطبيعة؟ إن الإنسان هو الكائن الأكثر حساسية وملاءمة لهذه الظاهرة الطبيعية، أكثر من الكائنات الأدنى. إنه يفوقها ويتجاوزها، بل ما هو أكثر، إن ذكاءه قد وجهه للتعبير عنها كأساس للإشراقات التي تظهرها أعماله الفنية.

إذن، كيف يتمثل هذان الشكلان للحياة - الطفل والكبير في الإنسان؟ وتحت أي القواعد المتسامية يوحون ويلهمون بعضهم البعض؟. في الحقيقة لا تظهر الحياتان معًا. فإذا كان علينا البحث عنها في حياة الإنسان، فقد يتوجب علينا القول أن هناك - فقط عالم الكبار. عالم سبق إعداده وتزويده بوجود خارجي، آمن ويسير. وتتركز عقول البشر على الإنجاز والإنتاج، وكان لا شيء آخر يمثل أدنى أهمية. ويضيع الجهد البشري ويذهب هباءً وتقتله المنافسة. لكن، إذا تطلّع كبير حياة طفل، فإنه يفعل ذلك بالمنطق ذاته الذي يرى به نفسه. بينما ما يحدث أنه يرى الطفل نوعًا مختلفًا من الكائنات الحية، ويلقي بهذا المخلوق عديم الفائدة، بعيدًا عنه. أو - بنظرة تربية - يحاول وضع الطفل - مباشرةً - على مدار طريقه هو في الحياة. إنه يتصرف كما لو تصرفت الفراشة (إذا كان ذلك ممكنًا) حيث تأخذ صغيرها وتحمله على جناحها لتشجعه على الطيران. أو يتصرف كالضفدع الذي عليه وضع صغيره خارج الماء؛ لأنه لا بد من أن يتنفس على أرض يُلون بخضار لونها، جلده القاتم، فيصبح أخضر وكأنه جزء من الأرض.

بما يشبه هذه الطريقة أو تلك، يتصرف الإنسان تجاه أطفاله. فالكبار يرونهم اكتمالهم الممكن، ونضجهم وتاريخ حياتهم، ويتوقعون من الأطفال محاكاتهم وتقليدهم. ويخفقون في إدراك أن حياة الطفل تحتاج نوعًا مختلفًا من البيئة، ومعانٍ مختلفة للحياة.

كيف يمكننا شرح هذا الفهم الخاطئ الخطير الذي يعانيه الكبار حول أهم جزءٍ من الإنسان، الأكثر قدرة على الاستحداث والاستنباط،

الأرقى تشكلاً بين الأحياء في العالم المادي، الوحيد الممنوح له ذكاؤه الخاص، السيد على بيئته، المملوء قوة، المتعذر مقارنته وقياسه إلى أقوى الكائنات الحية في قدرته على العمل؟؟.

والإنسان بان وفنان ومنتج ومتوأم مع بيئته، يفعل لطفه أقل مما يفعله النحل وبقية الحشرات لصغارها. هل يفتقد الإنسان الغرائز المرشدة وهي الأرقى والأهم بالنسبة للحياة؟ هل هو - فعلاً - بلا فائدة أو بصيرة تسبق خصائص الحياة التي تضمن وجود وامتداد الأنواع؟

لا بد أن يكون للإنسان مشاعر مثل تلك التي لدى بقية الأحياء. وبالنسبة للطبيعة، فكل شيء يتم تحويله، ولا شيء يتم تدميره وحتى القوى التي تحرك العالم وتضمن بقاءه، تستمر تعمل في حالة تغيير اتجاهها عن الأشياء الممكنة والمناسبة.

الإنسان بانيًا عظيم، لكن متى كان بان عشاءً مناسبًا لطفه؟. إنه مكانٌ يجب أن يتسم بالجمال، ولا تنقصه أي حاجات خارجية. إنه مكانٌ يجب أن يزخر بالحب وتثريه المودة هل هناك مكان يشعر فيه الإنسان بالتنازل عن حاجاته الملزمة لتصرفه المعتاد؟ ومتى كان النضال والمكابدة غير ضروريين للحياة؟ ومتى يدرك أن ابتغاء الأفضل للآخرين هو سر البقاء؟ ونتيجة ذلك، متى يبدو نكران الذات هو مصدر الحياة الحقيقي؟ أليس هناك توقُّ لرؤية معجزة . معجزة تصنع

حياة جديدة؟. هذا هو طريق الخلاص: يرى الإنسان أنه يجب عليه أن يتخلّى عن أعماله الدنيوية ويعود إلى الإيمان.

هذه هي المشاعر التي تنبثق داخل الإنسان لحظة ميلاد طفله. وبكيفية المخلوقات، عليه التخلي عن كيفية تصرفه في حياته ويُفني نفسه في هذا المولود؛ لأن الحياة يجب أن تسير قدماً .. وإلى ما لا نهاية.

نعم، هناك أماكن لا يشعر فيها الإنسان بحاجة إلى مزيدٍ من النصر والإنجاز، لكن إلى الطهر والنقاء، حيث يصبو إلى الدعة والسلام. وفي هذا الطهر الآمن، يحتاج المرء إلى تجديد حياته كنوعٍ من التطهر من سأم الحياة وخطاياها.

نعم، لابد أن يوجد بداخل الإنسان روحانية عظيمة تبتعد وتسمو فوق تلك الحياة الاعتيادية. إنها تمثل صوتاً عميقاً: لا شيء يبقى .. أيها الناس اتحدوا معاً وقفوا بجانب الطفل.

29. الطفل مُعلِّمًا

إن اكتشاف غرائز الإنسان المرشدة، هو - اليوم - واحد من أهم موضوعات البحث. ولقد افتتحنا مجالًا جديدًا وحقلًا واسعًا للتقصي. وأقمنا الدليل على وجود غرائز محددة، بل وحددنا كيف يمكن دراستها. لكن مثل هذه الدراسة، ممكنة - فقط - وسط أطفال أسوياء ممن يعيشون في بيئة مناسبة لنمو مناسب. وعندما يحدث هذا، فإن طبيعة بشرية جديدة ستنتضح معالمها، لدرجة لا يمكن الشك معها في كونها طبيعية سوية وصحيحة.

ولقد أضفت خبرات لا تحصى، حقيقة الأهمية الكبرى للتربية وللمجتمع. ومن الواضح أنه إذا كان للإنسان طبيعة مختلفة من تلك التي نعرفها، فلا بد أن يكون له شكل مختلف من النظام الاجتماعي. وعليه، فإذا كان لابد من تطبيع مجتمع الكبير، فلن يكون ذلك إلا من خلال التربية. فالتغير الاجتماعي - على هذا النحو - لا يمكن أن يتحقق من خلال الأفكار وطاقات الأفراد الذين أُعيد تشكيلهم، بل من خلال هذا البزوغ المتأني المستقر لعالم جديد في قلب القديم، والظهور

التدريجي لعالم الطفل والمراهق. من هذا العالم، ينبغي أن يكون التغير تدريجيًا وإذا طبيعة مرشدة يمكنها أن تقود المجتمع لحياة سوية. ومن الحُقق أن نأمل - أو حتى نتخيل - أن الأشكال النظرية أو الجهود الفردية، هي التي ملأت هذا الفراغ الكبير، كذلك الذي تم من خلال قمع الأطفال. وإذا أصبح الأطفال لا يمكنهم النمو وفقًا لقواعد الطبيعة، بل عبر التحولات القاسية، سيصبح الناس - دائمًا - غير أسوياء. فالطاقة التي يمكنها مساعدة الإنسانية، هي تلك الكامنة بداخل الطفل.

يجب أن نُصرّ على تحقق المعنى القديم المثالي المتجسد في مقولة «اعرف نفسك». بهذا القول الفصل بدأ علماء البيولوجيا الذين أضافوا الكثير للإنسان ولتحسين صحته الجسمية. ورغم ما تحقق من طفرة في هذا المجال، مازال الإنسان لا يعرف الكثير عن حياته النفسية. أما التقدم الأعظم الأول في مجال المعرفة حول الجسم الإنساني، فقد تحقق من خلال تشريح الجثث. بينما سيتحقق التقدم في فهم العقل، من خلال دراسة الطفل حديث الولادة. وتبدو مثل هذه الدراسات، ضرورة من أجل تقدم الحضارة. وستظل مشكلات التربية ومشكلات المجتمع قائمة ما لم يكن هناك أسس لحلها، وهي تطبيع الطفل.

والشيء ذاته يمكن قوله عن الكبار. فهم يمشون ومعهم مشكلة المعرفة الذاتية، التي تعني معرفة القوانين الكامنة المرشدة والموجهة لنمو الإنسان النفسي. لكن تلك المشكلة تم حلها - بالفعل - بواسطة الطفل بطريقته العملية، حيث لا يبدو في الأفق حل آخر. والإنسان المنحرف الذي ينبغي الحصول على القوة والمسئولية، يمكن أن يصبح

متوترًا تنتابه الهواجس حيال أي شيء جيد، وقد ينتقل ذلك إلى شيء خطير، ما لم يحسن استغلاله. وهذا يفسر لماذا قد يصيب العالم أمراضٌ عديدة نتيجة أي شيء جيد، اكتشاف أو تجديد. ويمكننا رؤية هذا التأثير الاجتماعي، في الآلات. فهي قد تستخدم في رفاهية الإنسان، أو في الحروب .. والتقدم الحادث الآن في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا واكتشاف وسائل المواصلات الجديدة، قد أبعد خطر البؤس المتزايد، وأيضًا النجاح المتحقق في مقاومة التخلف. هكذا يحمل التقدم المادي رخاءً وارتقاءً حضاريًا.

إن غنى المستقبل يكمن في داخل الطفل. لذا؛ يجب حمايته من الانحرافات، وملاحظة أسلوبه الطبيعي في التصرف. إن الطفل غامضٌ وقوي ويحمل بداخل نفسه سر الطبيعة الإنسانية.

30 . حقوق الطفل

لم يعد المجتمع مهتمًا بالطفل منذ التحول الحادث في هذا القرن. لقد تم تركه - بالكامل - لرعاية الأسرة. والحماية الوحيدة التي تلقاها، هي مسؤولية الأب. ويعود القانون الروماني إلى قرابة ألفي عام. وأثناء هذه الحقبة الطويلة من الزمن، تحقق - في الحضارة - تقدم عظيم، وأدخلت تحسينات كثيرة على القوانين الخاصة بالكبار. لكن الأطفال جردوا من أي دفاعات مماثلة. وقد أتيح للطفل المساعدة، ماديًا وأخلاقيًا وعقليًا، في أسرته التي يولد بينها، إذا كانت تقدر على كل ذلك. أما إذا كانت الأسرة بلا موارد، فلا يشعر المجتمع بأي مسؤولية تجاهه. وينمو الطفل في قلب الماديات والأخلاقيات البائسة. ولم يسأل المجتمع الزوج أو الزوجة أن يُعِدّا نفسيهما ويأخذا ما يكفي من إعداد لرعاية أطفالهما. وكانت الدولة صارمة جدًا في وضع الدساتير وتوثيقها، شديدة التدقيق في أصغر الشكليات والتوافه، قلقة دائمًا من أجل تنظيم بقية مظاهر وواجبات المجتمع. لكنها لم تبالٍ أو تهتم بقدرة آباء المستقبل على حماية أطفالهم أو بالحد الأدنى من توفير البيئة المناسبة لهم. ولم تقدم للآباء

أي نوع من الإعداد أو التعليمات والتوجيهات، بما يساعدهم على تحمّل مسؤولياتهم. وحتى يومنا هذا، فكل ما يحتاجه الرجل والمرأة من أجل إقامة أسرة، هو الحصول على الترخيص بالزواج، ثم المضي في مراسم وطقوس الزفاف والتمسك بالحرص على أدق تفاصيلها.

من كل ما سبق، ربما نخلص إلى أن المجتمع - وخلال فترة طويلة - لم يلتفت إلى العاملين الصغار الأرقاء الذين منحتهم الطبيعة ثقتها لأداء دور بناء الإنسانية. وفي المقابل، يُراكم الفوائد والثمار من أجل الكبار، ويظل الأطفال مهمّلين منسيين.

منذ حوالي سبعين عامًا - فقط - بدأ الأطباء يتنبهون إلى الأطفال، وبدأوا يدركون أنهم ضحية المجتمع. في تلك الأيام، كان الأطفال أكثر عرضة للترك والهجر مما هم الآن. فلم يكن هناك مستشفيات أو إخصائيون يقفون بجانب الأطفال. لكن، عندما أظهرت الدراسات بدء ارتفاع معدلات وفيات الرضع، أفاق الناس من سباتهم. وأظهرت الأرقام أن من يتبقى حيًا من حديثي الولادة، عددٌ قليل نسبيًا، رغم أن كثيرين منهم قد وُلدوا داخل أسرة. وكان موت الأطفال الصغار يبدو طبيعيًا حيث يعزوه كثيرون إلى فكر خاطئٍ مؤداه أن نسلهم يُعبر - فورًا - إلى الجنة. وهكذا مات كثيرٌ من الأطفال الرضع بسبب الجهل وقلة الرعاية، لأن موتهم كان يُعتبر شيئًا طبيعيًا تمامًا.

لكن، عندما أدرك الناس إمكانية تقديم شيء لهؤلاء الأطفال، نظمت حملة واسعة لتحريك وعي آبائهم. وتم إخبارهم أنه ليس كافيًا

أن يكتفوا بمنح أطفالهم الحياة، بل عليهم الاستفادة من المكتشفات الجديدة للعلم، التي تحمي الصغار من الأمراض ومن خطر الموت. وهذا يعني أن عليهم تعلم مبادئ صحة الطفل وتطبيقها.

ولم تكن معاناة الأطفال تأتي - فقط - من وسط عائلاتهم. وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر، عندما كان الأطباء يدرسون الأمراض بين العمال ويضعون أسس الصحة الاجتماعية، اكتشفوا شيئاً مهماً؛ فبالإضافة إلى أمراض التلوث الناجمة عن نقص الصحة العامة، ظهرت العدوى أحد أهم أسباب مرض الأطفال.

وظهرت ضرورة أن توفر المدرسة رعاية صحية لأطفالها يقدمها المجتمع للمدرسة. فالانحناء لساعات طويلة أمام المقعد المدرسي حتى يتم تعلم القراءة والكتابة، تسبّب في اعوجاج العمود الفقري وضيق التنفس مما يسبب - أحياناً - أمراض الصدر والسل الرئوي. والجهد المتواصل دون إضاءة مناسبة - يسبّب قصر النظر. وكانت أجسامهم - بشكل عام - ضعيفة، قابلة للإصابة بالأمراض نتيجة جلوسهم في فصول ضيقة مزدحمة بالأطفال.

والأسر - في أغلبها - لا تعير كل ذلك أدنى انتباه. فأولياء الأمور يكتفون بالإعجاب وهم يرون طفلاً يجتاز اختباراً ويتعلم بسرعة - قدر الإمكان - وكان لا شيء مطلوب أكثر من ذلك من التربية. إنهم لا يبالون كثيراً بالتعلم كهدف في ذاته، أو بما يتحقق ثقافياً. كان الآباء - ببساطة - ممن يقوم بعبء اجتماعي مكلف. ولا يعينهم سوى أن يتمكن الطفل من الحصول على جواز عبور اجتماعي في أسرع وقت ممكن.

وقد أظهرت الدراسات المدققة بعض الحقائق الجديدة بالاهتمام في ذلك الوقت. أطفالٌ كثيرون يأتون إلى المدرسة وهم منزعمون من المهام والواجبات التي هيئوا لها قبل مجيئهم. بعضهم يسير على قدميه عدة أميال يوزع الحليب على الزبائن قبل ذهابه إلى المدرسة. وآخرون يبيعون الصحف في الطرقات، أو يعملون في منزل. هكذا يأتون إلى المدرسة متعبين وجوعى. علاوة على ذلك، يعاقب هؤلاء الأطفال أنفسهم، من المعلمة لعدم انتباههم أو فشلهم في الفهم أثناء شرح المعلمة. وهي تهتم بمسئولياتها وتبقى وقتاً أطول مع رئيسها أو المسئول عن المدرسة، مما تعطيه للأطفال.. وهكذا يمضي الأطفال حياتهم إما مُستخدمين في البيت أو مُعاقبين في المدرسة.

أظهرت تلك الدراسات المبكرة مدى الظلم الواقع على الأطفال. وسرعان ما حدثت تغيرات متنوعة داخل المدارس. فالآن، يعمل الطبيب والمعلمة - معاً - من أجل صحة الدارسين. والمدخل في البرامج الصحية في هذه المدارس، تم تعميمه على جميع المدن المتحضرة. لقد كتبوا الخطوة الأولى في اتجاه الرعاية الاجتماعية للطفولة.

وإذا استعدنا هذه اليقظة، لن نجد في كل ما سجله التاريخ، أي حدث يُعرف بحقوق الطفل، أو يشير - بإيجابية - إلى أهميتها. وفي الدين المسيحي، لا يقاط الناس من عمى بصيرتهم ولا يرشدهم إلى طريق مملكة الجنة، يقول السيد المسيح بعد أن يعانق طفلاً: «إذا لم تصبح مثل واحد من هؤلاء الأطفال الصغار، فلن تدخل مملكة النعيم». لكن رغم هذا التحذير، يستمر الكبار في محاولة جعل الأطفال نسخة

منهم يسيرون على طريق حياتهم ذاته، وبطريقتهم هم. ويضعون أنفسهم
كأمثلة ونماذج يُحتذى بها في الاكتمال. هذا العمى الكوني، قديم قدم
الإنسانية ذاتها. وهو - بلا شك - واحد من أهم جوانب الغموض في
الروح الإنسانية.

ومنذ القدم وحتى يومنا هذا، ارتبطت التربية بالعقاب. وغاية التربية
هي تحويل الطفل وجعله ناضجاً كبيراً، يضع نفسه محل الطبيعة ويضع
قوانين الحياة داخل رغباته وأهدافه. ودعماً لهذا التوجّه، أصبح ما
تحمله كتب العظات ويقرأه الأب تراثاً منذ آلاف السنين وكان شيئاً
لم يتغير بعد. والناس في الشعوب المختلفة، تعودوا استخدام وسائل
عقاب مختلفة، يعاقبون بها الأطفال. وفي المدارس الخاصة، هناك أوجه
محددة للعقاب. ونخلص من هذا إلى أن الإهانة التي تلحق بالطفل
تشبه تعرّضه للشنق، أو وضع سيارات فوق رأسه، أو تعريضه
للإهانة والتحقير أمام المارة. وهناك عقاب يلحق بالطفل أذى جسيماً.
ومن بين هذا، إرغام الطفل على الوقوف - لساعات - ووجهه إلى
الحائط، أو تركيعه على الأرض عاري الركبتين، أو جلده على الملاء.
والطفل الذي يعاقب في المدرسة يُجبر على رواية الحقيقة في البيت،
لدرجة تجعل الأب يكمل العقاب الذي لحق بابنه من معلميه. بل ويكره
الطفل على إحضار ما يفيد - بخط أبيه - أن البيت قد علم بالخطأ
الذي ارتكبه في المدرسة.

في مثل تلك الحالات، يجد الطفل أنه من المستحيل عليه أن يدافع
عن نفسه. ففي أي اتجاه عليه أن يقاوم، إنه لا يمتلك الحق حتى في

إظهار عدم رضاه عن إداثته. ثم أين الحب الذي يجب أن يخدم الطفل كحارس عليه وقت شدته ومتاعبه؟ لا يوجد أحد. فالمعلمون والأسرة، متحدون على إنزال العقاب بالطفل، ويعتقدون أنه وسيلة تصحيح الخطأ المؤثرة والمفيدة. لكن الأسر ليست في حاجة إلى تذكير بضرورة عقابهم لأطفالهم. فقد أظهرت دراسات متنوعة أجريت على أطفال تم عقابهم، أنه حتى في أيامنا الراهنة، ليس هناك شعب لا تعاقب فيه الأسر أطفالها. فهم يهانون، يضرّبون، يحتقرون، يحبسّون في غرفات مظلمة، يهدّدون بعقاب أفظع، يُحرّمون من أبسط وسائل الترفيه، مثل اللعب مع أطفال آخرين، أو أكل الحلوى والفاكهة. وهذا يجعل أرواحهم بئسة ويشعرون بالوحدة، وكل ما تجنيه الأسرة هو مزيد من المعاناة التي يختزنها اللا شعور ويثبتها في أعماق الطفل. والأطفال - أيضًا - يُجبرون على الذهاب للفرش دون تناول العشاء لتمر ليلة مؤلمة بسبب حزن الأطفال وجوعهم.

ورغم أن اللجوء لمثل هذا العقاب قد اختفى سريعًا، من الجموع المتعلمة، لكنه لم يختفِ تمامًا بعد. فما زال الآباء يصرخون في أطفالهم بصوت عالٍ وأجشّ. فالكبار يعتقدون أن لديهم حقًا طبيعيًا في عقاب الطفل، والأمّهات يعتقدن أن الصفع واجب.

ثم إن العقاب الجسدي قد تم إلغاؤه بالنسبة للكبار، تمامًا مثل توجيه الإهانة للكرامة الإنسانية. لكن، هل هناك أكثر وضاعة من إهانة طفل وضربه؟ لا بد من أن وعي الإنسان - في تلك اللحظة - قد أصيب بالتبدل.

لم يعد التقدم الحضاري يعتمد على جهود الأفراد أو على احتراق شعلة الروح الإنسانية. هذا التقدم الذي يشبه آلة بلا إحساس. إن القوى المحركة للمجتمع هي قوى ضخمة مجهولة تجعله يسير - قُدماً بقسوة وبلا رحمة.

فالمجتمع يشبه قطاراً ضخماً يسير بسرعة جنونية في اتجاه بعض الأهداف ينبغي الوصول إليها. والأفراد الذين يبنون هذا المجتمع، يشبهون المسافرين النائمين في مقصوراتهم. ونومهم الإرادي يمثل أصعب عوائق التقدم الحقيقي. وإذا لم يكن الأمر كذلك، ما كانت هناك خطورة الاتجاه المعاكس بين زيادة سرعة التقدم في وسائل التنقل وبين الصرامة الكبرى الدائمة في الروح الإنسانية. إن الخطوة الأكثر صعوبة في اتجاه الإصلاح الاجتماعي، هي إحياء الإنسانية المتعثرة، وإرغامها على الإصغاء إلى الصوت الذي يناديها. وفي مجتمع اليوم، من الضروري أن يعي المجتمع بأسره، وجود الطفل ويحاول إنقاذه من المعاناة والظلم الذي يقع عليه. يجب أن يكون هناك إدراك لحقوق الطفل، بحيث يستجيب العالم لحاجاتهم ويوفر لهم ما يتطلبه إشباعها. والجريمة الكبرى التي يرتكبها المجتمع في حق الأطفال، هي إهدار المال في أشياء مدمرة للناس وللمجتمع ذاته، بدلاً من استثمارها فيما ينفع الأطفال.

والمجتمع يشبه حارساً على الطفل، لكنه يبدد إرثه. فالكبار ينفقون الأموال على أنفسهم وبينون ما يشاءون. بينما الواضح أن المشاركة الأعظم لثرواتهم، يجب أن توجه إلى أطفالهم. هذه حقيقة غريزية في الحياة نفسها، بل ربما توجد في الحشرات الدنيا. لماذا يُخزّن النمل مؤناً

ويحفظها؟ لماذا تبحث الطيور عن الطعام وتحمله إلى أعشاشها؟ لكن الطبيعة لا تقدم أمثلة للكبار الذين يحتفظون لأنفسهم بكل شيء ويهملون نسلهم ويتركونهم للبؤس. ومن ثم، لا شيء يفعل من أجل الطفل. جسمه حيّ ينبض، وهذا كافٍ. وعندما يحتاج المجتمع نقوداً عاجلة، فإنه يحصلها من المدارس، وخاصة من مدارس الفقراء التي تحمل بذور الحياة. إنها تحصل من هذه المدارس حيث لا صوت يدافع عنها. إنها واحدة من أبشع الجرائم الإنسانية. ولا يدرك المجتمع أنه يتسبب في تدمير مزدوج عندما تُستخدم هذه الأموال في بناء عدة الحرب. إنها مدمرة مرتين لأنها تمنع الحياة وتشعل الموت. لكن الاثنتين نتيجة لخطأ واحد. وحيث لا يبذل جهد لتأمين البيئة المناسبة للأطفال فلا بد أن ينشأ الرجال بأخلاق شاذة فاسدة. لذا، لا بد من توجيه الكبار وتنظيمهم، ليس من أجلهم، بل من أجل أطفالهم. يجب أن تملأ أصواتهم تنادي بالحق الذي يمنعهم عن رؤية عمى بصيرتهم، والذي - لو طبق - لن يسألم عنه أحد. وإذا كان الحراس على الأطفال غير متقين وغير أمناء، فستبقى الأشياء كما هي، وتُرد إليهم ودائعهم وإرثهم الذي تركوه.

مهمة الوالدين

والدا الطفل ليسا صانعين، بل هما حارسان له؛ عليهما حمايته وإعطائه الاهتمام والرعاية والحب، مثل شخص يكمل الثقة لدى آخر يشعر بالخوف. ولأداء تلك المهمة، على والدي الطفل أن يقوموا بتنقية

الحب الذي غرسته الطبيعة في قلوبها. وعليها أن يتلها لفهم هذا الحب بحسبانه تعبيراً واعياً عن مشاعر أعمق يجب ألا يفسدها الهوى الشخصي أو التكاسل. على الوالدين الاهتمام بالسؤال الاجتماعي اليوم، والنضال لتحقيق الفهم المشترك وتميز حقوق الطفولة في العالم. وكثيراً ما يمكن قوله حول حقوق الإنسان في السنوات الأخيرة، وخصوصاً حقوق العمال. لكن حان الوقت الآن للحديث عن الحقوق الاجتماعية للطفل. وحقوق العمال وإدراكها، هي أمر غاية في الأهمية بالنسبة للمجتمع، حيث أنها الوسيلة لبقاء المجتمع. لكن إذا أنتج العمال ما يستهلكه الناس، ويخلقون أشياء لا تحصى؛ فإن الطفل ينتج الإنسانية ذاتها. وبالتالي، تظل حقوقه هي ما يحتاج - بشدة - الفهم والإدراك. والدليل على أن المجتمع سيوفر للأطفال - بل سيغدق عليهم - عظيم رعايته، هو أنه سيتلقى منهم - في المقابل - طاقات وإمكانيات جديدة. سيتحرك وعي الإنسان بقوة بدافع حقيقة تشير إلى إهمالهم ونسيانهم حقوق الطفل. وأنهم أخفقوا في إدراك جدارته، وقوته، وطبيعته الزائدة.

على الوالدين مهمة غاية في الأهمية. إنهم - فقط - من يستطيع إنقاذ أطفالهم، باتحادهم وعملهم معاً من أجل تحسين المجتمع. وعليهم أن يمتنوا للمهمة التي أوكلتها الطبيعة لهم. إن عليهم الدور الأول في المجتمع، والتحكم في مجتمع الإنسانية، تماماً مثلما يهبون أطفالهم الحياة. وإذا لم يتصرفوا كما يجب فسيصبحون مثل Pilate الذي كان باستطاعته

أن ينقذ المسيح، لكنه لم يفعل. واحتجز حشدٌ من الناس المجنّين
القدماء يطلبون حياة يسوع المخلص، و Pilate لم يعارضهم.

والآباء والأمهات اليوم يتصرفون مثل Pilate. إنهم يهملون
أطفالهم تاركين إياهم للعادات الاجتماعية، كما لو أنها كانت قدرًا محتومًا.
لا صوت يعلو في دفاعاتهم. وإذا كان هناك من صوتٍ، فهو صوت
الحب وقوة الحب.. إنها المسؤولية الإنسانية لوالديهم.

وكما كانت ملاحظة «إيمرسون»، فالطفل يشبه المسيح في نزوله
على الناس كي يُعيدهم إلى مملكة الجنة.

المؤلفة

وُلدت «ماريا مونتيسوري» في «كيارافيل» بإيطاليا، في الواحد والثلاثين من أغسطس عام 1870 وفي 1894 كانت أول سيدة تتخرج في كلية الطب جامعة روما. وفي 1899 بدأت دراسة المشاكل التربوية للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. عملت وفقاً للخطوط الأولية التي وضعها الطبيب الفرنسي «إي. سيجوان»، وأنجزت نتائج مبهرة. وقد اجتاز هؤلاء الأطفال اختبارات القراءة والكتابة مثل أولئك الأسوياء. استنتجت د. «مونتيسوري» أن الطرق التربوية التعليمية ذاتها، سوف تؤدي إلى نتائج مبهرة مع الأطفال الأسوياء في عمر أصغر. وبدأت ذلك - بالفعل - مع أطفال أصغر عمراً في «روما». وواجهت صعوبات مع المدافعين عن الطرق الأرثوذكسية في التربية، والذين راقبوا نظامها المشجع على حرية الحركة وتدمير الحواجز، وتابعوها عن كسب. ولكنها وجدت الدعم من المصلحين المتحمسين. ومنذ (1900 - 1907) ألقت «ماريا مونتيسوري» محاضراتها عن «أنثروبولوجيا التربية» بجامعة روما. وفي 1922 تم تعيينها موجهة حكومية على مدارس في «إيطاليا».

كُتبت أكثر من ستة كتب عن التعليم والطفل، والنظام التربوي الذي طُوّرَ باسمها. وأمضت سنواتها الأخيرة في الإشراف على دورات تعليمية بـ«أسبانيا»، و«إنجلترا»، و«الهند». توفيت «ماريا مونتيسوري» في «نوردويك» في السادس من مايو 1952.



د. ماريا مونتيسوري

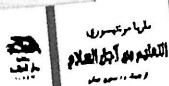


في
البيت العربي



في
البيت العربي





نُرحب بآرائك ومقترحاتك.. رجاء لا تتردد في الكتابة
إلينا.. فالتواصل معك يُسعدنا



٥ شارع غرناطة - من ميدان روكسي - روكسي - مصر الجديدة -
القاهرة - مصر

مكتبة دار الكلمة Logos

☎ 02022597067 ☎ 0201226383986

☎ 0201100873114 ☎ 0201011870884

www.darelkalema.com

info@elkalema.org

<https://www.facebook.com/elkalema.Roxy/>

<http://www.facebook.com/Montessori-في-العالم-العربي-in-the-Arab-world>

<http://www.facebook.com/LiLillbnatFqt>

<http://www.facebook.com/pages/Green-Egypt-education--مصر-الخضراء>

<https://www.facebook.com/MydwFyalmlAlhrwfMidoInThe-WorldOfLetters> | ميدو في عالم الحروف Mido In The World Of Letters